رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العقيدة

في

ضوء العقل والعلم

تأليف

عبد الغني الخطيب

المكتب الإسلامي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العقيدة
في
ضوء العقل والعلم

تأليف
عبد الغني الخطيب

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
١٣٩٩ - ١٩٧٩
بيروت

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

دليل الموضوعات

١ ـ نشأة الدين وأصل العقيدة . ٥

٢ ـ إثارة القرآن لمشاعر الإيمان في العقل والفطرة والوجدان . ٩

١ ـ دليل الجمال . ١٢

٢ ـ دليل الحركة . ١٤

٣ ـ دليل الخلق والإحياء . ٢٠

٤ ـ دليل العناية ولطف التدبير . ٢٢

٥ ـ دليل القدرة الإلهية في خلق النبات . ٢٨

٦ ـ دليل القصد والاتقان . ٣١

٧ ـ دليل الحكمة في توزيع الماء واليابسة على سطح الأرض . ٤١

٨ ـ دليل الحكمة في توزيع الجبال على مناطق الأرض . ٤٢

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نشأة الدين وأصل العقيدة

الشعور الديني غريزة فطرية ملازمة للإنسان من حين وجوده على الأرض ، والاعتقاد بوجود إله خالق للإنسان وللكون ، ثمرة هذا الشعور الديني ، ونتيجة لهذه الغريزة الفطرية ، يؤيده العقل السليم بإقامة الأدلة القاطعة على وجود هذا الإله من ذات المخلوقات المحسوسة والمشاهدة ، فمهما حاول العقل المنحرف عن هداية الفطرة ، أن يفلسف الإلحاد ويبث الشبه والشكوك وينكر وجود الخالق للإنسان وللكون لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً .

لأن إنكار وجود الخالق للإنسان وللكون هو إنكار لوجود الفطرة الإنسانية نفسها ، وإنكار الفطرة الإنسانية عبث صبياني ، وسفه طفولي لا يأبه له العقلاء .

إلا أن العقل الإنساني ضلّ - في زحمة الأوهام والتخيلات - طريقه عن معرفة صفات الخالق العظيم ، وسلك طرقاً ملتوية ومنحرفة ، ابتعدت به عن طريق الحق والصواب ، فتصور الإله بصور شتى من المخلوقات ، من إنسان وحيوان وجماد وغيره ، واعتقدها آلهة فعبدها وخضع لها وقدم لها القرابين والضحايا والهبات لتمنحه نفعها ، وتمنع عنه ضررها .

ذلك لأن الإنسان في مراحل حياته الأولى كان يعتمد في جميع أعماله وتصرفاته على حواسه وغرائزه ، وكان عقله الفطري لا يزال في مهده ، لم يتم بعد ، ولم ينضج ولم يتسع أفق تفكيره حتى يحكم على الأشياء الغريبة التي تفاجأه والتي يعجب منها ، أو يندهش لها ، حكماً صحيحاً قائماً على التفكير

السديد ، بل إن الخيالات والأوهام هي التي كانت تسيرُه وتتحكم فيه ، وهي التي كانت تتغلب على أحكامه وتصرفاته ، فعندما يشاهد حادثة غامضة من مظاهر الطبيعة يحكم عليها حسب ما يتصورها في ذهنه ومخيلته .

فالخوف ـ مثلاً ـ هو غريزة فطرية في الإنسان ، وكان الإنسان ولا يزال يخاف أعداءه ، وبخاصة المتربصين به من إنسان أو حيوان ، ويكون خوفه أكثر ما يكون في الأوقات المظلمة ، ففي هذه الأوقات لا يعرف من أين يأتيه عدوه ، فلا يتمكن من الدفاع عن نفسه ، أو الحذر منه واتقاء شره ، لذلك يتضاعف خوفه من عدوه ، ومن جهالته للجهة التي يأتيه منها ، والإنسان مطبوع على التذلل لمن يخافه ليتقي بذلك شره وضرره ، وعلى الخضوع لمن يحبه ، ليجلب نفعه وينال خيره .

فعندما تبزغ الشمس وتشرق بنورها على الأرض ، يرى الأشياء واضحة أمامه فيأمن على نفسه من مباغتة أعدائه ، ويسترد ثباته وشجاعته التي فقدها اثناء الليل ، والإنسان لا يزال إلى الآن يخشى الظلمة ، ويطمئن إلى النور ، وكأنها ميراث ورثها من بقايا عهوده الأولى ، لذا صورت له مخيلته أن الشمس رمز لإله الخير ، أو هي عينه الساهرة التي تكلأ المخلوقات ، فأحبها وتقرب إليها بالعبادة ، وأن الظلمة رمز لإله الشر ، فخافها وتملّق لها بالعبادة ليتقي شرها . وقس على ذلك جميع العقائد الوثنية ، خاف الرعد والبرق وظنهما صوت الإله وبريق عينيه عند غضبه فعبدهما ، هاب الغابة وظنها موطن الإله فعبدها ، إطمأن لضوء الكواكب في الليل فأحبها وعبدها ، وهكذا جَرَّهُ خياله الخصب إلى عبادة المظاهر الطبيعية الغامضة وكان يعبدها جلباً لنفعها أو إتقاء لضررها .

ومع أن العقل الإنساني نما في مراحل التاريخ ، ونضج تفكيره ، إلا أن خصوبة الخيال وسيطرة الأوهام بقيت هي المتغلبة عليه ، فغلّفته بضبابها الداكن ، ولفّعته بسحابها القاتم ، وتركته في بيدائها سائراً حائراً لا يهتدي سبيلاً ، ولايعرف مخرجاً إلى طريق الحق والنور . والعقل قد يضل ـ إن لم تدركه

عناية الله ـ وكثيراً ما يضل حتى عقول الفلاسفة والحكماء الكبار ، وشاهدنا على ذلك ، ما عرفناه عن فلاسفة اليونان وغيرهم من عقلاء الأمم وحكمائها الذين حرموا نور الوحي ، وهداية الرسالة ، واعتمدوا في الوصول إلى الحق عن طريق العقل وحده . فعميت عليهم الطرق ، وتفرقت بهم السبل ، وضلوا في شبه الأدلة ، فعددوا الآلهة ، ولم يهتدوا إلى الإله الحق . ولكن الله الذي خلق عباده ، كان ولا يزال رحيماً بهم ، عطوفاً عليهم ، لم يكلهم إلى أنفسهم وعقولهم ، فأمدّهم بقبس من نوره ، أمدهم بالوحي من عنده ، فأرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، ودلهم على طريق الحق ، فكانت تلك الرسالات التي توالت على الإنسانية شموع هداية تنير لها طريقها في مسيرتها التاريخية ، وكانت الإنسانية تنتقل من طور إلى طور ، ومن مرحلة إلى مرحلة أخرى أرقى من سابقتها ، حتى استعد المجموع العام لدين عام فمنحه الله دين الإسلام . كان الإسلام شمس هداية أشرقت على الوجود ، فأضاءت جوانب الحياة ، فغطت شموع الرسالات السابقة ، كما تغطي الشمس نجوم السماء .

أضاءت العقول فأزالت منها ضباب الأوهام وسحب الخرافات . أضاءت النفوس فأذهبت عنها رجس الوثنية ، وعفن الأنانية ، وصعر الكبرياء أضاءت القلوب فأزالت ظلمتها ، وأذهبت قسوتها ، وملأتها أمناً وإيماناً ، وسلاماً وإسلاماً ، وعطفاً وحناناً .

أضاءت حياة الانسانية فقلبتها رأساً على عقب ، بدلت ظلامها نوراً ، وحزنها سروراً ، وجهلها علماً ، وطيشها حلماً ، وفسادها صلاحاً ، وفشلها نجاحاً ، وضلالها رشاداً ، وانحرافها سداداً .

فكانت خير رسالة نزلت على خير رسول ، جاءت أمة عاشت في العماء فكانت خير أمة أخرجت للناس ، رسالة جمعت فأوعت ، وعَمَّت فأسبغت ، وأمطرت فأغدقت ، وأثمرت فأينعت . كان منهاجها كاملاً ، ونظامها شاملاً ، ومبادئها عالية ، ومقاصدها سامية ، وشريعتها سمحة ، وتطبيقاتها سهلة ،

وأحكامها عادلة ، وأخلاقها فاضلة ، وأفكارها راقية ، وهدايتها باقية ، وعلومها زاكية ، وحضارتها زاهية .

حوى كتابها من الأدلة الفطرية والعقلية والعلمية ما يؤمن بها البدوي في باديته ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت[1] ﴾

والفيلسوف في تأملاته ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[2] والعالم في أبحاثه ومختبراته ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[3] .

لذلك حاولنا أن نثبت في هذا الكتاب ـ وما يتبعه من بحوث العقيدة ـ أدلة من مسارح النظر في الطبيعة الغناء ، فنغذي الفطرة في النفوس ، ومن مطارح التفكير في الكون ، فنشبع فهم العقل في النظر والتأمل . ومن مجال البحث في نظام الكون وسننه فنتحف العلم بآيات الابداع والاختراع ﴿ قل أيها الناس قد جاءكم الهدى من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾[4] .

* * *

(١) الغاشية ١٧ ـ ٢٠

(٢) الذاريات ٢٠ ـ ٢١

(٣) المؤمنون ١٢ ـ ١٤

(٤) يونس ١٠٨

إثارة القرآن لمشاعر الإيمان

في العقل والفطرة والوجدان

هذه الطبيعة الماثلة أمام الإنسان ، بكل ما فيها مناظر مبهجة للنفس ، وممتعة للحس ، وآسرة للعواطف ، وبكل ما تحويه من مظاهر مدهشة للعقل ، ومثيرة للمشاعر ، ومهيجة للوجدان ، وباعثة على التأمل والتفكير ، وبكل ما تتصف به من حسن وجمال ، وروعة وكمال . هي في حقيقتها كتاب الله المفتوح أمام البصر والادراك ، يسرح الإنسان نظره في مجالاتها صباح مساء ، من سماء بعيدة ، وأرض قريبة ، وفضاء واسع ، وموجودات كثيرة مختلفة الصور والأشكال ، متعددة الأجناس والأنواع ، لا يحدها حد ، ولا يضبطها عد ، ولا يحصيها لسان ، يشاهد فيها آيات الله المعجزة ، من نشأة الحياة ، وتعاقب الأحياء ،ومن ليل أو نهار ، ونبات وأشجار ، وحيوان وإنسان ، ثم يشاهد تحولها إلى عدم وفناء ، مواكب من الأحياء تأتي ومواكب أخرى تمضي ، وهكذا يمر شريط الوجود والعدم أمام بصر الإنسان يتعاقبان باستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا الكون المادي ، بكل ما فيه من علاقات وثيقة ، وروابط متينة ، وسنن ثابتة ، ونواميس محكمة ، هو مرآة العقل الإنساني ، ونافذة فكره على العالم ، يطل من خلالها على الوجود ، ويشرف منها على الكائنات ، فيجد في آياتها البديعة مسارح للنظر والتأمل ، وفي آفاقها الرحيبة مجالا للبحث والتفكير ، يفيض بها الوجدان روعة وجمالا ، ويمتلىء بها القلب طمأنينة وإيماناً ، فيرى عظمة الخالق في خلقه ، وحكمة الصانع في صنعته ، ويشاهد

قدرته الخارقة في إيجادها وتدبيرها ، وحكمته الرائعة في إتقانها وتنظيمها ، ويطلع فيها على آيات باهرات من الإبداع والإحكام ، في ربط أجزائها بسنن ثابتة لا تتحول ، ونواميس متقنة لا تتبدل ، تدل جميعها عليه ، ويشير وجودها إليه .

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خطّ فيها لو تأملت سطرها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومن أعجب الأمور وأغربها ، أن بعض الناس ، قد عميت أبصارهم عن رؤية هذه الأدلة الماثلة أمامهم ، في جمال الطبيعة وتنسيقها في أي جزء من أجزائها ، في البحر وما فيه من روعة منظره ، ورهبة مركبه ، في الجبل وما فيه من علو قمته ، وجمال قبته ، وانحدار قاعدته ، في الوديان المنخفضة ، والهضاب المرتفعة ، في التلاع والقيعان ، في الأشجار المتكاثفة ، والنباتات المختلفة ، في الغابات والحقول ، في الأزهار العطرة ، والثمار اليانعة ، في رمال الصحراء والفيافي الجرداء ، في حيوانات الأدغال ووحوش الجبال ، في طيور السماء وأسماك الماء ، في كل شيء يقع عليه البصر ، مما يبهج النفس ويمتع الحس ، فيه ألف دليل ودليل على وجود إله خالق صانع مبدع ، خلقها ودبرها ، ولكن لا تعمى الأبصار عن الرؤية ، بل تعمى البصائر عن الفهم والإدراك .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

والقرآن الكريم الذي هو كتاب الله المعجز الناطق بأوضح آياته وأبلغ عباراته، قد عرض بعض هذه الأدلة عرضاً بديعاً رائعا ، ففتح بذلك عيوناً عمياً فرأت ، وبلّغ آذاناً صماً فسمعت ، وفتق قلوباً غلفاً فوعت ، وأنار عقولاً مظلمة فاهتدت .

والنص القرآني عندما يعرض الحقيقة المجردة يعطي معها قوة إشعاع ، وقوة حرارة ، وقوة إيحاء ، فإشعاعها ، يزيل عن الأعين الغشاوات فتراها واضحة ناصعة .

وحرارتها ، تذيب من القلوب الشبه والأوهام ، فتشعره بالصدق الصريح . وإيحاؤها ؛ يدحض الشكوك عن العقل ، فيستقبل فيها الحق واليقين .

ولنحاول الآن عرض الحقيقة المجردة في إطار القرآن ، لترى هذه المعاني تبرز سافرة دون حجاب .

وإليك بعض هذه الايات التي عرضت الأدلة ببساطة الفطرة ووضوح الحق .

١ ـ قال تعالى[١] : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[١] .

٢ ـ ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[٢] .

٣ ـ ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] .

٤ ـ ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا، وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[٤] .

هذه الآيات الكريمة وأمثالها توجه العقل السليم إلى مناط التفكير الصحيح

---

(١) الأنعام ٩٩

(٢) الأنعام ١٤١

(٣) الرعد ٤

(٤) عبس ٢٤ ـ ٣٢

بعد عرض هذا الحشد الهائل ، من أمطار نازلة ، ومياه سائلة ، وأخرى نابعة ، وأشجار مختلفة ، وثمار يانعة ، واختلاف في الطعوم والألوان ، ومنظر مبهج ، في هذا الجو الفاتن ، في جمال طلعته ، وجلال روعته ، من الأدلة الفطرية البسيطة ، السهلة المأخذ ، والقريبة التناول ، والتي لا يعسر فهمها ولا إدراكها على أي إنسان ، سواء أكان ساكن الصحراء الخالية ، أو ساكن القصور العالية ، فتوصله إلى الإيمان القاطع ، واليقين الجازم ، إلى وجود الإله القدير ، الذي يحس به شعوره ، ويتحسس له وجدانه ، ويقنع في ثبوته عقله .

وإليك بعض هذه الأدلة التي أرشدت إليها هذه الآيات :

١ ـ ﴿دليل الجمال﴾

تصور أنك تقف على نشز من الأرض ، وقت بروز الشمس من حجابها ، وتجردها عن جلبابها ، تمتع نظرك بمشهد منعش للنفس ، ممتع للحس ، مشهد فيه نضارة وغضارة ،وبشاشة وهشاشة ، وبهجة للمهجة ، من خضرة النبات ورطب البقول ، وزرع الحقول ، وأشجار الحدائق ، وغراس البساتين ، وأزهار الرياض ، أما نباته فنديّ مزهر ، وزهره فواح عطر ، ذو ألوان مختلفة ، من بياض ناصع ، وأصفر فاقع ، وأحمر قان ، وبنفسجي وعسجدي . وأما زرعه فقد فرّخ ، وأخرج شطأه ، وآزر بعضه ، حتى استغلظ فاستكمل واستوى في الطول ، وقام على سوقه ، ثم سنبل فكان حبه متراكباً بعضه على بعض ، يشبه في استقامته ، وارتفاع سنابله ، الأسنة فوق أقنية الرماح المرفوعة ، يهتز ويتماوج بفعل النسيم ذات اليمين وذات الشمال ، وأما شجره فقد أثمر وأينع ، منه السامق في الطول ، ومنه الموقر في الحمل ، ومنه المعروش على السقوف والأعمدة ، ومنه غير المعروش المتشعب الأغصان والمتشابك الفروع ، فيه الزيتون والرمان ، وقنو النخل المتعثكل ، وعناقيد الأعناب المتدلية ، وفيه الطلح المنضود ، وغير ذلك من الفواكه اليانعة ، والقطوف الدانية ، والثمار الناضجة .

فهذا الجمال السافر عن الحياة المتفتحة ، وهذا المشهد الساحر من المناظر المبهجة ، وهذا الانسجام التام في الحسن الرائع ، والكمال الباهر . من الذي أبدع وجوده وأحسن صنعه ؟ من الذي أخرج هذه اللوحة الفنية الرائعة من ظلمات الأرض ، ورسم صورتها على صفحة الوجود فأبرز معالمها ، وأبدع مخططها ، هل في مقدور المادة الميتة أن تفعل ذلك ؟ أم أن لها خالقاً عليماً سبح وجودُها بحمده ، ونطق لسانُ حالها بوجوده ؟

تأمل في رياض الورد وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... على أهدابها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

بمثل هذه الآيات الباهرات التي تتحول إلى روح علوية ، تتسرب إلى النفس فتثير فيها شتى المشاعر والأحاسيس ، وتجيش في القلب مختلف العواطف والوجدانات ، وتهز أمشاج الفطرة الانسانية بألوان من السرور والحبور ، وتقدح زناد العقل فتضيء فيه مشاعل التأمل والتفكير ، يبقى كتاب الله جديداً إعجازه ، متجدداً تأثيره ، في القلب والعقل ، في النفس والفطرة .

* * *

٢

﴿ دليل الحركة ﴾

عندما كنت أفكر في إقامة هذا الدليل ، لفت انتباهي حركة المروحة التي كنت قدأشغلتها لطرد الحرالخانق من جو الغرفة ،وإحلال البرودة اللطيفة محله ، فكانت حركتها تثير الهواء الهادىء الساكن وتحوله إلى تيار من الريح الرُّخاء ، يتماوج يمنة ويسرة حسب اتجاهات المروحة المتحركة ، وكان يصدر عن حركتها هواء لطيف منعش للنفس ، ومنشط للجسم ، يزيل عنه الملل ، ويبعث فيه النشاط والعمل ، مما يدل على أن الهواء من أعظم نعم الله على الانسان ، بل وعلى سائر الحيوان ، لأنه لو ارتفع الهواء عن الأرض لحظة واحدة لصعق كل حيوان عليها في طرفة عين .

ومعلوم ـ بعد البحث والاستقصاء ـ إن مياه الأمطار تَتصَعَّدُ أبخرة من مياه الأرض ورطوباتها بفعل حرارة الشمس .

والرياح هي التي تثير هذه الأبخرة وتكثفها ، وتشكل منها سحباً متراكمة ، وتحملها إلى أماكن نائية من الأرض عن أماكن صدورها ومراكز انطلاقها .

فإذا كنت أنا قد تسببت في تحريك المروحة التي حركت الهواء المنعش في جو الغرفة وحولته إلى ريح هادئة طيبة ، أزالت عن الجسم الفتور والاسترخاء ، وبعثت فيه الحبور والنشاط ، فمن الذي حرك هذا الهواء الكوني وحوله إلى هذه الرياح المعروفة عند العرب وهي ريح الشمال والجنوب والصَّبا والدّبور ، والتي أثارت الأبخرة الصاعدة من مياه البحار والأنهار وغيرها وكونت منها السحب

المتكاثفة وحملتها إلى تلك الأماكن النائية العطشى ، فاحيت به الأرض والحيوان والانسان ؟

وإذا كانت حركة المروحة قد طردت الحر من جو الغرفة ، وأحلت محله تياراً من الريح المتهدهد الناعم المنعش ، فإن الرياح الكونية بجريانها وقوة اندفاعها تطرد الحرارة من مناطق الصحراء المحرقة ، والأغوار المنخفضة ، والمناطق الاستوائية المتوهجة ، ولولا حركة الهواء وحدوث الرياح لازدادت الحرارة في هذه المناطق الحارة سنة بعد سنة ، حتى تكون محرقة لكل شيء ، ولا ازدادت الرياح في تلك البقاع الباردة حتى ييبس فيها كل شيء ، فيكون جليداً متجمداً . فحركة الرياح إذن تنتفع بها كل الأجواء الحارة والباردة على السواء ، فتحول بعض برودة المناطق الباردة إلى المناطق الحارة ، وبعض حرارة المناطق الحارة إلى المناطق الباردة ، فتلطف بذلك الجو وتجعله قابلاً للحياة .

وحركة الرياح تطهر المناطق العفنة والموبوءة ، وتشتت شمل الجراثيم الفتاكة ، وتبعدها عن التجمع الذي يحولها إلى حيوانات مفترسة للانسان والحيوان والنبات . وحركة الرياح تبشر بقدوم الأمطار ، والعرب تعرف الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها .

والرياح تنقل مادة اللقاح في النباتات من ذكوره إلى إناثه فتنتج بسبب ذلك وتخصب ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾[1] .

وقد ثبت لدى العلماء بعد نزول هذه الآية بقرون وأحقاب ، أن الرياح تلقح النبات فعلاً ، وأنها تلقح السحاب أيضاً بنويَّات التكاثف ، أو المراكز التي تتجمع عليها نقط المطر داخل السحب ، قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ فقد ذكر نزول الماء عقب وصف الرياح بالتلقيح ليشعر بهذا المعنى المتقدم ، وهذا المعنى يعتبر من

---

(١) الحجر ٢٢

أعظم الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ، لأنه يعطينا خلاصة ما وصل إليه علم الرصد الجوي الخاص بطبيعة السحب وسبل استمطارها .

فمن الذي أرسل هذه الرياح من مهابها وجهزها بهذه الخواص ؟

ونحن وإن كنا نعلم من طريق العلم بالسنن الكونية عوامل هبوب الرياح ، من الأماكن الباردة المكتظة به ، إلى الأماكن الحارة ، الخفيفة منه ، ولكن هل يعلم أحد من البشر متى تهب الرياح ، ومتى يشتد الحر ، وفي أي الأيام من شهور الصيف ، ومتى يشتد البرد ، وفي أي الأيام من شهور الشتاء بالنسبة إلى سائر الأيام ؟ فالعلم بجميع ذلك علم إجمالي ليس فيه تحديد كما هو معروف عند أهل الأرصاد الجوية .

فحركة الأرض واختلاف الضغط الجوي من حرارة شديدة في مناطق ، وكثافة هواء في مناطق أخرى ، واختلاف تشكيل الجبال ومناطق الأرض ونحوه ، كل ذلك هو كجهاز المروحة ، ولكن من المصمم لهذه المروحة الكونية التي تسبب عنها حركة الهواء الساكن وحولته إلى رياح شمالية وجنوبية وصبا ودبور ، حارة وباردة ، عاصفة وغير عاصفة ؟

هل تحرك بنفسه دون محرك ؟ فهذا يخالف قانون الحركة الذي يقضي أن كل حركة لا بد لها من محرك ، فمن المحرك إذن ؟

والرياح تنطلق من مهابها وفق السنن الكونية ، وتثير بحركتها وقوة اندفاعها الأبخرة الصاعدة من مياه الأرض التي سببتها أشعة الشمس ، وتكوّن من هذه الأبخرة السحب الموقرة ببخار الماء التي تسوقها هذه الرياح إلى أماكن بعيدة عن مراكز انطلاقها من سطح الأرض ، هي في أشد الحاجة إلى الماء ، كالصحاري والجبال وغيرها ، ثم تفرغ ما تحمله فيها بقدر حاجتها إليه بعد أن تتبرد في طبقات الجو ، فتحيي بذلك الأرض والانسان والحيوان ، فهذا الماء الذي هو سبب الحياة ، من أين جاء إلى الأرض ومن الذي جاء به ؟ من المعلوم

عند علماء الطبيعة أن الأرض كانت عند تكونها كتلة نار ملتهبة ، ومعلوم أيضاً أن الماء يتألف من غازين الأوكسجين والهيدروجين ، والأوكسجين هو مولد الاشتعال ، بدليل أننا لو أوقدنا مصباحاً من البترول ثم وضعنا على فوهته غطاء محكماً لانطفأ المصباح في الحال ، لأننا منعنا عنه الأوكسجين الداخل إلى الفتيلة المشتعلة من الفوهة الذي كان يمدها بالاشتعال .

والعنصر الثاني الذي يتألف منه الماء هو الهيدروجين ، وهو أيضاً غاز يشتعل باشتعال قرينه الأوكسجين ، فمن المستحيل إذن وجود الماء على الأرض عند تكونها وهي جمرة متوقدة تبلغ حرارة سطحها كحرارة أمها الشمس وهي ١٢٠٠٠ درجة فرنهيت ، فلم يكن بد إذن من أن الماء الأول قد نزل من السماء إلى الأرض بعد تبردها وبلوغ هذه البرودة إلى درجة ٤٠٠٠ درجة فرنهيت التي تسمح بتكون الماء من عنصريه الأوكسيجين والهيدروجين ، كما أشارت إليه الآيات الكثيرة في القرآن الكريم ، والمراد بالسماء جهة العلو ، فيحتمل أن يكون هذا الماء من الهواء الغازي المشبع ببخار الماء الذي كان يملأ الفضاء قبل أن تكوّن الأجرام وهو أحد عناصرها الذي تألفت منه ، أو أن الأرض أطلقت غازاتها أثناء تبردها فذهبت في الفضاء الجوي للكون ، وتحولت بقايا الغازات بعد ذلك إلى المركب المائي ثم انجذبت إلى الأرض ، أو بقي غازاً هوائياً فوق سطح الأرض واكثرها في صورة الأوكسجين والنتروجين ثم الهيدروجين .

وقد أشارت الآية إلى هذا الغاز الكوني بلغة العلم ، والماء بلغة القرآن فقالت : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ [1] ولأن من عناصر الماء الهيدروجين وهو مولد الماء كما هو معروف .

إذن فجميع المحيطات المائية الهائلة التي على الأرض كانت مع الهواء في السماء ، وكانت تهطل أمطاراً حتى إذا قارب نزولها الجو السطحي للأرض عادت بخاراً ثانية لشدة حرارة الأرض آنذاك ، وهكذا حتى تبردت قشرتها ،

(١) هود ٧

وأصبحت صالحة لقبول الماء المركب من عنصريه الاوكسيجين والهيدروجين ، عندئذ هطلت الأمطار على الأرض كأفواه القرب ، فسالت السيول ، وفاضت الفيضانات ، وثارت البراكين ، وحدثت هزات وزلازل ، وتشكلت الأرض على الصورة الملائمة للحياة .

أما الأمطار التي يتكرر نزولها كل عام فهي أبخرة مياه الأرض ورطوباتها الموجودة عليها ، ترتفع فتبرد فترجع أمطاراً في جهات شتى من الأرض بفعل الرياح التي تسوق السحب الموقرة بالماء .

ولحصول المطر عوامل ثلاثة ـ كما هو معروف ـ فإذا توفرت نزل المطر ، وإن تخلف عامل منها تعذر نزوله وهي :

١ ـ التبخر ؛ وهو شدة تأثير أشعة الشمس على السطوح المائية من بحار وبحيرات وأنهار وثلوج جبلية وغابات ونباتات خضراء وغير ذلك من الأماكن الرطبة .

٢ ـ وصول الهواء إلى درجة الإشباع ، وهو استمرار التبخر حتى يتداخل بخار الماء مع ذرات الهواء ، ويحصل التعادل بينهما فيبلغ الهواء بذلك درجة الإشباع .

٣ ـ التكاثف والتراكم للسحب ؛ والتكاثف للسحب هو ضد التبخر حيث يتحول بخار الماء من الحالة الغازية إلى قطرات مائية دقيقة أو إلى الحالة الصلبة إذا بلغت درجة الحرارة الصفر فما دونه .

فهذه العوامل الأساسية للمطر ، وهناك عوامل أخرى ثانوية معروفة . إلا أن هذه العوامل الثلاثة تحتاج في تأليفها وقوة تأثيرها إلى عالم خبير وفاعل قدير . فمن هو هذا العالم الخبير الذي كوّن هذه العوامل وألف بينها بقدرته ورتبها بحكمته على هذا الترتيب ، تبخر فإشباع للهواء بمولد الماء فتكاثف للسحب فنزول للمطر ؟

إذا أردنا الجواب الحق فلنسمع إلى القرآن الكريم لنقنع بالجواب .

قال تعالى ﴿ ألم ترَ أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء و يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ (٢) .

وقد أثبت علم الأرصاد أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر منها، هو إرسال الرياح لتتجمع في صعيد واحد ، قال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾(٣) .

فهل هناك عاقل درس علم الطبيعة وعرف كيف يتكون المطر ، وما هي عوامل نزوله إلى الأرض وقرأ هذه الآيات الموجزة الألفاظ المعجزة المعاني التي جاء بها رجل أمي قبل أن يطلع الناس على ذلك بقرون عديدة ثم لا يعتقد بالله هو الخالق ثم لا يؤمن بإعجاز القرآن ، ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام ؟ فإن وجد بعد ذلك (فما بعد الحق إلا الضلال) (٤) .

---

(١) النور ٤٣
(٢) الروم ٤٨
(٣) البقرة ١٦٤
(٤) يونس ٣٢

- ٣ -

﴿ دليل الخلق والأحياء ﴾

بعد تحول بخار الماء إلى وابل من المطر الساقط على الارض ، تحدث هنالك المعجزة الكبرى ، المعجزة الإلهية التي يشاهدها الناس جميعاً كبارهم وصغارهم ، معجزة الخلق والإحياء ، فترى بعد حين من هطول المطر ، اصطباغ سواد الطين بالخضرة النابتة الزاهية ، كزغب فراخ القطا ، تشق الأرض شقاً ، ثم لا تلبث أن تمتد على سطحها بساطاً سندسياً أخضر ، فيه للنفس متعة ، وللروح بهجة ، وللقلب انتعاشاً ومسرة ، ولكن هل يقف الأمر عند هذا الحد ؟ كلا . بل تتحول الأرض إلى مزاراع وحقول ، ونباتات وبقول ، وحدائق وبساتين ، ورياض وجنات ، ترتفع أشجارها سامقة في السماء ، وتمتد جذورها ، راسخة في الأرض ، من تين وزيتون ، ونخل وعنب ، وطلح ، ورمان ، وغير ذلك من الأشجار الموقرة بالفواكه اليانعة ، والمثقلة بالقطوف الدانية ، والمكتظة بالثمار الناضجة الشهية .

فكيف حدثت هذه المعجزة ، ومن الذي أحدثها ؟

رياح تثور فتثير سحباً ، وسحب تهيج وتتراكم فتمطر ، ومطر يهطل على أرض قاحلة جرداء ، ليس فيها إلا اليأس والقنوط ، لا تلبث الأرض إلا وينفلق في جوفها المظلم بذور وبزور ، ثم تخرج إلى سطحها نباتات ضاحكة تبتسم لهذا الوجود المشرق ، منها النجم الممتد على سطح الأرض ، ومنها الباسق في الطول والمرتفع في جو السماء ، ومنها المعروش وغير المعروش ، ومنها المزهر ومنها

المثمر ، ومنها ومنها . . مما يملأ العين جمالاً وروعة ، والأنف أريجاً وعطراً ، والنفس ابتهاجاً ونشوة .

فهل كان هذا صدفة هوجاء من غير قصد؟ ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور [١] ﴾ .

تأمل معي هذا الإيجاز بهذا الإعجاز ، في صدق الدليل ، على الخالق الجليل ، ما أبدعه في مبناه ، وما أروعه في معناه .

١ ـ ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . انظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها . . ﴾ [٢] .

٢ ـ ﴿ الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها . . ﴾ [٣] .

٣ ـ ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت وأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . . . ﴾ [٤] .

٤ ـ ﴿وأنزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً . . . ﴾ [٥] .

٥ ـ « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاًوجنات ألفافاً » [٦] .
« أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ [٧] .

﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ [٨] .

---

(١) الحج ٤٦ .
(٢) فاطر ٩ .
(٣) الأعراف٥٧ .
(٤) الأعراف٥٧ .
(٥) ق١٠ .
(٦) النبأ ١٦ .
(٧) العنكبوت ٤٧ .
(٨) الأعراف١٨٧ .

- ٤ -

﴿ دليل العناية ولطف التدبير ﴾

هذا الهواء الذي هو سبب بقاء الحياة على الأرض ، فمن الممكن أن يكون سبب فنائها وانعدامها ، فيما لو اختل بعض التنظيم المحكم الذي قام به ، وإليك بعض هذه الأدلة على ذلك .

إن الهواء جسم غازي لطيف لا لون له ولا رائحة ، ويتألف من عناصر كثيرة ، أهمها الآزوت (النيتروجين) ثم الأوكسجين ، ثم الأرغون ثم ثاني أوكسيد الكربون على هذا الترتيب بالنسبة إلى حجم كلٍّ ووزنه . ثم يأتي بعد ذلك عناصر أخرى ثانوية ، وإن كان لها فوائد كبرى ، كالهيدروجين والهليوم والنيون والكريبتون ، وهما عنصران اكتشفا حديثاً ، وتكثر في الهواء أيضاً أنواع شتى من الغازات والأبخرة التي تنفصل من مواد الأرض وتختلط بالهواء ، وهذه العناصر الغازية المختلفة ، هي مختلطة في الهواء اختلاطاً ميكانيكياً ، وليست متحدة إتحاداً كيماوياً ، وإن كان من الممكن أن تتحد على الأرض مع بعضها أو مع العناصر الأخرى ، وعدم اتحادها في الجو اتحاداً كيماوياً هو من لطف الله بخلقه ، إذ لو أمكن ذلك لتحولت في الجو إلى غاز واحد يختلف في خصائصه ومميزاته عن تأثيرات الهواء الحالي ، فمن المعروف أن غاز الأوكسجين يكاد يتحد مع أكثر العناصر الأخرى ، ومع ذلك فهو لا يكاد يتحد مع الآزوت إلا بصعوبة وبظروف خاصة ملائمة ، وذلك بإمرار الكهرباء على الخليط من العنصرين ، الآزوت والأوكسجين فيمكن أن يتحدا معاويكوّنا بعض الأكاسيد الأزوتية قبل الذوبان

بالماء ، وإذا ذاب فيه اتحد معه وكوّن حمضين آزوتيين ، أحدهما «حمض الآزوتيك» المسمى بماء الفضة ، أو (ماء النار) وإليه يؤول الحمض الثاني ، وهو أقوى الحوامض وأخطرها فتكاً وتأثيراً في الأحياء .

فلو كان الآزوت يتحد مع الأوكسجين بسهولة في الهواء ودون واسطة ، لتحولا في الجوّ إلى «حامض الآزوتيك الفتاك»، ولأمطرت السماء ماء الفضة الكاوي شواظاً من نار تحرق الأخضر واليابس وتدمر من عليها .

فمن الذي أوقف هذا الاتحاد بين هذين العنصرين الخطرين في الهواء ، حتى تبقى الحياة والأحياء على الأرض ؟ ومن الذي عمل على بقاء كل منهما مستقلاً عن الآخر ، وجعلهما يختلطان اختلاطا ليتعاونا على حفظ الحياة وبقائها ، فلا يدمران هذه الحياة ؟ أليس وراء هذا إرادة تقدِّر ، ويدٌ تَقْدِر ، ولطفٌ يُدَبِّر ؟ أليس هذا يدل على وجود إله عليم وقادر حكيم ؟ فلنسمع إلى ما يرشدنا إليه القرآن الكريم حيث يقول : ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أن نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ [1] لنقف قليلا عند قوله تعالى (لو نشاء جعلناه أجاجاً) فكيف يتحول الماء العذب الفرات في السماء إلى أجاج وهو أصفى وأنقى وأعذب ماء على الإطلاق ؟ فالمؤمنون لا يشكون في القدرة الإلهية على تحويل الماء العذب إلى علقم أجاج ولكن هل يكون ذلك اعتباطاً بدون سنن ونواميس أم يكون تحوله خاضعاً للسنن الكونية ؟

والأمر الذي لا شك فيه أن هذا التحول يدخل ضمن سنن الله في الكون، وذلك باتحاد الأوكسجين بالآزوت في السحاب ، لأن السحب تحمل الكهربية الكافية لاتحاد الخليطين من الآزوت والأوكسجين في الجو ، ولو وقع التفريغ الكهربائي وتكرر في الهواء بحيث يتكوّن به مقدار كاف من الأكاسيد الآزوتية ثم تذوب في ماء السحاب ، لتحول المطر إلى حمض زعاف مرّ المذاق لا يستسيغه

(١) الواقعة ٦٩

إنسان أو حيوان أو نبات ، وهذا هو اللطف الإلهي الذي أمتن الله به على الناس ودعاهم إلى شكره بقوله (فلولا تشكرون) أي فهلا تشكرونه على حسن تقديره ولطف تدبيره ؟

ومع ذلك فهو يتحد في الجو اتحاداً ضئيلاً جداً كما سياتي وينزل مع المطر أو الثلج مكوناً ثاني أوكسيد الكربون فتمتصه الأرض ويتغذى به النبات .

ثم لننظر إلى حكمة التقدير ولطف التدبير في هذه النسب المعينة من الحجم والوزن الذري لهذه الغازات المختلفة .

إن الهواء يتركب من عناصر كثيرة كما سبق وأهمها [1] أربع غازات أساسية نلخص نسبها المئوية في الحجم والوزن بالنسبة لمجموع الغازات التي يتركب منها الهواء :

الآزوت (النيتروجين)	حجمه ٧٨,٢١ في المئة	وزنه ٧٦,٠٣ في المئة
الأوكسجين	حجمه ٢٠,٩٦ في المئة	وزنه ٢٣,٠٤ في المئة
الأرغون	حجمه ٠,٧٩ في المئة	وزنه ٠,٧٧ في المئة
ثاني أوكسيد الكربون	حجمه ٠,٠٤ في المئة	وزنه ٠,٠٦ في المئة

فلو كانت النسب في الهواء أكثر أو أقل مما عليه الآن لاختلفت الحياة على وجه الأرض .

فلو كانت [2] نسبة الأوكسجين ٥٠ في المئة أو أكثر بدلاً من ٢١ تقريباً لارتفعت نسبة الحرارة إلى درجة لا تطاق ولزادت قابلية الاحتراق بما يساوي ارتفاع هذه النسبة ، فلو احترقت شجرة في غابة لاحترقت الغابة كلها في لحظات .

---

(١) بصائر جغرافية للأستاذ رشيد رشدي العابري .

(٢) القرآن والعلم للدكتور جمال الدين الفندي .

ولو نقصت نسبته إلى درجة ١٠ في المئة ، لأمكن اعتياد الحيوانات على هذه النسبة ، ولكن يكون من المستحيل أن تزدهر حضارة إنسانية على الأرض كما هي عليه في الظروف الحالية ، لأن أعضاء الجسم الإنساني ـ على فرض وجودها في هذه الحالة ـ فلن تتمكن في تلك الظروف الصعبة من مواصلة عملها كما تعمل اليوم ، وذلك لاستحالة وجود الأنسجة والخلايا البدنية والعقلية الدقيقة في ظل تلك الظروف ، لأنه كلما قل الأوكسجين قل النشاط الجسمي والعقلي .

والأوكسجين هو عنصر هام في الهواء ، لأن جميع الأحياء ، تستنشقه ، أو تمتصه من الهواء مباشرة ، أو من الماء بالنسبة للأحياء المائية .

والآزوت عامل ملطف من تأثير الأوكسجين الحاد في الجو ، ومؤثر على المناخ وعلى الضغوط الجوية وعلى شدة التيارات الهوائية ، وعلى انحراف أشعة الشمس أثناء اختراقها الغلاف الهوائي ، وأعظم فائدة له أنه يحمي الكرة الأرضية من تأثير الشهب والنيازك الساقطة من الفضاء الخارجي ، فباحتكاكها في الهواء يفتت الآزوت مع الأرغون هذه الشهب التي تبلغ أطناناً كثيرة تقصف الأرض كل يوم ، فيحولانها إلى رماد يعلق بالهواء فلا تسقط على الأرض .

كما أن للآزوت وللأرغون تأثير قوي على المواد الغذائية للنبات ؛ والنبات يأخذ الكثير من حاجته إلى الآزوت عن طريق البرق الذي يحدث التفريغ الكهربي من الجو ، فتتكوّن أكاسيد الآزوت ، وتهبط مع المطر أو الثلج النازل إلى الأرض الذي يستفيد منه النبات .

ومن الملاحظ أن كمية الآزوت الذي يبثه البرق تكون في المناطق الاستوائية أكثر منها في المناطق المعتدلة الرطبة ، وهذه بدورها تزيد على الكمية التي تتكون في المناطق الجافة الصحراوية ، ومن ذلك نرى أن الآزوت يوزع على المناطق الجغرافية المختلفة بصورة متفاوتة تبعاً لدى احتياج كل منطقة لهذا العنصر الهام .

فمن الذي دبر كل ذلك ؟ إنه المدبر الأعظم ، وهو اللطيف الخبير .

ولو أن (ثاني أوكسيد الكربون) زادت نسبته في الهواء عن نسبته الحالية لأدى ذلك إلى حرارة مفرطة ، قد تصل إلى حد الاختناق ، ونقصه عن نسبته الموجودة ، يؤدي إلى نقص المادة الغذائية في النباتات .

وثاني أوكسيد الكربون هذا تمتصه النباتات المعرضة لضوء الشمس ، وتحلله إلى عنصريه الأوكسجين والكاربون ، فتتغذى بالكاربون ، وتنفث الأوكسجين للإنسان والحيوان ، ليستنشقانه عن طريق الشهيق ، كما أن الحيوان يأخذ الأوكسجين ويوزع على الدم في خلال جسمه ليحرق طعامه في كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبياً ، ويلفظ الكاربون عن طريق الزفير في الجو ليتغذى به النبات ، فتكون النتيجة عملية مقايضة بين النبات والحيوان ، ولو كانت هذه المقايضة غير موجودة لاستنفذ النبات والحيوان جميع ما في الهواء من الأوكسجين والكربون ، ومتى حصل ذلك ذوى النبات ومات الإنسان والحيوان .

كما أن لثاني أوكسيد الكربون فائدة أساسية في المناخ الجوي ، فهو يحفظ الحرارة المشعة من الأرض ، ولولاه لتسربت الحرارة إلى خارج نطاق الغلاف الغازي الجوي ، مما يفقد الأرض من الحرارة اللازمة لحدوث الرياح وهطول الأمطار واعتدال الجو ، وحاجة النبات ، وغير ذلك مما تتعذر معه الحياة .

وللهواء فائدة كبرى أيضاً ، وهو الضغط الشديد الذي يضغط بثقله على أجسامنا نحواً من كيلوغرام واحد على السنتيمتر المربع الواحد تقريباً ، وهذا الضغط يحفظ علينا دماءنا وما في أجسامنا من ماء ، وكذا سائر الحيوان ، فلا يخرج من أغشيتنا أو جلودنا شيء من هذا .

فالآزوت والأوكسجين والهيدروجين وثاني أوكسيد الكاربون وغازات الكاربون الأخرى ، على اختلاف أشكالها ،تتركب معاً فتصبح عناصر عظيمة

الأهمية للحياة الحيوانية ، والأسس التي تقوم عليها الحياة الإنسانية .

ووجودها منفردة بنسب زائدة أو ناقصة ، هي سموم غازية تقضي على الحياة ، فلو قيل لك : إن سماً زائد سم زائد سم آخر اختلط بعضه ببعض يساوي بلسم الحياة لتعجبت واستغربت ، بينما هو الأمر الواقع بالنسبة لهذه الغازات الهوائية المختلطة .

فهل هذه الخواص الذاتية لهذه الغازات ، وكونها مختلفة في الجو ومركبة تركيباً ، لا إتحاداً كيماوياً ، وبهذه النسب المقدرة التي تحدثنا عنها ، فأفادت الحياة ، فهل كل ذلك جاء نتيجة مصادفة عشواء هوجاء ، عن طبيعة عمياء بلهاء ، أم هو صادر عن علم عليم ، وحكمة حكيم ، وقدرة قدير ، وتدبير خبير بصير ؟

قال الله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ . . . ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (٥) .

* * *

(١) الحجر ٢١
(٢) القمر ٤٩
(٣) الأعلى ١ - ٣
(٤) الفرقان ٢
(٥) فصلت ٥٢

- ٥ -

﴿ دليل القدرة الإلهية في خلق النبات ﴾

ثم لننظر إلى آثار القدرة الإلهية الباهرة ، في النبتة الصغيرة ، النبتة الضعيفة النحيفة ، كيف أمدتها القدرة المعجزة بقوة الحياة النامية ، فكانت مع دقتها وضعفها تنطوي على سر الإعجاز الخارق .

سر الحياة الذي أدهش العلماء ، وأعيا الفلاسفة ، وحير الحكماء أن يعرفوا كيف انبعثت الحياة وبرزت للوجود ؟ أو كيف جاءت من وراء الغيب ، وما هي حقيقتها وماهيتها ؟

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

حبة تسقط في الطين ، أو نواة مدفونة في جوف الأرض ، ثم لا تلبث بعد أن ينفذ إلى أجزائها الداخلية ، رطوبة ونداوة ، أن تنفلق عن وشم أخضر هزيل ، طَرَّ من شقين متقابلين ، انفلقت عنهما الحبة أو النواة ، في أعلاها وفي أسفلها ، فأما الذي في أسفلها ، فهو على صغره وضعفه ، بحيث لو لمسته يد وضغطت عليه قليلاً ، لتحول إلى رطوبة لزجة ، ومع هذا فهو يخرق الأرض الصلبة ، ويتحدى الصخور الصماء ، التي لا يؤثر فيها معول قاطع ، فينفذ من خلالها ، ويخرقها ويغوص في الأعماق .

وأما الذي في الأعلى ، فيخرج من جوفها المظلم ناهضاً يشق تربتها صُعُداً إلى سطحها المشرق ، متحدياً قانون الجاذبية ، الذي يشده إلى أسفل نحو مركز

الأرض ، فلا يتأثر به ، وينفذ من خلال ركام من التراب إلى الهواء الطلق . ثم ماذا ؟ ثم لا تزال هذه النبتة الضئيلة الخضراء موزعة ما بين جزئيها الهابط والصاعد ، فتُمكِّن جذَورَها ، وتثبت في الأرض وجودها ، ويسمق طولها ممتداً في السماء لتثمر وتقاوم عواصف الرياح ، ثم لا تزال تنمو وتزداد نمواً ، وتقوى وتتفرع أغصانها ، وتخرج منها الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، تشتمل ثمارها على طبائع مختلفة ، مع اتحاد البذرة والتربة والهواء والماء والحرارة والرطوبة وحركة الأفلاك وما إلى ذلك .

كالعنب مثلاً ، قشره وبذره يابسان باردان ، وماؤه ولحمه حارّان رطبان لطيفان ، فضلاً عن قشره وخشبه وورقه وغير ذلك مما هو متحد الأصل والمنشأ ، متفق العوامل والمؤثرات ، مختلف الأعضاء والأجزاء وغيرها ، كالجوز واللوز والموز وما إلى ذلك من جميع الثمار والفواكه .

فكيف انفلقت الحبة أو النواة ثم انقسمت إلى جزئين منها ما غار في أعماق الأرض ، ومنها ما ارتفع إلى سطحها ؟ فإن كانت طبيعتها الهبوط ، فلم ارتفع القسم الأعلى منها ؟ وإن كان طبعها الارتفاع فلم هبط القسم الأسفل منها ؟ ثم هذا الماء الذي من شأنه الرسوب ، من الذي أصعده من أسافل الشجرة إلى أعاليها ، حتى إذا انتهى إلى رؤوس أغصانها وفروعها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها ، وثمر خارج من صفته ، الثمر الوافر ، واللون الزاهر ، والجني الجديد ، والطعم اللذيذ ، فأين الطبائع وأجناسها ، وأين الطبائعيون وحذلقتهم ؟! . ثم من الذي فلق بذرتها وأحدث فيها هذه الحياة النامية الجبارة التي خرقت الصخور وتحدت قانون الجاذبية مع نحافتها وضعفها ؟ ثم أين كانت هذه الحياة ومن أين استمدت قوتها الخارقة وما هو كنهها ؟

هذا هو السر الذي وقف أمامه العلماء والفلاسفة الحكماء حائرين !!! . .

وهم لا يزالون في حيرتهم سادرين ، حتى تَتَفَتَّح عقولهم ، وتنفتح

قلوبهم ، وتسقط عنها أقفالها ، وتنجلي أذهانهم أكثر فأكثر ويطرحوا الوساوس والهواجس والأوهام والأباطيل ، ويسمعوا سماع تعقل وتأمل قول الله تعالى ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾[1] ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾[2] .

---

(١) الأنعام ٩٩

(٢) النمل ٦٠

- ٦ -

﴿ دليل القصد والاتقان ﴾

يقال : إن سقراط الفيلسوف قد حول الحكمة عن اتجاهها التي كانت تسير فيه ، وهو دراسة الكون بوساطة الطبيعة ، إلى اتجاه آخر ، وهو دراسة الإنسان واتخاذه أساس كل معرفة ، ولهذا أسس مذهبه الفلسفي على الحكمة الخالدة التي تقول : « إعرف نفسك بنفسك » .

والقرآن الكريم الذي هو تنزيل من عليم حكيم ، قد وجه التفكير الإنساني إلى أن يجمع بين دراسة الكون ودراسة الإنسان معاً ، ليطلع فيهما على آيات الإبداع والإعجاز ، ويأخذ منهما العبرة الرائعة ، والأدلة القاطعة ، من القصد في بناء الكون ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (١) . ويقول الإمام اللقاني في منظومته جوهرة التوحيد :

وانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي
تجد به صنعاً بديع الحكم لكن به قام دليل العدم

ولنبدأ بما بدأ الله به ولننظر - في ضوء العلم - إلى هذه الأرض التي هي أمناً ، فمنها خلقنا ، وعليها نعيش ، وفيها نموت ، ومنها نبعث تارة أخرى ، فهي أحق الأجرام الكونية بالبحث والدراسة واكتشاف ما فيها من سنن التكوين والاتقان ، ونواميس التنظيم والاتزان ، ثم ننتقل إلى بدائع صنع الله في موجوداته

---

(١) الذاريات ٢١ - ٢٢

الكونية ، ولنقف خاشعين في محراب العلم ، نتلو آيات الله الدالة على عظمته ، ونكشف عن نواميسه ونظمه في مخلوقاته ، ليطلع من لم يتيسر له الاطلاع على دلائل الوجود الإلهي في موجوداته ، ويرى عظمة الله تتجلى في مرآة الطبيعة التي طبعها ، وليسمع من خلال ذلك صوت هذه الطبيعة بلسان حالها يقرع صماخ الأسماع وهي تنادي بجلال خالقها ، وعظمة مبدعها .

فنقول وبالله التوفيق .

اتفق الناس جميعاً من القديم حتى الآن عن طريق الفطرة في العهد البدائي ، وعن طريق الاستدلال العقلي في عهد التفكير ، وعن طريق الاختبارات التجريبية في عصر العلم الطبيعي ، على أن أصل الكون ومادته واحدة ، ثم تفرع إلى هذه الكائنات الكثيرة . فمنهم من قال : أصله الماء ، ومنهم من قال : أصله الهواء . ومنهم من زعم أن أصله اللامتناهي ـ أي الفراغ غير المحدود ـ ومنهم من قال : ذرات صغيرة منبثة لا تراها الأعين ، ومنهم من قال : العناصر الأربعة الماء والهواء والنار والتراب ، ومنهم من قال : أصل الكون أبخرة تكاثفت وازداد تكاثفها فتحجرت .

ويرى العلماء الطبيعيون ـ إلى ما قبل تفجير الذرة ـ أن الكون اصله غاز ساخن متخلخل كان يملأ الفضاء ويحتوي على دقائق المادة .

أما العلماء بعد عصر تفجير الذرة ، فيرون أن الكون نشأ من الضوء ، وأن الشعاع الضوئي لسبب مّا تحول إلى موجات مغناطيسية ، والموجات الكهرومغناطيسية تحولت إلى الكترونات وبروتونات ومن هذه الالكترونات والبروتونات تكون الهيدروجين ، الذي تكونت منه الذرات التي أَلَّفَتْ عناصر المادة ، في الهيدروجين ، إذن نشأت شتى أنواع الغازات التي تألفت منها السدم ومن السدم نشأت المجرات والنجوم .

ومجموعتنا الشمسية هي جزء من هذا الكون ، وأرضنا إن هي إلا جزء

انفصل عن الشمس وابتعد عنها في الزمن السحيق، وبقيت تدور حولها آلاف السنين وهي جمرة متوقدة ، حتى جاءها زمن تبردت فيه .

ولكن الأمر العجيب الذي يثير الدهشة والتساؤل ، إذا كانت الأرض وأخواتها الكواكب السيارة الأخرى انفصلت جميعهن عن الشمس ، فلم كانت الأرض وحدها هي مصدر الحياة وصالحة لوجود الأحياء دون غيرها من أخواتها الكواكب الأخرى ؟ ثم أيضاً كيف بدأت الحياة وكيف نشأت ؟ وهل ظهرت على سطح الأرض أم من جوفها أم نزلت من كوكب آخر ؟ مع أن الأرض كانت كتلة نار ملتهبة فكيف نشأت منها الحياة ؟

أجوبة وتخرصات كثيرة لا تقنع صغار المتعلمين فضلاً عن فحول العلماء .

والجواب الأخير عند عقلاء العلماء . لا ندري ! . .

والذي يدرس الإسلام دراسة واعية يجد أجوبة ماثلة في نصوصه ، مقنعة في بيانها تتفق مع العلم ، وهذا دليل إعجازه .

فالعلماء من عهد « تاليس » إلى عهد تفجير الذرة لقحوا خلاصة جهودهم في عصارة أدمغتهم ، فتولد عن ذلك كله أخيراً أن الكون نشأ من الأشعة الضوئية ، وأن المادة إن هي إلا شعاع ضوئي تحول إلى موجات كهربائية سالبة وموجبة وتحولت هذه إلى المادة كما تقدم .

وقد جاء مثل هذا على لسان رجل عربي أمي ، نشأ في بيئة أمية لم تقرأ ولم تكتب ولم تحسب ، وقد جاء هذا على صيغة إخبار عن بدء الخليقة ، صادر عن نبي أمده الله بالمعجزات وأن هذا الخلق كان نوراً من نور الله .

روى عبد الرزاق بن همام عن معمر وابن جريج ومالك والسُّفيانيَّين والأوزاعي عن أحمد واسحق وغيرهما بسنده عن جابر بن عبدالله قال : قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ؟

قال يا جابر : إن الله قد خلق قبل الأشياء نور نبيِّك من نوره ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس ، فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم ومن الثاني اللوح ومن الثالث العرش . ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسي ومن الثالث باقي الملائكة .

ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السموات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار .

ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله [1] .

قد يمر هذا الحديث وأمثاله على القارىء المؤمن ـ قبل أن يقول العلماء ما قالوه ـ يعتقده في نفسه كخبر صادق جاء عن معصوم عن الكذب والخطأ ، ولا يثير في نفسه غرابة ولكن بعد أن صرح علماء الذرة بأن الكون نشأ من الضوء ، فلا يسع المنصف من أي فئة كانت ، إلا أن يعجب ويدهش لهذا التوافق بين قول العلماء وبين قول الرسول ﷺ من أن النور هو مبدأ الخلق ، ولا بد أن يذعن بأن تعاليم الإسلام حق وصدق ، وأنها موافقة للعلم لأنها جاءت جميعها من عند الله واضع سنن ونواميس العلم في الوجود .

ثم لننظر إلى أدلة القصد والارادة في اختصاص الأرض بالحياة دون غيرها من الكواكب الأخرى التوابع للشمس .

---

(١) الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ج ١ ص ٤٦ ولم يذكر من هذا الرابع من هذا الجزء فليراجع من مصنف عبد الرزاق بن همام مع تمام الحديث . وقد رواه البيهقي ببعض مخالفة ١ هـ كما رواه أبو الشيخ عن ابن عباس موثوقاً .

فالأرض هي الكوكب الوحيد من توابع الشمس الذي اجتمعت فيه شروط وجود الحياة بخلافها في بقية الكواكب الأخرى التوابع لها[1] وذلك لوجود الأرض في الموقع المناسب من الشمس ، فلا هي بالقريبة منها فَتُصْهَر ، ولا هي بالبعيدة عنها فَتَتَجَمَّد ، وهي في الحجم والكثافة المناسبة . ولو كانت أصغر مما هي عليه الآن ، أو لو كان قطرها ربع قطرها الموجود الآن لتلاشي ما فوقها معاً عليها من الغلافين الجوي والمائي المحيطين بها ، ولأصبحت درجة حرارتها بالغة حد الموت لكل حي عليها .

ولو كانت أكبر مما عليه الآن ، أو كان قطرها ضعف قطرها الحالي ، لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف ، وزادت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه ، وارتفع تبعاً لذلك غلافها الهوائي ، ولزاد الضغط الهوائي على الأجسام من كيلو غرام واحد إلى كيلوغرامين على السنتيمتر المربع ، ويؤثر ذلك أثراً بالغاً في الحياة على سطح الأرض ، فتتسع المناطق الباردة اتساعاً كبيراً وتنتقص مساحة الأراضي الصالحة للزراعة نقصاً كبيراً ، وبذلك تعيش الجماعات الانسانية عيشة منفصلة في أماكن متنائية ، وتتعذر المواصلات بل قد تستحيل .

وحرارة الشمس تصلها معتدلة لوجود الغلاف الهوائي الذي يكسر أشعة الشمس ويمتص منها الحرارة الزائدة ، وكثافة هذا الغلاف يحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا ، والتي تنقض بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة . وجاذبيتها وسط لا هي بالخفيفة فتخف الأشياء عليها فلا تستقر ، ولا هي بالثقيلة فتتعذر الحركة والنمو في الحيوان والنبات .

ودورتها حول نفسها في مواجهة الشمس هي مناسبة لحدوث الليل والنهار . وقد كانت دورتها حول نفسها قبل انفصال القمر عنها سريعة تبلغ أربع ساعات ، فانفصال القمر عنها أحدث فيها بطئاً في السرعة فأصبحت - بسبب جاذبيته لها - أربعاً وعشرين ساعة . وكذلك دورتها حول الشمس ، ووجود ميل محورها عن خط الاستواء بصورة معتدلة ومناسبة ، مما أوجد الفصول

(١) من أراد أن يعرف الأدلة الدينية والعقلية والعلمية على وجود حياة على بعض الكواكب الكونية الأخرى فليرجع إلى كتابنا « أضواء من القرآن على الانسان والكون والحياة » .

الأربع ، المكيفة للبيئة والمناخ الجوي والأرضي . وأخيراً وجود الماء والهواء هو من أكبر العوامل في وجود الحياة عليها .

فهذه الشروط الحياتية المتعددة التي توفرت للأرض تنفي عنها الصدفة العشوائية ، وتثبت لها وجود القصد والاختيار ، والإرادة الحكيمة ، من إله عالم مختار .

وإلا فأي دماغ إنساني مهما أوتي من قوة العقل وصفاء التفكير ، وسعة الخيال ، وكيفية التصور ، يستطيع أن يفسر لنا ظهور الأشعة التي نشأ منها الكون ، وكيفية نشوء الإكترونات والبروتونات ؟

وأما كيف نشأت الحياة على الأرض ومن أين أتت ؟ فهذا أمر لا قدرة للإنسان في معرفته إلا من الخبر الصادق ، لأن الإنسان له طاقة عقلية محدودة لا يستطيع أن يتجاوزها . وثانياً: من المعروف عند العلماء أنفسهم أن الأرض لما انفصلت عن الشمس كانت جمرة نار متوقدة ليس فيها حياة ولا أثر فيها للحياة ، لأن الحياة تعتمد على أوكسجين الهواء ، ومن المستحيل علماً وعقلاً وجود الأوكسجين أو الهيدروجين مع وجود هذه الحرارة الهائلة للأرض التي تبلغ ١٢,٠٠٠ درجة ، فلم يبق إذن إلا أنها وجدت بفعل فاعل خلقها وأنشأها من العدم المحض ، وهذا ما أخبرت به الرسل وأنبأت به الكتب السماوية .

قال تعالى ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال

(١) الجاثية ٣ ـ ٥ .

مبين ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[2] . وقال تعالى ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾[3] .

فالتعليلات التي ذكرها العلماء الطبيعيون ، من أن الحياة نشأت من تأثير حرارة الشمس بوحول الأرض ثم تطورت إلى ما هى عليه ، هي تخرصات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان .

وأما اختصاصها بكونها مهد الحياة دون غيرها من أخواتها السيارات الأخرى فهذا دليل على وجود الاختيار أيضاً لحكمة يعلمها الخالق المختار ، الذي وضع شروط الحياة عليها ثم أوجد تلك الحياة التي ملأتها بهجة ورونقاً ، وإلا لجاز للكواكب السيارة الأخرى ما جاز للأرض من وجود شروط الحياة ، لأنها تفرعت من أم واحدة وهي الشمس ، أو لجاز للأرض أن يحدث لها من عقم الحياة عليها ما حدث للسيارات الأخرى ، لأنهم جميعاً أسرة واحدة ويعودون لأصل واحد . وتحكم الجميع قوانين واحدة تدور بأصغرها كما تدور بأكبرها ، وتدور بأقربها كما تدور بأبعدها ، ولولا الفاعل المختار ما خصص الأرض بتلك الشروط الحياتية لكان الجميع متساوون في الحجم والمسافة والعقم والانجاب وجميع الشروط . فكون الأرض بهذا الحجم وفي موقع معتدل من الشمس ، واعتدال حرارتها وأشعتها المسببة للحياة ، ووجود جاذبيتها بهذه النسبة وهذا التقدير ، وسمك قشرتها ووجود هذه الدورة حول نفسها وحول الشمس وبهذا المقدار والتقدير المحكم ، وميل محورها بهذه النسبة التي تبلغ ٢٣,٥° تقريباً ، وانفصال القمر عنها مما أبطأ حركتها لجاذبيته لها ، ووجود الماء بهذه الكمية فيها ، ووجود الغلاف الغازي الجوي المركب من عناصر بنسب خاصة كما تقدم ، وبهذا المدد الذي لا ينقطع من الماء والهواء ، لأكبر دليل على وجود الإله الخالق الصانع المدبر ، وهو أكبر دليل أيضاً على نفي الصدفة والاعتباط من الوجود .

(١) لقمان ١٠ ـ ١١ (٢) الاسراء ٨٥ . (٣) الكهف ٥١ .

فلو كانت الأرض تدور حول نفسها بسرعة أكثر مما هي عليه الآن ولو بساعة واحدة ، لتناثرت المنازل والناس ومن عليها ، ولتفككت الأرض وتناثرت هي الأخرى في الفضاء .

ففي الأرض توجد قوتان متعادلتان تحفظان الأرض من التفكك ، وتحفظان الإنسان والحيوان والنبات في أماكنه ، قوة طاردة ، وقوة جاذبة ، وكلتا القوتين متعادلتان .

ولو كانت سرعتها أقل مما هي عليه الآن ، لثقلت الأجسام على الأرض وصعبت الحركة وتعذر النمو عليها .

فالحركة الطاردة الناتجة من حركتها حول نفسها بهذا المقدار خفف من ثقل الأشياء وأوزانها على سطح الأرض ، وخفف من ارتباطه بها .

وكذلك لو كانت سرعتها أقل مما هي عليه الآن أيضاً لهلك الناس من الحر والبرد ، لأنها تدور حول محورها دورة واحدة كل أربع وعشرين ساعة ، ومعنى ذلك أنها تسير بسرعة ألف ميل في الساعة ، فلو فرضنا أن هذه السرعة انخفضت إلى مائتي ميل في الساعة ، لطالت أوقات ليلنا ونهارنا عشر مرات بالنسبة إلى ما هي عليه الآن وينتج عن ذلك أن تحرق الشمس بشدة حرارتها لطول النهار كل شيء عليها ، وما بقي بعد ذلك ستقضي عليه البرودة الشديدة الناتجة عن طول الليل .

فسرعتها الحالية تتفق مع حاجة الحيوان والنبات ، فيعتدل بسبب ذلك الجو بتعاقب الليل والنهار بمقاديرهما ، ثم تعتدل الحرارة على الأرض .

ولو كان محور الأرض مستقيماً غير مائل هذا الميل المقدر بـ ٢٣° لاختفت الفصول الأربعة ولم يعرف الناس معنى الصيف والشتاء والربيع والخريف .

فاجتماع هذه الأمور بهذه الشروط يستحيل أن يأتي ذلك من الفوضى

المسماة بالصدفة من غير تدبير وتنسيق وتوجيه ، ووضع أهداف .

ولنستمع إلى الآيات التي تشير إلى الربط والضبط والاتقان والإحكام والاتزان في هذا الوجود .

قال تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (١) ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ (٢) ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما تنزله إلا بقدر معلوم ﴾ (٣) ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ (٤) ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ (٥) .

فكل شيء من هذه الأمور المتقنة والموزونة حدثت بخلق الله وبتقدير مناسب ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ وليست من فعل الصدف أو هي رمية من غير رام . وأما قوله تعالى ﴿ والأرض مددناها . . . ﴾ فالمد هنا ليس معناه البسط من كل وجه ، بل معناه أننا بسطنا الأرض أمام نظر الناظر لكبرها وعظم جرمها ، وفسحنا مجالاتها طولاً وعرضاً ، ليتمكن الإنسان من الانتفاع بها ، فأقطارها واسعة ممتدة مبسوطة أمام النظر ، ينتشر الناس في مقاطعها وأقطارها ، ويقومون بأعمالهم دون رؤية انحدار أو خوف من سقوط أو عدم استقرار ، بل هي أمام أعينهم كالبساط الممتد .

فمن المشاهد بالعين المجردة أن القمر كرة والشمس كرة ، وكذا بقية الأجرام الكونية تثبت كرويتها عن طريق المراصد الفلكية بالرؤية البصرية ، وإن الأرض من هذه الأجرام أيضاً ، فهي كرة لا تشذ عن هذه القاعدة ، وعندما يقع القمر في خيال الأرض ويحدث الخسوف يشاهد خيال الأرض على شكل دائرة .

والشكل الكروي هو الشكل الوحيد الذي يؤدي إلى انتظام واتزان حركة

---

(١) القمر ٤٩
(٢) الفرقان ٢
(٣) الحجر ٢١
(٤) النمل ٨٨
(٥) الحجر ١٩

الجرم السماوي . وجاءت الآية التي تشير إلى كروية الأرض وهي قوله تعالى ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ [1] ومعنى التكوير،اللف كلف كور العمامة على الرأس ، وهذا من أصرح الدلائل على كروية الأرض ، فالآية تكشف عن حقيقة واقعية في كروية الأرض ، حيث إن الأرض تدور حول نفسها بمواجهة الشمس ، فالجزء المقابل لها يغمره ضوؤها ، والجزء غير المقابل يغمره الظلام ، ولكن الأرض تلف حول نفسها ـ أى تدور ـ كما تُلف العمامة ، فكل دورة كور،وهكذا الضوء ينسحب على كورها من جهة كما ينسحب الظلام على كورها من جهة أخرى ، فيتم كور الليل وكور النهار ، وهكذا يبقى التكوير حركة دائبة مستمرة لا تنقطع . كما تشير الآية أيضاً إلى هذا المعنى وهي قوله تعالى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ [2] فهي تشير إلى شيئين ، إلى دوران الأرض محورياً ، وإلى كرويتها أيضاً ، فالدوران المحوري في مقابلة الشمس هو الذي سبب مجيء الليل والنهار ، وهذا الدوران المحوري لا يكون إلا للجرم الكروي .

غير أن الأرض لم تكن كرة تامة بصورة عامة فمن طرفي القطبين الشمالي والجنوبي تنقص ، وهي أقرب إلى التفلطح ، ومن طرفي خط الاستواء تعتبر منبعجة ، وهذا الشكل جاء نتيجة دورانها حول نفسها ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعاني بقوله : ﴿ أفلا يرون أنا تأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [3] وقوله تعالى ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [4] .

لم تعرف [5] ظاهرة النقص هذه في كروية الأرض من طرفي تطبيقها ، ومن طرفي خط الاستواء نتيجة دورانها حول نفسها ، إلا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي .

---

(١) الزمر ٥
(٢) الأعراف ٥٤
(٣) الرعد ٤١
(٤) الأنبياء ٤٤ .
(٥) بصائر جغرافية للأستاذ رشدي العابري

ولو بحثنا في التوزيع القائم لكل المظاهر السطحية للأرض من يابسة وجبال وبحار وقارات وثروات جوفية ومناطق زراعية ، لوجدنا أثر الحكمة بادياً في هذا التوزيع والقصد منه دليل واضح ، والتخبط العشوائي ، بعيد بعد الأرض عن السماء .

٧

﴿ الحكمة الإلهية في توزيع الماء واليابسة على سطح الأرض﴾ :

فاليابس أكثره في نصف الكرة الشمالي ، والبحار أكثرها في نصف الكرة الجنوبي ، وأكثر القارات تشكل مثلثات قواعدها في الشمال متقاربة ، ورؤوسها في الجنوب متباعدة ، تفصل بينهما المحيطات العظمى .

فكل ارتفاع قاري يقابله في الغالب انخفاض ، فالقطب الشمالي يغمره المحيط الشمالي ، والقطب الجنوبي يابس مرتفع ، ونصف الكرة الشمالي اليابس ، يقابله المحيطات العظمى في الجنوب . فأمريكا الشمالية يقابلها المحيط الهندي الجنوبي ، وأوستراليا يقابلها وسط المحيط الأطلسي ، والباقي من آسيا وأوروبا والقارة الأفريقية والقسم الأكبر من أمريكا الجنوبية ، يقابلها المحيط الهادي ، فكأن القارات الأرضية تشبه المثلثات رؤوسها في الجنوب كما تقدم ، وقواعدها في الشمال ، وهذا التنظيم يشبه إلى حد كبير نظام الهرم المثلث ، والحكمة التي اقتضت ذلك هي إبراز أكبر سطح من الكرة الأرضية ، ليحصل الانتفاع به ، ولو كان التوزيع على نظام الهرم الكروي ، لضاقت السهول الزراعية والمناطق الصحراوية ، ومناطق البحار ، مما لا تتحقق الفائدة فيه من كمال المصلحة للحياة . ولما كان الماء دم الحياة وإكسيرها الذي يجري على الأر ، كان الماء يغطي نحواً من ثلاثة أرباع سطح الأرض لأننا نجد أن معظم العمليات الكيماوية اللازمة للحياة والنمو تحتاج إلى الماء ، أو تؤدي إلى تكوين الماء ، والماء يذيب كثيراً من المواد ، فيهيء بذلك السبيل لحدوث التفاعلات الكيماوية الضرورية داخل النبات وهو متوافر في معظم الأماكن الأرضية ، في جوفها وعلى سطحها ، ودورته التي تَمُدُّ به الأرض وما عليها من الكائنات ،

دورة مستمرة أبد الدهر ، لا تنتهي ولا تنقطع إلى ما شاء الله .

وقد سبق أن قلنا : إن أكثر القارات تشكل مثلثات رؤوسها في الجنوب وقواعدها في الشمال ، وهذه القواعد تكاد تكون متصلة ، بينما الرؤوس تتباعد كثيراً لوجود المحيطات بينها .

وأياماً كان الأمر في تكوين قشرة الأرض من ظهور العوامل الطبيعية ، من هزات وزلازل وبراكين ، مما أدى كل ذلك إلى هذا التوزيع ، وهذا التوزيع هو من أكبر الأسباب لاستقرار الأرض ، فإن المياه تناهز ٧٢ في المائة من سطح الأرض بينما اليابس يشكل ٢٨ في المائة تقريباً ، والحكمة في ذلك ظاهرة كما ـ قلنا ـ لأن المياه هي مصدر الرطوبة الجويّة وسبب حدوث الأمطار وملطفة للمناخ .

فلو كان الماء أقل مما هو عليه الآن لتحولت أكثر اليابسة إلى صحارى قفراء لا يعيش عليها إلا اليعافير[1] وإلا الهوام ، وكانت الإنسانية موزعة ومبعثرة في مناطق متباعدة لا تقوم لهم حضارة ، ولا تنتشر لهم مدنية ، بل يعيشون قبائل بدائية ويبقون كذلك لحين انقراضهم .

ولو كان البحر أكثر مما هو عليه الآن ، لغمرت المياه أكثر الأقسام اليابسة ولتضاءلت الحياة الإنسانية على الأرض ، فلا يسكنها إلا الأسماك والحيتان وإلا العقارب والعناكب .

أليس في هذا أكبر دليل على فعل الاختيار من الفاعل المختار ، الذي اختار الأرض مهبطاً للحياة ، ومهداً للانسان ؟ فسبحان الحكيم الذي أحكم كل شيء فقدره تقديراً ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ .

٨

﴿ دليل الحكمة في توزيع الجبال على مناطق الأرض ﴾ :

ولو درسنا توزيع الجبال في ماطق الأرض لرأينا أيضاً حكمة الله الخالق ، واضحة كل الوضوح في هذا التوزيع المنظم .

---

(١) اليعفور : ظبي خالط بياضه حمرة .

فسلاسل الجبال تقوم بوظيفة الإرساء والشد والاتزان للأرض مقام سلسلة فقرات الظهر في الإنسان قال تعالى ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ [1] وقال ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ [2] وقال ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات ﴾ [3] .

فنظرة عابرة على أي خريطة عالمية طبيعية ،فيها المرتفعات والمنخفضات ، ومقدار ارتفاعها عن سطح الأرض تعطينا صورة جلية واضحة عن دقة النظام ، وتوزيع التضاريس المؤدي إلى أكبر مصلحة إنسانية اقتصادية واجتماعية .

فنظام توزيع المرتفعات يقوم في الغالب متدرجاً من القطبين إلى خط الاستواء . فكلما كانت المناطق باردة كانت المرتفعات منخفضة ، وزادت السهول ، وبالعكس ترتفع الأرض كلما كانت المناطق حارة ، حيث يوجد فيها أعالي القمم وشواهق الجبال الأرضية التي ترتفع عن سطح البحر ارتفاعاً كبيراً ، وبذلك تخف شدة الحر عن المناطق الحارة في الغالب .

فوجود الجبال العالية يجعل المنطقة معتدلة المناخ كثيرة الأمطار متعددة الأنهار كثيرة الحاصلات الزراعية

ووجود السهول في المناطق الباردة ، يخفف برودتها ، ولو لم يكن توزيع المرتفعات بهذا الشكل لاختل نظام العالم ، بل ولما أمكن تقدم الإنسانية في العلم والحضارة ، لأن الجبال المرتفعة لو كانت في مناطق القطبين ، أو في أحدهما لكان البرد القارس أشد ما يكون في هذه المناطق ، نظراً لبعدها عن خط الاستواء أولاً ، وللارتفاعات الشاهقة ثانياً ، فتنعدم الحياة النباتية ، وتتعذر الحياة الحيوانية فيها ، ولربما ساقت الرياح الشديدة برودة هذه المناطق إلى المناطق الأخرى المعتدلة ، فحولتها إلى مناطق جليدية . فضلاً عن أن الجبال ، لو كانت

---

(١) النحل ١٥

(٢) الحجر ١٩

(٣) المرسلات ٢٧

في أحد القطبين فقط ، لما حصل توازن واستقرار على للأرض على الإطلاق .

وارتفاع الأرض في المناطق الاستوائية ، جعلها تكيِّف المنطقة بجميع المناخات المناسبة ، ففي أعالي الجبال ، يجد الإنسان مناخ المناطق القطبية الباردة ، وفي سفوحها يجد مناخ المناطق المعتدلة ، وفي قاعدتها يجد مناخ المناطق الحارة ، لذا يوجد فيها جميع الثروات الاقتصادية ، والأجواء المناسبة لحياة الإنسان .

ففي بلاد الهند ـ مثلاً ـ حيث توجد جبال الهملايا توجد فيها مناخ المناطق الثلاث ، ففي أعالي جبال الهملايا توجد المنطقة الباردة ، وفي أوسطها توجد المنطقة المعتدلة ، وفي قاعدتها توجد المنطقة الحارة ، بل يوجد فيها سائر فصول السنة الأربعة في وقت واحد .

ومن منافع الجبال أيضاً ، أنها تكثف السحاب في الجو ، فحين حمل الرياح لها ومرورها برؤوس الجبال ، يتكاثف على سطحها الماء ، بالتجمع تارة كأمطار هائلة ، وبالتبريد تارة أخرى كثلوج تتجمع على رؤوس الجبال ، لذا كانت منابع الأنهار كلها من الجبال .

ومنها أيضاً : أنها تحصر مياه البحار في المناطق المنخفضة ، ولولا الجبال لكانت الأرض مستوية ، ولغمرت المياه سطح الأرض وانقلبت إلى مستنقعات عديمة الحياة من الإنسان .

ومنها : أن وجود الجبال يؤدي إلى اختلاف المناخ وتقويمه مما يؤدي إلى تنوع النباتات والحيوانات .

ومنها : أن أكثر المعادن توجد في سفوح الجبال أو المرتفعات ، فكأنها معامل كيماوية تحول العناصر الخام إلى معادن في مرور الأعصار والدهور .

ومنها : أن المراعي تكثر في سفوح الجبال وعلى جوانبها مما يكثر الخير والاقتصاد للإنسان .

ومنها : توازن الأرض واستقرارها وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾[1] .

والفجاج السبل : هي الطريق الواسعة يكتنفها جبلان .

فهذه الفوائد التي ذكرتها الآية هي :

منع الميد والزلازل عن الأرض ، وجعل فيها فجاجاً سبلاً ، أي طرقاً واسعة يمر فيها الهواء ، حيث يسوق السحاب إلى الأرض الجرز القاحلة .

وكذلك يمر فيها السابلة والمارة من الناس ومن الدواب .

ومنها . . . ومنها .

فهل كان نصب الجبال وإرساؤها للأرض كالأوتاد ، وهل كان هذا التوزيع في مناطق خاصة من الأرض ، مما تسبب عنها هذه الفوائد الجمّة ، فهل كان كل ذلك خبط عشواء ، دون حكمة أو قصد ؟! . . .

أنظر وفكر ثم اعتقد . .

---

(١) الأنبياء ٣١ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ـ « دليل الموضوعات » ـ

١ ـ الله . ٤٧
٢ ـ دليل القياس . ٤٩
٣ ـ السماء . ٥٢
٤ ـ نظام الذرة ينادي بوجود الخالق تعالى . ٥٥
٥ ـ نظام المجرة وعالمها دليل على وجود خالقها . ٦٢

العقـيـدة

﴿ الله ﴾

الله هو الحق الثابت ، الواجب الوجود ، سواء أثبت وجوده العقل ، أو أنكر وجوبه الجهل ، لا يغير ذلك من ثبوت حقيقته ، ولا من وجود ذاته ، كما أن الذهب هو جوهر ثمين ، لا يزيد من قيمته مدح ، ولا ينقص من جوهريته قدح ، ولكن النتائج التي تترتب على إنكار وجود الله ، هي خطيرة جداً على الإنسان ذاته ، وعلى بناء حياته ، فهي تؤدي حتماً إلى ازدراء العقل وإهدار نتائجه ، كما تؤدي إلى هدم الأخلاق ، وإفساد بناء المجتمع الإنساني .

فنحن نعلم بيقين ، أنه ليس لدينا موازين دقيقة تعرفنا الحق من الباطل ، ولا وسائل مضبوطة تميز لنا الخير من الشر ، ولا النافع من الضار ، فتقنع بها نفوسنا ، وتطمئن لها قلوبنا ، وتتفق على صحة أحكامها جميع البشر سوى العقل ، فإذا أهدرنا قِيَمَهُ ، وتنكرنا لنتائجه ، اختلت لدينا الموازين ، والتبست علينا القيم ، واختلط علينا الحق بالباطل والخير بالشر ، وأصبحت مقاييسنا في ذلك تقوم على اللذة والألم ، فكل ما نلتذ به نراه حقاً وخيراً ، وكل ما نتألم منه نراه باطلاً وشراً ، فيضيع بذلك الحق المجرد ، وتفسد الأخلاق الفاضلة ، وتتغلب الأنانية على الإنصاف ، والأثرة على الإيثار ، ويصبح المجتمع الإنساني يتحكم فيه الأقوياء ، ويسود فيه قانون الغابة .

لأن الإنسان تتنازع فيه نزعتان ، نزعة الشهوات التي تنطلق من النفس لتروي ظمأ الغرائز ، ونزعة الأخلاق التي تنطلق من التدين لتهذب حيوانيّة

الغرائز . فالإنسان بدون أخلاق حيوان بهيم ، ومع الأخلاق ملك كريم . فإذا ما تغلبت نزعة الشهوات عند الإنسان على نزعة الأخلاق ، وانقادت النفوس لأهوائها ، وجرت وراء لذاتها وتحقيق أغراضها ، فسدت هنالك الحياة ، وتعطلت مصالح الناس ، فسادت الفوضى ، وعمت البلوى ، وبرزت الأنانية ، وانتشرت الإباحية ، وتصرمت روابط المجتمع ، وتحكمت الأهواء والمصالح الشخصية على جميع القيم الفاضلة ، وتغلب الشر على الخير ، فلا عطف ولا رحمة ، ولا حب ولا مودة ، ولا صدق ولا أمانة ، ولا وفاء ولا مروءة ، ولا عدل ولا استقامة .

وليس من زاجر يزجر النفوس عن الإثم ، ولا رادع يردعها عن الظلم ، سوى الإيمان بالله الديان ، الذي يجزي السيئة بالسيئة ، والإحسان بالإحسان ، ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[1] .

قد يقول قائل ، أو يسأل سائل : أليس العلم أو القانون بقادر على كبح جماح النفوس عن الشر والاعتداء ، وتنظيم شؤون الإنسان في السلوك والمعاملات ، فيكون كلاهما بديلاً عن الأخلاق ؟

يجاب : بأن العلم أو القانون غير قادر على ذلك ، لأننا نرى الإنسانية اليوم قد تقدمت تقدماً كثيراً في ميادين العلم ، ولكنها تأخرت في مجالات الأخلاق أكثر فأكثر . فليس للعلم من أثر في تقويم النفوس ، ولا سلطان له في تنظيم السلوك ، ولا عمل له في يقظة الضمير والوجدان ، والعلم سلاح ذو حدين ، فهو يصلح للهدم كما يصلح للبناء ، مع أننا نرى آثاره في الهدم أكثر منها في البناء .

وكذلك يقال عن القانون الحكومي ، فسلطانه قاصر على حدود الظاهر ، وليس له أثر في تهذيب النفس أو في إحياء الضمير والوجدان .

---

(١) الزلزال ٧ ـ ٨

فلو أن محتالاً ذكياً احتال على نصوص القانون ، وارتكب جرائم أو مخالفات ، فلا يناله عقاب ولا يقع تحت طائلة الحساب .

بينما نرى سلطان الدين ، وتأثير الإيمان ، يقع على النفس فيهذبها ، وعلى العقل فيقوّمه ، وعلى القلب فيصلحه ، وعلى الوجدان فيوقظه ، وعلى الضمير فحييه .

فالإنسان المؤمن يخشى الله فلا يعصه لا في سر ولا في علن ، ويخافه فلا يعتدي على أحد ، ويطيعه فلا يتجاوز حدود شريعته .

والإله تعالى ، وإن احتجبت عنا ذاته ، فقد تجلت لنا صفاته في عجائب مخلوقاته . ولكي نرى كيف يكون جحود الخالق سبباً في ازدراء العقل وهدر كرامة الفكر فلننظر إلى هذا الدليل .

﴿ دليل القياس ﴾

نحن نشاهد أن جميع تصرفاتنا ـ كالقيام والقعود والمشي والوقوف ، والحركة والسكون ـ هي ناشئة عنا وحادثة من صنعنا ، وهي لم تكن موجودة من قبل ، بل نحن الذين أوجدناها .

فهذا البيت الذي نسكنه ، نحن الذين بنيناه ، وهذا القطار الذي نركبه نحن الذين صنعناه ، وهذا المصنع الذي ينتج لنا ما نحتاجه ،نحن الذين صممناه وأقمناه ، وهذا الحقل المزروع ، وهذا البستان المغروس وهذا وهذا . . . كل ذلك نحن الذين فعلناه، ووجوده في حاجة إلينا، ولولا صنعنا له لما وجد. ولكن الموجودات الأخرى التي نشاهدها ، والتي لا طاقة لنا بها ، ولا قدرة لنا على إيجادها ، من أرض وما فيها وما عليها من جبال ووديان وبحار وانهار وأشجار وإنسان وحيوان ، وهذه السماء وما تحويه من نجوم وكواكب وشموس وأقمار ، وما بين السماء والأرض من فضاء وهواء ورياح وليل ونهار ، فمن أوجد ذلك بعد

أن لم يكن ، ومن الذي صنعه ونظمه ، وضبط تركيبه وأحكم بناءه وربطه بسنن ونواميس ؟

فلا يخلو الأمر إما أن تكون هذه الأشياء حدثت بنفسها أو أحدثها غيرها . فلا يجوز أن تكون قد أحدثت نفسها ، لأنها حينئذ إما أن تكون موجودة قبل إحداثها لنفسها ، حتى توجد نفسها ، وهذا تناقض ، لأنها تكون موجودة وغير موجودة في آن واحد وهو مستحيل .

وإما أن تكون معدومة ، والمعدوم لا أثر له في الإيجاد .

وإما أن يكون قد أحدثها غيرها .

وهذا الغير إما أن يكون من أمثالنا ، له حياة كحياتنا وعلم كعلمنا وقدرة كقدرنا أو من فعل فاعل من غير أمثالنا ، فهو مخالف لنا ، له قدرة لا كقدرتنا وصفات لا كصفاتنا فلا يجوز أن تكون من فعل فاعل من أمثالنا ، لاننا نحن وهو متساوون في القدرة وفي جميع الصفات ، ونحن لا نقدر على فعل ذلك ، وإلا لاستطعنا أن نخلق لأنفسنا ما نشاء ، وهذا غير واقع ، وهو أيضاً لا يستطيع أن يفعل ذلك .

فلا بد أن يكون لها خالق مخالف لنا في جميع صفاتنا .

فله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا يشبهه في ذاته شيء ، ولا يماثله في صفاته وأفعاله شيء ، فيكون له العلم الكامل والارادة التامة والقدرة العامة الشاملة ، حتى يكون منه الخلق والايجاد .

ولا يجوز أن تكون من فعل المادة أو الطبيعة أو النجوم أو الكواكب ، لأن هذه الأشياء هي موضوع بحثنا فهي مخلوقة ، وليست بخالقة ، ومصنوعة وليست بصانعة ،لها سنن تسير عليها ، صنعها لها صانع حكيم خبير ، ولها نواميس مطبوعة بطابعها ، وضعها لها عليم قدير .

ثم ألا ترى لو أن أحدنا كان حائراً في بيداء واسعة ، ومفازة واسعة ، يتيه خلالها ، ويتردد في أرجاءها ، لا يهتدي إلى طريق خلاصه ، ثم وجد على حين غرة بيتاً أنيقاً بهيجاً ، تكتنفه الأشجار المثمرة ، وتحوطه النباتات المزهرة ، وتجري فيه المياه العذبة ، وتتخلله الأعشاب الرطبة ، فيه قصر رائع منيف ، على غاية من الابداع الهندسي وفن الإعمار ، فيه من التحف ما يُدهش جلاله ويبهج جماله ، ويعجب كما له محلى بكل طرفه ، ومزيناً بكل تحفة ، فيه فرش مرفوعة ، على أرائك فخمة ، عليها نمارق مصفوفة ، وفي وسط كل غرفة زرابي مثبوتة ، وفي كل حجرة منه فرشاً جميلاً متناسقاً ، وزينة مرتبة ومنظمة ، يأسر الألباب منظره ، ويقيد الأبصار مظهره ، لا يرى فيه الرائي إلا الجلال والجمال والكمال .

فهل يوجد إنسان يلغي عقله ، ويعتقد أن هذا بني من غير بان ، وصنع من غير صانع ، وأنه ليس له مالك أو صاحب ؟

فكيف يعتقد معتقد ان هذا الكون بما فيه من بناء هائل ، وتكوين محكم رهيب فيه أجرام ضخمة ، وموجودات فخمة ، لا يحدها حد ، ولا يحصيها عد ، قانونها عام ، ونظامها تام ، وهي على غاية من الابداع والاحكام ، انها وجدت بدون موجد ، وصنعت بدون صانع .

أليس في هذا الاعتقاد احتقار للعقل وازدراء لنتائج التفكير ؟﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾[1] .

---

(١) الطور ٣٥ ـ ٣٦ .

﴿ السمـــاء ﴾

عالم السماء عالم هائل رهيب ، لا يُعرف كنهه ، ولا يُدرك عمقه ، واسع الأرجاء ، بعيد الانحاء ، بديع التكوين ، محكم التنظيم ، فراغهه هائل ، وبناؤه كامل ، كثير الأجرام ، دقيق النظام ، متقن التركيب ، منسجم الترتيب ، تسبح أجرامه في فضائه ، وتلمع نجومه في سمائه ، لا يرى فيه اعوجاج ولا تفاوت ، ولا يوجد فيه اختلاف أو فطور ﴿ صنع الله الذي اتقن كل شيء ﴾[1] .

أما تعيين السماء وتحديد معناها ، فقد اختلف فيها الفلاسفة والعلماء على أقوال . « فأرسطو » الفيلسوف الإغريقي يرى أن السماء هي جسم يحيط بجميع الكائنات أو هي الجسم المحيط بالمكان الحاوي لجميع الأجرام الكونية ، فهذه النجوم التي نراها تملأ الفضاء الكوني ، يحيط بها من جميع جهاتها جسم كريّ الشكل هو المسمى بالسماء ولا شيء يوجد خلف هذا الجسم السماوي ، الاخلأ ولاملأ .

والسماء عند الفيلسوف الأغريقي « ديموكريت » هي هذا الفراغ الواسع الذي تحل فيه الأجسام من نجوم وكواكب ، وهي تتحرك في داخله ، وليست السماء عنده جرماً مادياً كما هي عند أرسطو ، بل هي فراغ هائل لا حدود له .

والسماء عند علماء الطبيعة المعاصرين ، هي هذه الأجرام التي نشاهدها من نجوم وكواكب تسبح في هذا الفراغ الواسع .

والسماء التي جاءت في القرآن الكريم ، لها اطلاقات كثيرة . تطلق على

---

(١) النمل ٨٨ .

سقف البيت قال تعالى ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ [1] .

وتطلق على السحاب قال تعالى ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ [2] وتطلق على المطر ، قال تعالى : ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ [3] وجاءت بمعنى الجهة قال تعالى ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ [4] وجاءت بمعنى الفضاء ، قال تعالى﴿ فتثير سحاباً فيبسطه في السماء ﴾ [5] وجاءت بمعنى سماء الجنة وسماء النار قال تعالى ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ [6] أي سماء كل منها وأرضها ، فسماء الجنة العرش ، وسماء النار غطاؤها الذي يعلوها .

وجاءت بمعنى الجرم بعينه قال تعالى ﴿وبنينا فوقكم سبعاًشدادا﴾ [7] .

وقال تعالى ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ [8] .

والذي يعنينا من هذه الاطلاقات الأجرام الكونية ، وهذا الفراغ الهائل . أما المادة التي تألفت منها هذه الأجرام الكونية ، فقد سبق أن ذكرت فيما تقدم فقلت : اتفق الناس جميعاً من القديم حتى الآن عن طريق الفطرة في العهد البدائي ، وعن طريق الأستدلال العقلي في عهد التفكير ، وعن طريق الأختبارات التجريبية في عصر العلم الطبيعي ، على أن اصل الكون ومادته واحدة ، ثم تفرع إلى هذه الكائنات الكثيرة .

فمنهم من قال : أصله الماء ، ومنهم من قال : أصله الهواء . ومنهم من زعم أن أصله اللامتناهي ـ أي الفراغ غير المحدود ـ ومنهم من قال : ذرات صغيرة منبثة لا تراها الأعين ومنهم من قال : العناصر الأربعة ، الماء والهواء والنار والتراب ، ومنهم من قال : أصل الكون أبخرة تكاثفت وازداد تكاثفها فتحجرت .

---

(١) الحج ١٥
(٢) البقرة ٣٢
(٣) نوح ١١
(٤) البقرة ١٤٤
(٥) الروم ٤٨
(٦) هود ١٠٧
(٧) النبأ ١٢
(٨) الذاريات ٤٧

ويرى العلماء الطبيعيون إلى ما قبل تفجير الذرة ، أن الكون أصله غاز ساخن متخلخل كان يملأ الفضاء ويحتوي على دقائق المادة .

أما العلماء بعد تفجير الذرة ، فيرون أن الكون نشأ من الضوء ، وأن الشعاع الضوئي لسبب مّا تحول إلى موجات كهرومغناطيسية ، والموجات الكهرومغناطيسية تحولت إلى الكترونات وبروتونات ، ومن هذه الالكترونات والبوتونات تكون الهيدروجين الذي تكونت منه الذرات التي أَلَّفَتْ عناصرها المادة ، فمن الهيدروجين إذن نشأت شتى أنواع الغازات التي تألفت منها السدم ومن السدم نشأت المجرات والنجوم .

إذن فكتاب الوجود مؤلف من مادة واحدة ، ومؤلفه واحد ، لأن وحدة الخلق والإبداع ظاهرة في كل سطر من سطورة ، وفي كل مظهر من مظاهره ، من الذرة إلى المجرة ، وهي تدل على وحدة الخالق .

-١٠-

- « نظام الذرة ينادي بوجود الخالق تعالى » -

هذه الذرة التي توصل العلماء إلى السيطرة عليها وتفجيرها ، وجدوها مؤلفة من طاقات وشحنات كهربائية سالبة وموجبة ، وقائمة على نظام واحد متقن بديع لا تفاوت فيه .

والذرة صغيرة جداً بحيث لا يستطيع أكبر المجاهر وأقواها ، كالذي يكبر الأشياء ملايين المرات ، أن يكشف رؤيتها ، فهي صغيرة كلا شيء بالنسبة لأصغر الأشياء المرئية ، وقد حسب العلماء قطر أكبر ذرة مثل ذرة اليورانيوم تساوي جزء من ١٠٠ مليون جزء من البوصة .

بمعنى أننا لو وضعنا ١٠٠ مليون ذرة يورانيوم الواحدة بجانب الأخرى لبلغ طول الجميع بوصة واحدة ، فما بالك بأصغر الذرات وهي الهيدروجين ؟

تتكون الذرة من نواة وهي شحنة كهربية موجبة وتسمى بروتون يحيط بها عدد من الكهارب السالبة تدور حول النواة بسرعة فائقة وتكون كغلاف لهذه النواة وتسمى الكترون .

أما ذرة الهيدروجين ، فهي أبسط الذرات ، لأنها ليس لها إلا إلكترون واحد وبروتون واحد ، ولذلك تعتبر كمقياس للوزن الذري لبقية العناصر ، وفي بعض الذرات تتألف النواة من بروتون ونترون ، والنترون شحنة كهربية معدّلة لا توصف بسالبة فترجح جانب الإلكترون ، ولا موجبة فترجح جانب البروتون ، إلا أنه يؤثر في الوزن الذري للعنصر فقط لأن الوزن الذري هو

عبارة عن مجموع البروتون والنترون معاً ، فالهيدروجين مثلاً يتألف من بروتون واحد ، ويدور حوله الكترون واحد، وليس له نترون ، فوزنه الذري واحد ، ولهذا يعتبر كما قلنا هو المقياس للوزن الذري .

أما الأورانيوم فله نواة مؤلفة من ٩٢ بروتونا و٤٦ انترونا يدور حولها ٩٢ الكتروناً ، ولكن وزنه الذري هو مجموع البروتون مع النترون أي ٩٢ + ١٤٦ = ٢٣٨ وهو وزنه الذري .

وعلى هذا نجد أن الذرة التي تؤلف العناصر التي تألّف منها هذا الكون ، تسير على نظام واحد مطرد بين الكهارب والنواة ، لا اختلاف في بنائها ولا خلاف في سير نظامها .

وقد ثبت لدى العلماء بما لا يدع مجالا للشك ، أن الأنظمة والسنن الكونية واحدة، فما يسيطر في الأرض من السنن والنواميس الكونية ، هو يسيطر على الأجرام السماوية وعلى الذرات والنوايا والكهارب ، وأن جميع أجزاء الكون خاضعة لقوانين مماثلة ثابتة ، وأنه لا شذوذ ولا فوضى في نظام الكون .

يقول الأستاذ «قدري طوقان» في كتابه بين البقاء والفناء : لقد ثبت لدى العلماء أن النظام في الذرات وما يسودها من قوانين ، يشبه النظام الشمسي بقوانينه وانظمته ، فالقوانين واحدة ، والأنظمة واحدة ، فما يسيطر على السيارات والشموس هو بعينه في الذرات في كهاربها وفي نواياها ، أي إن الكون في أصغر موجوداته وأكبرها يسير حسب نظام وعلى قوانين ثابتة ، كشف الإنسان بعضها ، ولا يزال يحاول كشف بعضها الآخر مستعيناً بالأساليب المتعددة من طبيعية وفلكية ، وكيمياوية ورياضية .

فالشمس هي المركز الذي تدور حوله الكواكب السيارة من الغرب إلى الشرق فهي تشبه النواة من الذرة ، والكواكب التي تدور حولها تشبه الالكترونات التي تدور حول النواة ، وهناك مجال واسع بين الشمس والكواكب من الفضاء ،

تدور فيه هذه الكواكب فلا تصطدم أبداً .

وإذا أردنا أن نعرف الفراغ العظيم بين الكهارب السالبة والنواة ، وكيف تسبح هذه الكهارب حول النواة ، فلقد أبانت الحسابات ، أن قطر النواة أقل من جزء واحد من مليون جزء من قطر الذرة المؤلفة من الألكترون والبروتون ، أي أقل من مجموع الكهارب السالبة التي هي الغلاف ، والكهارب الموجبة التي هي النواة ، وهذا يعطي فكرة عن ضآلة البروتون والمنضم له النترون كما يعطي فكرة عن الفراغ العظيم الموجود في داخل الذرة .

« وقد قدر أن الالكترون لا تشغل أكثر من $\frac{1}{1,000,000,000}$ من مساحة الذرة ، وبقية المجال يكون خالياً ، ولو أنا أخذنا صورة مكبره لجزئين من الألكترون والبروتون ، فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ٣٥٠ ياردة ، ولقد نتصور الذرة في الغبار غير مرئية ، ومع هذا فإن حجم دوران الالكترون داخلها يبلغ حجم كرة قدم قطرها ثمانية أقدام .

والألكترون الذي هو الجُزَيْءُ السلبي في الذرة يدور حول البروتون الذي هو الجزيء الايجابي فيها ، وهذه الجزيئات لا حقيقة لها أكثر من نقط وهمية سابحة في الشعاع ، تدور حول مركزها ، بنفس النظام الذي تتبعه الأرض في مدارها حول الشمس ، بحيث لا يمكن تصور رجود الالكترون في مكان محدود ، لسرعة دورانه ، وإنما هو يتخيل فقط موجوداً على طول مداره في وقت واحد ، وذلك لأنه يدور حول مداره بلايين المرات في الثانية الواحدة » [1] .

فلا عجب إذن ، إذا كان هناك حركة فائقة من الكهارب التي تدور حول النوايا ، فالمجال واسع جداً بين النواة ـ البروتون ـ وبين الكهارب ـ الألكترون ـ تماماً كما هو عليه الحال بين الشمس التي تشبه النواة من الذرة ، وبين الكواكب

(١) الإسلام يتحدى للأستاذ وحيد الدين خان ص ٨٤

السيارة التي تدور حول الشمس والتي تشبه الكهارب التي تدور حول النواة .

والذرة بحالتها الطبيعية وحدة مستقلة متزنة بين الشَّدِّ والمَدِّ مع الكهارب السالبة ـ الألكترون ـ والنواة الموجبة ـ البروتون ـ ولا يخفى على من له أقل إلمام بالكهرباء أن هناك قوتين تتجاذبان ، القوة السالبة ، والقوة الموجبة ، فإذا وجدتا حدث التجاذب مثل « الالكترون » و « البروتون » ولكن إذا كانتا من نوع واحد كالسالبتين مثل « الالكترون » والموجبتين مثل « البروتون » فيتنافران ويتدافعان ولا يحدث بينهما تجاذب ، وتعرف هذه الظاهرة بقانون « كولومب » وكلما زاد الاقتراب بين القوتين ، زاد الجذب في المختلفتين ، وزاد التدافع في المتجانستين وتغيرت تغيراً عكسياً بحسب مربع المسافة بينهما ، وهذا القانون يسري على جميع ذرات العناصر المختلفة ، فكهارب أي عنصر تنجذب إلى نواته ، وقوة التجاذب تخضع لقانون « كولومب » .

ولسائل يسأل : إذا كان هذا القانون يسري على جميع الجسيمات المشحونة بالكهرباء فيحدث التجاذب بين القوتين السالبة والموجبة ، ويحدث التدافع بين القوتين السالبتين معاً ، أو الموجبتين معاً ، فما بالنا نرى الذرة المؤلفة من عدة أنوية ـ كهارب موجبة ـ تتجاذب هذه الأنوية ، مع أنها من نوع واحد ، وهو النوع الموجب ، ولا تتدافع حسب هذا القانون ؟ يجاب بأن هذا حق من حيث المبدأ ، ولكن الواقع غير ذلك ، فلا تتناكر ولا تتنافر ، بل بينهما شد وربط ، وقوة ترابط وتجاذب ، وقد بحث العلماء في هذه الظاهرة وأطالوا البحث ثم توصلوا في نهاية الأمر إلى نتائج خطيرة تتلخص فيما يلي :

هناك مسافة يبطل عندها قانون « كولومب » وهذه المسافة جزء من ٣٠ مليون جزء من السنتيمتر ، أي نحواً من ـــ قطر أكبر ذرة كذرة اليورانيوم ، أو أقل ، إذ يقع تغير في علاقة البروتونات ، وكذا الأمر إذا وجد مع البروتون نترون فإن التجاذب حاصل لا محالة .

يقول الأستاذ «قدري حافظ طوقان» ولكي نوضح مبلغ هذه القوة الجاذبة بين أي بروتونين ، نقول : إن البروتون جسيم صغير جدا جدا ، فكتلته لا تتجاوز جزءاً من ٦٠٠ ألف مليون مليون جزء من الغرام ، وعلى الرغم من تفاهته وضآلة هذه الكتلة التي لا يتصورها العقل ، فإن قوة الجذب بين بروتونين في نواة أي عنصر تتراوح بين ٤ ك غ و ٢٠ ك غ وهذه قوة عظيمة جداً للذين يتفكرون فيها ، ويقول أحد الرياضيين الطبيعيين (. . . لو بلغت قوة الجذب النيوتونية هذا المبلغ ، لكان وزن ريشة على سطح الأرض تبلغ ملايين الأطنان . . .) وحل هذه القوة الجبارة الجاذبة ، هو الذي توصل إليه العلماء من تفجير الذرة ، فأحدث هذا التدمير الهائل الذي سمعنا عنه في « ناجازاكي » و « هيروشيما » اليابانيتين ، والذي نسمع عنه وعن الضجات العالمية ، كلما قامت تجربة في جهة من الجهات ، لأن هذه القوة العظيمة المحبوسة في النواة تنطلق انطلاق المارد من القمقم كما تتحدث عنه الأساطير ، أو مثل السهم المشدود إلى القوس ، فالسهم المشدود إلى القوس كلما كان مشدوداً كانت فيها قوة اندفاع هائلة ، فإذا ترك الشد انطلق السهم بقوة عظيمة حسب قوة الشد ، وكذا هذا التجاذب الحاصل بين البروتونات ، فإذا انحل بوسيلة ما ، احدث انفجارا هائلا وتدميراً مروعاً .

والخلاصة التي نستخلصها من هذا الحديث كله ، والفائدة التي نستفيدها أن هذا الضبط المتقن ، والربط المحكم بين الشعاع الضوئي والذرة ، وبين الذرة والعناصر ، ثم بين العناصر والمادة ، وبين المادة والكون الهائل ، ثم بين النواة والكهارب التي تدور حولها ، على دقتها وتناهيها في الصغر ، لهو اكبر دليل على وجود فاعل مختار منظم ، وقادر على كل شيء ،حكمته لا تتناهى وخبرته ليس لها حد ، وتدبيره يفوق الوصف والتقدير .

فهذا النظام الذري المعجز يستحيل قيامه بنفسه ، ولا سبيل إلى مشاهدته ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم ، والعلم قد تبناه وأقام على أساسه بحوثاً مفيدة واضحة ، فلم لا يكون ذلك دليلاً على وجود منظم قائم على هذا

التنظيم ؟ قال تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً[1] ﴾ وقال : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر[2] ﴾ . وقال ﴿ وكل شيء عنده بمقدار[3] ﴾ . وإلا فيستحيل قيام هذا التنظيم الدقيق في الذرة دون منظم حكيم ، ويستحيل أن يأتي عفواً دون قصد ، وإلا كان معنى هذا أن نلغى عقولنا ونقبل هذا اللغو من السخف والهذيان .

فالعلم الطبيعي أثبت من طريق المادة ، وبأسلوبه المادي الخالص القائم على التحليل والتركيب ، والبحث في التغيرات التي تطرأ على المادة أثناء التجارب الكيمياوية ، أثبت بواسطة هذه البحوث وجود القصد والارادة والاختيار في ايجاد الكون وفي وجوده ، وبالتالي أثبت وجود الله الخالق بهذا الكون ، وأسقط من حسابه المصادفة في وجود وبناء وتنظيم الكون كليا ، لهذا كل جزء من أجزاء المادة مهما صغر وتضاءل حجمه ، فهو يخضع لقوانين طبيعية ثابتة ومحدودة بل إن العلماء اكتشفوا بعض القوانين الطبيعية قبل اكتشاف الأسباب والعوامل التي أوجدت هذه القوانين بزمن طويل ، وأن العلماء كانوا يثقون بنتائج هذه القوانين والآثار التي تصدر عنها ، وأن هذه القوانين تبقى عاملة إلى نفس النتائج المتوقعة منها ، مما يدل على عدم وجود المصادفة العشوائية من الكون وإلا لما وجدت هذه القوانين الثابتة المحدودة .

يقول الدكتور « جون كليفلاند كوثران » في مقاله « النتيجة الحتمية » :[4] ونستطيع أن نبسط الأمر فنقول : إن الفرق بين ذرة عنصر معين وعنصراً آخر ، يرجع إلى الفرق في عدد البروتونات والنيوترونات التي بالنواة ، وإلى عدد وطريقة تنظيم الالكترونات التي في خارج النواة ، وعلى ذلك فإن ملايين الأنواع من المواد المختلفة سواء كانت عناصر أم مركبات ، تتألف من جزئيات كهربية ليست في الواقع إلا مجرد صور أو مظاهر من الطاقة .

---

(١) الفرقان ٢ .

(٢) القمر ٤٩ .

(٣) الرعد ٨ .

(٤) الله يتجلى في عصر العلم .

والماده بوصفها تتكون من مجموعات من الجزئيات والذرات ، والجزئيات والذرات ذاتها ، والالكترونات والبتوترونات التي تتألف منهاالذرات ،والكهرباء والطاقة ذاتها إنما تخضع جميعاً لقوانين معينة ، وليست وليدة المصادفة ، بحيث يكفي عدد قليل جداً من ذرات أي عنصر للكشف عنه ومعرفة خواصه ، على ذلك فإن الكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى ، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط .

فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها ؟

لا شك أن الجواب سيكون سلبياً ، بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فإن كل ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها ، وهذا كله يدل على الخالق العظيم والمنظم الحكيم .

* * *

﴿ نظام المجرة وعالمها دليل على وجود خالقها ﴾

بعد أن بحثنا في نظام الذرة فلنبحث الآن في نظام المجرة وعالمها ، لنستدل منها على الخالق المبدع لهذا الكون ، العجيب في نظامه ، الفريد في انتظامه ، البديع في تكوين أجرامه ، والمتقن غاية الاتقان في توازنه واتزانه .

فالشمس نجم متوقد دائم الاشتعال ، تشرق في سماء كوننا ، مؤلف من نار ونور ، والنجوم التي نشاهدها في الليل المظلم ، هي شموس متألقة ، تتألف مما تتألف منها شمسنا ، ويسري على الجميع نظام واحد ، ويشملهم قانون واحد ثابت .

وشمسنا نجم متوسط الحجم ليس بالكبير الأكبر ولا بالصغير الأصغر ، ومن النجوم الأخرى ، ما هو أكبر من شمسنا بكثير جدا بحيث يبلغ ٣٠ مليون مرة كنجم(المبرة) ومنها ما هو أصغر منها بقليل جداً ، كنجم (مانن) الذي لا يزيد عن حجم الأرض إلا بقليل ، وكل من هذه النجوم يسبح في فلكه ، ويجري إلى مستقره ، في هذا الفضاء الواسع الفسيح ، الذي ليس له حدود ظاهرة ، وهذه النجوم والكواكب موزعة فيه ومبعثرة ، يراها الرائي في الليل المظلم متزاحمة ، يزحم بعضها بعضاً ، ولكنها في الواقع على أبعاد شاسعة ، لا يكاد يتصورها العقل ، وبعدها عنا ، يرينا إياها صغيرة ومتزاحمة ، ولهذا البعد الكبير ، قصرت مقاييس الأبعاد والمسافات التي تعيش فيها أبعادنا ، كالميل والكيلومتر ، عن مقياس البعد بين النجوم .

لذلك اصطلح العلماء على اتخاذ مقياس آخر لقياس هذه الأبعاد بين النجوم السماوية ، هذا المقياس من جنس ما يطلقه النجم من الضوء ، وما يقطعه في الثانية الواحدة ، ويقدر بـ ١٨٦٠٠٠ ميل ، فإذا ضربنا هذه السرعة بـ ٦٠ فالناتج هو ما يقطعه في الدقيقة الواحدة ، فإذا ضربنا الناتج الثاني بـ ٦٠ أيضاً فالناتج هو ما يقطعه في الساعة الواحدة ، فإذا ضربنا هذا الناتج بـ ٢٤ فالناتج عن ذلك هو ما يقطعه الضوء في اليوم الواحد ، فإذا ضربنا هذا الناتج الأخير بـ ٣٦٠ فالناتج هو ما يقطعه في السنة الواحدة ، ويقدر بحوالي ٦ ملايين مليون ميل أو ٦ آلاف مليار ميل تقريب ا.

فهذا العدد الضخم يستعمل كوحدة في قياس المسافات بين النجوم ، وقد أطلقوا عليه السنة الضوئية .

وأقرب كوكب منا هو القمر ، ونوره يصل إلينا في أقل من ثانيتين ، وبعده عن الأرض يبلغ ٢٣٨٨٦٠ ميل .

والشمس يصل نورها إلى الأرض في نحو ٨ دقائق ، وبعدها عن الأرض يبلغ ٩٣ مليون ميل تقريبا .

وإذا أردنا أن نعرف البعد بين الشمس وأسرتها التوابع ، لنعرف كيف تسير في أفلاكها دون أن تتصادم ، ونعرف أيضاً من خلال ذلك سعة الكون الذي تسبح فيه الأجرام السماوية ، فلننظر إلى الأبعاد والمسافات بينها وبين الشمس :

فبعد عطارد عن الشمس ، ٣٦ مليون ميل .
وبعد الزهرة عن الشمس ، ٦٧ مليون ميل .
وبعد الأرض عن الشمس ، ٩٣ مليون ميل .
وبعد المريخ عن الشمس ، ١٤٢ ميل .
وبعد المشتري عن الشمس ، ٤٨٣ مليون ميل .
وبعد زحل عن الشمس ، ٨٨٦ مليون ميل .

وبعد أورانس عن الشمس ، ١٧٨٣ مليون برميل .
وبعد نبتون عن الشمس ، ٢٧٩٤ مليون برميل .
وبعد بلوتو عن الشمس ، ٣٦٧٠ مليون برميل .

وهذه المجموعة الشمسية تعتبر أكثر المجموعات النجومية والكوكبية تزاحماً ، وقد مثل الدكتور أحمد زكي في كتابه « مع الله في السماء » الشمس وأسرتها في الحجم والبعد بصورة مصغرة ومقربة فقال :

الشمس كرة كبيرة تحملها بين يديك ، إن قطرها دون المتر ، وأزيد من ـ المتر ، إن قطرها ٨٦ سنتيمتر .

وعلى بعد ٣٦ متر من هذه الكرة ، نوجد عدسة إنها من العدس الذي نأكله ، وإنها لعطارد .

وعلى بعد ٦٧ متراً من تلك الكرة الكبيرة ـ من الشمس ـ توجد فولة صغيرة ـ فولة مصرية ـ انها الزهرة .

وعلى بعد ٩٣ متراً من الكرة ـ من الشمس دائماً ـ توجد فولة أخرى ـ فولة شامية ـ أكبر من الأولى ، فهذه هي الأرض .

وعلى بعد ١٤٢ متراً ، توجد سمسمة هي المريخ .

وعلى بعد ٤٨٢ متراً توجد برتقالة هي المشتري .

ثم برتقالة أصغر على بعد أكبر هو ٨٨٦ متراً فهذه زحل .

ثم ليمونة ـ ليمونة مصرية وهي صغيرة ـ على بعد ١٧٧٢ متراً (كيلومتراً تقريباً) هي أورانوس .

ثم ليمونة أصغر قليلاً على بعد ٢٧٩٤ متراً (ثلاثة كيلومترات تقريباً) فذاك نبتون .

وأخيراً «بلوتو» كالفولة أو دونها على بعد ٣٦٧٠ متراً (٣َ) ك م تقريباً وكل هذه من فول وعدس وسمسم وبرتقال وليمون ، تدور حول الكرة الكبيرة التي هي بين كفيك ، ـ الشمس ـ .

ونعود نخص الأرض ، أمنا الأرض بالذكر ، إنها فولة . . .

وعلى هذه الفولة يعيش ما يقرب من ٢٥٠٠ مليون من الناس ، يعيشيون ويصطخبون ويصطرعون على شيء يخرج من فتيت الصخر ، يسمونه طعاماً ، وفتائل تخرج من النبت ، يسمونه لباساً ، ومذاهب شتى ألواناً بين الأحمر ، والأزرق ، يتخاصمون فيها . . . ويتخاصمون في معان أعتى وأخفى .

وهم على صغرهم يتحدثون عن شيء أصغر وأصغر كثيراً ، وأضأل وأضأل كثيراً أيضاً . .تلك الذرة . . . إن الأرض كلها فولة ، فكم تكون الذرة . . . ؟ . . » .

وأنا أقول تعليقاً على كلام الدكتور أحمد زكي :

ألا ما أتفه ما يصطرع عليه الناس ! يصطرعون على تفاهات مادية ، هي مضمونة لهم لو عقلوا ، ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون ﴾ [١] « إن روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها » [٢] .

ويصطرعون على آراء هزيلة ، يسمونها مبادىء فكرية واجتماعية ، وهي سبب بلائهم لو فكروا ! . . . يصطرعون على فتيت طعام نشأت من فتات صخر ! نعم . وعلى فتائل ألبسة نباتية وحيوانية خرجت من تراب ملوّث ، إن من هوان الدنيا على الله ، الدنيا كلها ، أن أطيب طعام أهلها العسل ، وهو يخرج من بطن حشرة صغيرة التي هي النحلة ، ولكن من أي مخرج تفرز هذا

---

(١) الذاريات ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) حديث شريف .

العسل اللذيذ الطيب ؟

وأن ألذ شرابهم وهو اللبن ـ الحليب ـ ﴿يخرج من بين دم وفرث﴾ ؟؟ وإن أفخر ألبستهم هو الحرير ، يخرج من لعاب دودة ، دودة حقيرة تافهة !!

وإن أجمل زينة نسائهم وهي عقود اللآلىء ، فهي تخرج من إفرازات حيوان تافه مقوقع في قعر البحر المالح المظلم !!

فما بقي لهم من التفاخر ؟!. ثم هم يتحارشون ويتهارشون على أفكار صغيرة تافهة ، انطلقت من عقول هي أصغر وأتفه بكثير مما يتصورون أو يعتقدون ، بل إنهم وأرضهم التي يصطرعون عليها ، والتي ليست فولة ـ كما تصورها الدكتور أحمد زكي ـ بل هي هباءة تهيم بهم في هذا الفضاء البهيم ، لا تُرى بالنسبة لغيرها من الأجرام الكبيرة الأخرى إلا تحت المجهر ، فما قيمتهم هم إذن ؟! . . ألا يرفعون رؤوسهم إلى ما فوقهم فينظرون عجائب الخلق والابداع ، كيف تتجلى في مجال الوجود ، ﴿قل انظروا ماذا في السموات[1]﴾

ثم ألا ينكسون رؤوسهم ويخفضونها إلى ما تحتهم فيعتبرون بنشأتهم الترابية ومصيرهم الأبدي ، فيعود إليهم وعيهم ، ويثوب إليهم رشدهم ، فتصغر أمامهم نفوسهم وأفكارهم ومبادئهم التي جعلوها نصيباً إليها يوفضون ، وعلى مذبحها لدمائهم يسفكون ؟! . . ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين﴾[2] ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[1] .

ثم لنعد إلى الأبعاد والمسافات بين الكواكب لنستخلص العبرة والدليل ، من إبداع الخلق إلى عظمة الخالق .

---

(١) يونس ١٠١ .
(٢) الذاريات ٢٠ .
(٣) يونس ١٠١ .

فإذا كانت السنة الضوئية تبلغ ستة ملايين مليون ميل ، فأقرب نجم إلى الأرض ـ غير الشمس ـ يبعد عنها أربع سنوات ضوئية تقريباً ، أي ما يعادل ٢٤ مليون ميل تقريباً .

ثم إن النسر الطائر يبعد عن الأرض ١٤ سنة ضوئية ، أي ما يعادل ٨٤ مليون ميل تقريباً .

ثم إن النسر الواقع يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية تقريباً أي ما يعادل ١٨٠ مليون ميل تقريباً .

والسماك الرامح يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية ، أي ما يعادل ٣٠٠ مليون مليون ميل تقريباً .

والمرأة المسلسلة تبعد عنا مليون سنة ضوئية تقريباً ، فكم من ملايين الأميال تبعد عنا ؟ . .

ووراء هذه السدم والجزر النجومية ، ما هو أبعد منها بكثير .

يقول : « جينز »[1] في كتابه النجوم في مسالكها : . . . إن أبعد ما كشفت عنه التلسكوبات من السدائم هو من البعد بحيث يستغرق الضوء في الوصول إلينا منه نحواً من ١٤٠ مليون سنة ضوئية !!

هذا ما اكتشف فما بالك ما لم يكتشف؟

أرأيت لو أنك خرجت في ليلة مظلمة وصاحية من ليالي الصيف ونظرت إلى السماء فإنك ترى في أول الليل غباراً فضياً لماعاً منتشراً ومنتشراً عبر الأفق الشمالي الشرقي إلى الأفق الجنوبي الغربي ، كأنه نهر جار في تصميمه وتكوينه ، إنه المجرة التي تجري في السماء ، رآها العرب الأقحاح من قبل فسموها مجرة تشبيهاً لها بالنهر الجاري ، ورآها عامة العرب ، فسموها بدرب التبانة تشبيهاً لها بالدرب الذي يمر عليه من يحملون أكياس التبن فيتناثر منه عليه . ورآها الإغريق القدماء فسموها سكة اللبن ، تشبيهاً باللبن المسكوب على الطريق ، وتبعهم في هذه التسمية الغربيون .

---

(١) عالم فلكي انكليزي مشهور ترجم كتابه هذا ، الدكتور عبدالسلام الكرداني .

وما هي إلا نجوم بعدت عنا جداً فصغرت في أعيننا وتقاربت في نظرنا فرأيناها على الصيغة التي ذكرت ، ونحن سكان الأرض جزء من هذه المجرة ، نقع من مركز دائرتها على بعد ٣٠,٠٠٠ سنة ضوئية .

إن منظار مرصد جبل ولسن بأمريكا ، اكتشف مائة مليون من المجرات يسمونها بالجزر الفضائية .

وفي كل مجرة يوجد ما يقرب من ١٠٠ ألف مليون نجم ، ومن النجوم العمالقة ما هو أكبر من الشمس بمائة مليون مرة ، وهناك ما هو أكبر من هذا الرقم بكثير .

وهذا المرصد يكتشف من الفضاء بمقدار ٥٠٠ مليون سنة ضوئية . فكم عدد المجرات المجهولة التي هي أبعد من هذه المجرات المكتشفة والتي لم يتناولها هذا المنظار ؟!

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروباً هذا العدد في (٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من الملايين وفي كل مجموعة منها يوجد (مئة مليار) من النجوم أو أكثر أو أقل ، ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجوم وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيِّزاً مداه مائة ألف سنة ضوئية ، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة ، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنين الضوئية .

وقوام الكون المرئي في وقتنا الحاضر ما يربو على مائة الف مليون مجرة ، والكون لا يزال يبني أجراماً كونية عبر الزمن ، ومجموعات مثل مجموعتنا الشمسية .

---

(١) هو أكبر منظار ـ تلسكوب ـ في العالم يبلغ قطر عدسته العاكسة مترين ونصف متر .

ففي هذه المجرات توجد نجوم هائلة براقة في دور التكوين ، فتنفجر فيتناثر بعض اجزائها ، ويؤلف انفجارها مجموعات شمسية كما تألفت مجموعتنا الشمسية في الزمن الماضي السحيق ، وتتألف هذه المجموعات الجديدة من بقايا الغاز الكوني المنتشر في الفضاء الواسع ، والذي تألف منه أول ما تألف هذا الكون .

ثم إن هذه المجرات الهائلة تتباعد عن بعضها بسرعة مدهشة مما يؤدي تباعدها هذا الى اتساع الكون وامتداده .

يقول العلماء : إن هذا الكون يتسع من كل جوانبه كالبالون المتخذ من المطاط حيث ينتفخ بنفخ الطفل فيه ، وشمسنا هذه تقع على حافة المجرة الخارجية ، وهذه الحاشية تتباعد عن المركز بمقدار اثني عشر ميلا في كل ثانية ، وتتبعها جميع النجوم الداخلة في النظام الشمسي ، وهكذا تكون جميع السيارات تتباعد مع الشمس أو مع دورانها الخاص طبقاً لنظامها الشمسي ، فمنها ما يسير بسرعة ثمانية أميال في الثانية ، ومنها ما يسر بسرعة ثلاثة وثلاثين ميلاً في الثانية : ومنها ما يسيسر بسرعة أربعة وثمانين ميلاً في الثانية .

وجميع النجوم تبتعد في كل ثانية بسرعة فائقة عن مكانها ، فهذه الحركة المدهشة تحدث طبقاً لنظم وقواعد محكمة بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ، ولا يحدث اختلاف في سرعتها .

وقد صور الدكتور أحمد زكي في كتابه « مع الله في السماء » سعة الكون وبعد النجوم بعضها عن بعض بمن يركب متن الضوء ليسبح في هذا الفضاء ويمسح الأبعاد بين النجوم فيقول: «إن سليمان كان إذا ركب الريح ، ولكن في استجلاء السماء لا ينفع الريح مركباً . . . إنه لا بد من ركوب دابة أسرع ، وليس أسرع في دواب السماء من الضوء ، نركبه فيسير بنا ١٨٦٠٠٠ ميل ، في العام ؟ لا . في الشهر ؟ لا . في اليوم ؟ لا . . !! ، انه يسير بنا هذا المقادر الهائل في الثانية الواحدة ، ويسير بنا ستة ملايين مليون ميل في العام .

فهذه هي السنة الضوئية ، فنعود فنؤكد معناها ، وتركب الضوء استجلاء للسماء ، وتطلب لهذه المجرة مخرجاً تخرج منه ، وانت في كسر من الثانية ، لا تكاد تحصيه لصغره ، تخرج عن جو الأرض ، فإذا السماء سوداء ، والشمس قرص في سواد ، والنجوم نقاط في سواد ، والنجوم متجمعة في المجرة ، أكبر تجمع مُركَّز فيها أكبر تركز . وتطلب منها أكثفها ، حيث النجوم تتراءى عدد الرمل ، وتمضي بك الدابة سنة ضوئية فسنة أخرى ، ولا تمر بك بشيء ، إنه الفراغ ، ونعم . هذا نجم يقترب ، ولكن الدابة دونه سنتان أو بضع سنين ، وتنظر وراءك إلى الشمس تطلب منها نظرة ، فترى القرص تصاغر حتى صار نقطة في السماء بين النقاط .

وتستحث الدابة فتجري ، ولا يفيد منها استحثاث . . إنها بغير أمرك تجري . وتمر بنجوم كثيرة عن يمينك . . . وتمر بنجوم كثيرة عن يسارك ، ومن أمامك ومن خلفك ، إنها تتراءى كثرة ولكن من بعيد . والزحام الذي طلبته بين أجرام السماء ما كان . إن النجوم تنفرج أمامك كلما أتيت لها زحاماً ، أو ما حسبت أنه الزحام ، إن المجرة فراغ ، أكبر فراغ . . . إن النجوم على كثرتها في السماء ، لا تكاد تملأ منها شيئاً . أرأيت لو أنك جئت بعشرة من الرجال ، ونثرتهم على سطح الأرض وقلت : اسكنوها آمنين أو غير آمنين ، إذن : لفعلت فعل صاحب السماء بالسماء والنجوم ، فالسماء هكذا ، قلة سكان واتساع مكان . وتسير بدابتك قُدُماً مائة عام فمائة عام ، فلا يختلف المنظر ، إلا تخلخلاً يظهر في ازدحام النجوم تراه بالعين وهي بعيدة .

تسير بدابتك ألفاً من الأعوام . . فألفاً . . . . وأخيراً يأخذ الزحام يخف ، وإذا هو أكثف في عمومه من ناحية دون ناحية ، ويقع في روعك أنك قد اقتربت من حافة المجرة ، إنه باب من أبوابها .

وتخرج عن المجرة ولا تحس لها باباً ، كل الضياء ، وراءك ، وكل الظلام أمامك ، إن المجرة كالجزيرة ، كنت في أوسطها ، والآن بلغت الساحل ، والجزيرة في محيط ماؤه من مواد سوداء .

وتسرح ببصرك في هذا المحيط وهو من ظلام لعل فيه جزيرة غير هذه . مجرة تأذن لك أن تتبينها ، فتقول مجرتان ، أو لعل فيه أكثر من جزيرة ، أكثر من مجرة ، تأذن لك بأن تجمعها فتقول مجرات . أو تأذن لك فتجمع الدنيا فتقول : دُني . أو دنييات . ويقع بصرك في ناحية من السماء على شيء جديد ، إنها سحابة من ضياء ، وترفع إليها منظارك ، فتجد أن الجديد ، ليس بجديد ، إنها سحابة كنت تراها في مرصد من مراصد الأرض ، وأنت على ظهر الأرض في بطن المجرة ، وحسبتها بعض سحبها والنجوم . وما هي من المجرة دنيانا هذه سكة التبانة في شيء ، وتزيد لها فحصاً ، فإذا جزيرة في المحيط الأسود ، كالجزيرة التي خلفت . إنها مجرة . . . ومجرة . . . ومجرة . . . . دنييات أخريات كشفها أهل الأرض حديثاً . . . كشفتها مراصد الأرض لما عظمت مناظيرها ، واتسع علمها ، واتسع حسابها ، وتنتهي الرحلة وتود أن تعود فلا تستطيع عودة . إن الدابة التي ركبتها لا تستطيع عودة وتبحث عن دابة أخرى شعاع من الضوء آخر لنجم آخر سبيله الأرض . . . وتعود إلى الأرض في حفظ الله ورعايته » .

لقد ظن العلماء من قبل ، أن المجرة هي أقصى حدود الكون ، وأن الفلك يقف عندها ، وأن وراءها لا خلأ ولا ملأ ، ولكن الذي ثبت لهم فيما بعد ، أن هذه المجرة ، إن هي إلا سلاسل من المجموعات النجومية ، تدور في كون ، ووراء هذا الكون ملايين من الأكوان ، ولكل كون ملايين من الوحدات النجومية ، لها أكوان تسبح في مجالاتها الواسعة ، التي ليس لها حدود معروفة ، أو غير معروفة ، وإن الكون الأعظم الذي يضم جميع هذه الأكوان مفتوح غير مغلق ، وممتد ليس له حدود ، وان كل ما فيه من سدم ومجرات نجومية ، ووحدات وجزر كونية تسبح في فضائه الفسيح ، وهي كلما تقاربت امتد بها الكون فتباعدت ، والكون لا يزال في اتساع مستمر ، إلى ما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، القائل : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ [1] .

وأخيراً أرأيت إلى هذه الوحدة في البناء ؟! إشعاع ألَّف ذرَّات من

---

(١) الذاريات ٤٧

كهارب ، وذرات من كهارب ألفت عدداً محدوداً من العناصر ، وعناصر محدودة العدد ألفت المادة ، وهذه المادة تألف منها هذا الكون الرحيب ، الكون الواسع الفسيح ، بكل ما فيه من موجودات من أحياء وغير أحياء .

من أين جاء هذا الاشعاع الذي تألفت منه المادة ، ثم تألف منها الكون ، ومن الذي جاء به ؟ وكيف وجد هذا التأليف والتركيب ؟!

هل هو إبداع مبدع وصنعة حكيم ؟ أم هو صدفة هوجاء ورمية من غير رام ؟

ثم هذا النظام العجيب الذي تنتظم فيه الذرة والمجرة ، ويسيرُ الجميع نظام واحد ، ويسوده قانون واحد ، فكيف كان هذا ؟

أليس عجيباً أن ما يسيطر على الذرات الكهربية ، يسيطر على الشموس وتوابعها الكواكب السيارة ، وعلى المجرات والجزر الكونية ، فمن الذي صنع هذه الأجرام الهائلة في أحجامها البالغة فوق التصور في أعدادها ، ومن الذي وضع لها هذا النظام الفريد في دقته وإحكامه ؟

ثم أليست هذه الوحدة في القوانين التي تسود الكون ، وهذه المساواة التي تنظم أجزاءه ، هي التي ينشدها عقلاء البشر بين أفراد الإنسانية ، وبين الأمم والشعوب ؟ أليس هذه النظم المتقنة هي الموازين الدقيقة التي شدت أجزاء الكون بعضها إلى بعض ، والتي قامت بها السموات والأرض ، ثم أليست هي الدليل القائم والبرهان الدائم ليأخذ منها الإنسان العبرة فيعطي ما عليه ويأخذ ماله بميزان واحد ؟ ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ [1] .

فلولا الموازين الدقيقة المحكمة التي ربطت بين هذه الأجرام الكونية الهائلة ، والتي يسمونها الجاذبية ، لاصطدمت فيما بينها وانقطع سلكها وانفرط عقدها .

(١) الرحمن ٧ ـ ١٠ .

فبالعدل وميزان الاتزان قامت السموات والأرض .

وبالعدل والميزان يقوم حكم للبشر ، وتدوم سعادة البشر ، يزول القلق من الشعوب ، ويبقى الاستقرار على الدوام .

سبحانك ربنا أقمت ملكك بالحق والعدل والميزان ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ وطلبت من خلقك أن يقيموا ملكهم وحكمهم بالحق والعدل والميزان ، بالأقوال والأفعال ، في الأخذ والعطاء في الحكم والأحكام ﴿ ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ .

فإذا اختلطت هذه الموازين اختبطت وضاعت الحقوق وزال العدل ، وإذا ضاعت الحقوق وزال العدل ، اصطدم الناس بعضهم ببعض كاصطدام الأجرام بعضها ببعض عندما تزول الموازين المقدرة فيما بينها ـ فاختلت أمورهم ودمروا حياتهم ، وأهلكوا وهلكوا .

لا إله إلا أنت سبحانك ما أعظم شأنك ، خلقت الخلق بقدرتك ، ونظمته بحكمتك ، ألا ما أعظم قدرتك وأبلغ حكمتك .

سبحانك يا مالك الملك ، ومنظم الكون ومسير النجوم ، ومبدع الإنسان ، عجزت العقول عن إدراك ذاتك ، وحارت الأفهام في تحديد صفاتك ، ولكنك وضعت أدلة تشير إليها .

فبمخلوقاتك عرفوك ، وبحكمتك في تنظيمها قدسوك .

سبحانك تهدي من تشاء إلى سبيل الحق ، وتضل من تشاء عن طريق الحق ، ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ آمين آمين يا رب العالمين .

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دليل الموضوعات

١ ـ الانسان .	٧٥
٢ ـ حقيقة الانسان .	٧٧
٣ ـ من الذي أوجد الانسان من العدم ؟	٨٠
٤ ـ العدم والوجود ومعنى الإيجاد من العدم .	٨٣
٥ ـ قصة خلق الانسان .	٨٧
٦ ـ الحكم الإلهية في أعضاء الحواس وتركيبها .	٨٩
٧ ـ حكمة السمع .	٩٩
٨ ـ حكمة البصر .	١٠٣
٩ ـ حكمة الشم .	١٠٧
١٠ ـ حكمة حاسة الذوق .	١١٠
١١ ـ حكمة حاسة اللمس .	١١٣

الإنسان

توصل العلماء إلى أن أكثر من مائة ألف نوع من أنواع الحيوان توجد على الأرض ، وكان أعلاها وأدناها ، وأذكاها وأغباها ، وأعقدها وأبسطها ، وأغمضها وأوضحها ، هذا الانسان الذي جاء إلى الحياة في آخر قائمة الأحياء .

هذا الإنسان العجيب هو غامض كل الغموض في خصائصه النفسية ، وخواطره القلبية ، وواضح كل الوضوح ، في شكله ومظهره ، وجمال هيئته ، وحسن منظره .

ومعقد كل التعقيد في تركيب أجهزته الداخلية ، ودقة بناء أعضائه الخارجية . وبسيط كل البساطة في طريقة حديثه ، وعرض آرائه ، وأسلوب حياته .

هذا المخلوق الممتاز ، تصدّر الأحياء فجلس على سُدَّة مملكتها ، وتربع على كرسّي عرشها ، وامتاز على الجميع بالعقل والفهم ، وارتفع عليهم بالمعرفة والعلم ، واعتز بمواهبه ، وافتخر بتفكيره وبعد نظره .

هذا الإنسان الذي عاش أول حياته فريداً وحيداً ، طريداً شريداً ، جائعاً عارياً ، تائهاً بين الأحراش والأدغال ، ملتجئاً الى أكواخ الغابات وكهوف الجبال ، يصطاد السمك ، ويقتات البقول والأعشاب ، يطارد الوحوش وتطارده ، ويصارع الأعداء وتصارعه ، ويغالب المهاجمين فيغلبها وتغلبه .

ثم بقي على هذا زمناً طويلا حتى اكتسب من عراكه مع الطبيعة والأحياء قوة ومراساً ، ومن مغالبته لها، ذكاءودهاء ، ومن معالجته إياها واحتياجه إليها عقلا وفكراً ، فتقدم في أسلوب حياته ، وشق طريقه إلى الأمام ، فبنى بيته ، وزرع أرضه ، وصنع طعامه ، وحاك ثيابه ، وكون أسرته ، وانضم الى جماعته وعشيرته ، فأسس دولة ، وأشاد ملكاً ،وأقام نظاماً، دَجَّن الحيوان ، واكتشف النار ، واستخدم البخار ، وأنار الظلام ، وصنع العجائب ، وأتى بالغرائب ، فأنطق الجماد ، وصنع الآلات ، واستنبط الاختراعات ، وشارك الطير في السماء ، ورافق الحيتان في أعماق الماء ، وسبق الخيل والغزلان في السير والجريان . ثم امتطى المراكب ، ودار في الفضاء كما تدور الكواكب.

وأخيراً اعتلى متن الخطر ، ثم حط رحاله على سطح القمر.

فعل الانسان كل هذا ، وبقيت المخلوقات الأخرى شريكته في الحياة هي هي - ربي كما خلقتني - بسيطة كل البساطة ، لا غموض فيها ولا تعقيد ، واضحة في شكلها ، ساذجة في فعلها ، بسيطة في وضعها وأسلوب حياتها.

فعصفور اليوم يبني عشه كما بناه أول عصفور وجد على الأرض ، ونحلة اليوم تبني خليتها كما بنته جدتها الأولى ، والعنكبوت ينسج بيته من خيوط لعابه بالأسلوب والشكل والوضع وللغاية نفسها ، كما فعل أول عنكبوت وجد على ظهر الأرض دون تغيير أو تحوير أو تطوير ! .

وأما الانسان فهو لغز الألغاز ، ومشكلة المشكلات ، حار الفلاسفة في معرفة حقيقته ، وبواعث تفكيره ، وتعذر على علماء النفس تحديد سلوكه ، وضبط تصرفاته ، وتعيين مقاييس أخلاقه ، فقد اجتمعت فيه جميع المتناقضات . أحياناً تراه عاقلا ذكياً ، وأحياناً أخرى تراه جاهلاً غبياً ، وتارة تراه ملكاً ربانياً لطيفاً ، وتارة أخرى تراه حيواناً شهوانياً مخيفاً .

قد يرافقك ويسير معك ، ثم يخالفك وينقلب عليك ، وقد يحبك ثم يكرهك، فهو يدور في دوّامة المتناقضات الفكرية والنفسية .

هذا الانسان البشري: أدهش علماء التشريح أيضاً ، في دقة بناء جسمه من ملايين الخلايا الدقيقة ، والأنسجة المعقدة ، والعدد الكبير من الأجهزة والأعضاء والأجزاء ، البديعة في صنعها ، العجيبة في تركيبها وقيامها بوظائفها ، فكلها ـ مع دقتها ولطافتها ـ تتعاون تعاوناً محكماً ، وتؤدي وظيفتها أداء مضبوطاً متقناً ، وتتضافر على بناء الحياة وتكوين الإنسان .

﴿ حقيقة الانسان ﴾

ما هو هذا الإنسان ؟ ما حقيقته وماهيته ؟ ما هو كنهه وما هو تركيبه ؟ فعند الماديين ؛ هو كتلة من اللحم والعظم والدم والأعصاب ، ومن الشعر والغضاريف ، تزن جميعها في المتوسط ٨٠ ك غ ولو حللنا تلك الكتلة كيمياوياً لوجدناها مؤلفة من حوالي ٢٣ عنصراً تقريباً على الترتيب الآتي :

٦٥ ٪ أوكسجين	٠,٣٥ ٪ بوتاسيوم
١٨ ٪ كربون	٠,٢٥ ٪ كبريت
١٠ ٪ هيدروجين	٠,١٥ ٪ صوديوم
٣ ٪ آزوت	٠,١٠ ٪ كلور
٢ ٪ كالسيوم	٠,٠٥ ٪ ماغنيزيوم
١ ٪ فوسفور	٠,٠٤ ٪ حديد

ثم قليل من الفلور واليود والسليكون والفضة والذهب.

ولو ذهبنا الى صيدلية لأمكننا ابتياع هذه المواد ببضع ليرات ورقية.

فهل هذه هي حقيقة الانسان؟ هذا الانسان الذي ملأ ذكره سمع الزمان ، وبلغ صيته كل مكان؟ .

يقول علماء الحيوان : إن بجسم الانسان مادة حية تسمى (كروموسومات) تسيطر على خلاياه ، يبلغ عددها (١٠ ١٤) خلية ، وأن حجم هذه المادة الحية جميعها ، لا يزيد عن ٤٨ سم٣ ، أي لا تكاد تملأ فنجان قهوة ، وهي التي

تتحكم وتسيرّ هذه الكتلة البشرية ، فهل ـ يا ترى ـ يكون سر الإنسان في تلك المادة؟

يقول الأطباء : إن الإنسان بعد وفاته تظل جميع خلاياه حية لمدة عدة ساعات ، بل وعدة أيام في بعض الناس ، ومعنى هذا أن المادة المذكورة لا دخل لها في حياة الإنسان أو موته ، وما هي إلا لبنة من اللبنات التي تقوم عليها حياة ذلك الإنسان .

إذن فما هي هذه الحياة في الإنسان ؟

فأهل الحق يقولون : ليس هناك سوى الروح ، تلك الروح التي هي من أمر الله ، والتي لم تدخل في نطاق المعامل والإختبارات ، ولا ضمن المعادلات أو القياسات . ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[1] .

هذا الإنسان الفذ ، تراه يحزن أو يجوع ، فيضعف نشاط جسمه ، ويخمد توقد فكره ، وتخبو بوارق ذهنه وذكائه ، ثم يأكل أو يزول حزنه فيستعيد هذا التوقد والنشاط.

فما هي العلاقة بين هذه النواحي المادية والعوارض النفسية ، وبين هذه المعاني الروحية السامية ؟ كيف ينشأ التفكير من الدماغ ، وكيف تصدر الإرادة عن النفس ؟ هل هي إفرازات كيماوية صادرة عن المادة كما يقول الماديون ؟ أم هي أنوار روحانية تنطاق من الروح كما يقول المتدينون ؟

هذا الإنسان الذي خرج من بطن أمه ضعيفاً عاجزاً جاهلاً بكل شيء ، وغير عالم بشيء ، من الذي جهزه بوسائل العلم والمعرفة ، وهيأه جسمياً ونفسياً وعقلياً ليتلقى جميع العلوم ، ويدرك جميع المعارف ، حتى قوى وارتقى ، ثم

---

(١) ص ٧١ ـ ٧٢

أصبح سيد مخلوقات الأرض على الإطلاق ؟

من الذي غرس فيه السمع والبصر، والشم والذوق ، وأودع فيه العقل والتفكير والإدراك فكانت هذه الحواس الظاهرة والملكات الباطنة منافذه على الكون ، يشرف من خلالها على الموجودات؟

فإذا كنا نعجب من تعقيد أجهزة الرَّائي[1] والرّاد[2] والهاتف[3] ، ويدهشنا سرعة التأثر في هذه الأجهزة عند استعمالها ، فنرى الصورة ونسمع الصوت والمكالمة في بضع ثوان تأتي من أماكن بعيدة جداً ، أفلا ندهش ونزداد دهشة وحيرة عند دراستنا لجهازنا العصبي ، الذي هو أشد تعقيداً ، وأبعد في العجب ، وأذهب بالدهشة الى حد الذهول من كل جهاز معقد؟ إن ملايين الأخبار الحسية والخطرات القلبية تجري على أسلاك هذا الجهاز العصبي من جانب الى جانب آخر ، لا تتوقف في ليل أو نهار ، ولا في نوم أو يقظة.

هذه الأخبار تؤثر في شدة النبض وضعفه ، وفي حركة القلب وتدفق دمه ، وفي حركات التنفس بل وفي جميع الإحساسات والشعور الجسمي والنفسي والقلبي ، ومركز هذا التأثر العصبي هو مخ الانسان الذي يوجد فيه نحواً من مليون خلية عصبية ، تنتشر فيها الأسلاك المسماة بالأنسجة العصبية الى سائر أطراف الجسم ، وفي هذه الأنسجة يجري نظام بديع للارسال والاستقبال لجميع الأخبار بسرعة سبعين ميلا في الساعة ، وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق المطعومات عن طريق الذوق ، ونسمع الأصوات عن طريق السمع ، ونبصر المرئيات عن طريق البصر، ونشم الروائح عن طريق الأنف ، وندرك بالعقل جميع المدركات ، فنقارن ونوازن بين ما نرى وما نسمع ، ثم نستنبط جميع العلوم والمعارف.

---

(١) التلفزيون

(٢) الراديو

(٣) التليفون

فمن الذي أوجد الإنسان مع ما فيه من وضوح وغموض وبساطة وتعقيد ، ومع كل هذه المتناقضات والمتوافقات ؟ من الذي أوجده وكيف وجد من العدم؟ .

من الذي أوجد الانسان من العدم؟

لو سئلت عن رجل تزوج حديثاً : هل يأتيه من هذا الزواج ولد أم لا يأتيه ؟ يكون جوابك ـ ولا شك ـ جائز أن يأتيه ولد، وجائز أن لا يأتيه ، ولا جواب لك غير ذلك . بمعنى أن وجود الولد بعد هذا الزواج وعدم وجوده ، هما في نظر العقل وحكمه أمران متساويان ، ليس أحدهما بأولى من الآخر ، فهما كميزان تساوت كفتاه ، فلو أن إحدى الكفتين رجحت على الأخرى مع تساويهما في الأصل ، ثم سئلت عن سبب هذا الرجحان : لكان جوابك : إما أنها رجحت بنفسها أو بمرجح خارجي فعل ذلك .

أما كونها رجحت بنفسها ، فهذا باطل ، لأن هذه الكفة تكون عندئذ أثقل من الأخرى ، مع أننا فرضنا تساويهما .

أو رجحت دون مرجح لها ، وهذا مستحيل وغير ممكن عقلا ، أيضاً إذن ، لم يبق إلا وجود مرجح خارجي فعل ذلك .

وكذلك الشأن في هذا الرجل الذي تزوج ، وحكمت عليه بانه جائز أن يأتيه ولد من هذا الزواج ، وجائز أن لا يأتيه ، فهذا الجواز في الطرفين متساويان ، فلو جاءه ولد في الواقع ، فمن الذي تعتقده رجح وجود هذا الولد على عدم وجوده؟ .

فالعقل لا يصدق بأنه أوجد نفسه ، لأن معنى هذا أن الولد كان موجوداً ليُوجد ، وغير موجود ليُوجَد ، فهو سابق على نفسه ومتأخر عنها بآن واحد ، ففيه جمع بين النقيضين ، وهذا مستحيل .

وكذلك لا يصدق العقل أن أبويه أوجداه ، لأنهما سبب في الوجود لا في الإيجاد وهو ظاهر.

مع أن العقل يرجح عدم الوجود ، لأن بقاءه في العدم أولى ، لأن فيه استمرار لشيء واقع وسابق على الوجود ، وهو بقاءه في العدم ، فترجيح وجوده الطارىء على عدمه الأصيل يحتاج قطعاً إلى مرجح أوجده وهو الله تعالى.

لا يمكن للمادة أو الطبيعة أن تكون هي التي أوجدت الكون والإنسان،قد يقول قائل : لم لا تكون المادة أو الطبيعة هي التي أوجدت الانسان ، وأوجدت الكون وما فيه من الموجودات؟

الجواب : إن المادة أو الطبيعة لا يمكن أن تكون هي التي أوجدت الإنسان أو غيره من الموجودات الأخرى ، لأن المادة أو الطبيعة هي ذاتها محكومة ومربوطة بسنن وقوانين ثابتة لا تنفك عنها ، تدل على علم باهر ، وسلطان قاهر ، وحكمة مدبرة ، وضعت هذه القوانين على أساس من التنظيم والتنسيق والإحكام ، وعلى أساس من الألفة والانسجام ، فالمادة أو الطبيعة مملوكة لهذه القوانين لا مالكة ، ومُسيرَّة لا مُسيرِّة ، ومقيَّدة لا مقيِّدة ، ومقودة لا قائدة ، فهي كالمصنع الآلي الذي صمم على وضع خاص ، والمقيد بعمل خاص، لينتج مصنوعات خاصة ، بواسطة تركيب أجهزة وآلات خاصة ، موضوعة على تنظيم خاص ، وإمرار قوة كهربائية في الأسلاك ، لتحرك آلات هذا المصنع ، فليست قطع الآلات ولا أجزاؤها ، ولا أجهزة المصنع هي التي أوجدت هذه المصنوعات ، وليست هذه القطع الآلية هي التي صَمَّمت وصَنعت نفسها بهذا الشكل وعلى هذا المقدار ، وركبت نفسها في أماكنها الخاصة من جهاز المصنع ، بل هناك مهندس عالم حكيم ، ومصمم ماهر خبير هو الذي صمم وصنع ، وركب وأدار المصنع ، ثم أشرف على إدارته وإنتاجه.

على أننا لو جارينا القائلين بهذا القول ، لوجب أن تنتج المادة أو الطبيعة صنفاً واحداً ، أو صنعة واحدة من جميع الوجوه ، ليس فيها اختلاف أو تعدد ،

لا في النوع ولا في الشكل ولا في الصفة ولا في المقدار ، لأن مطبوع الطبيعة واحد لا يتخلف ولا يتغير ، كالثلج لا ينتج إلا البرودة ، والنار لا تعطي إلا الحراة.

فوجود الاختلاف والتنويع في الموجودات ، دليل على وجود خالق واحد لها له صفات كاملة من الحياة والعلم والقدرة والإرادة.

فلو كانت الطبيعة هي المنتجة للموجودات ، لما وجد هذا التنويع والاختلاف ، مثل المصنع الذي صُمِّم لنوع واحد من النسيج . فلا ينتج إلا هذا النوع الذي صمم له فقط ، إلا إذا حوله المهندس أو غير في أجهزته ، والمصنع ، لا يتحول أو يتبدل بنفسه ، مع أننا نجد هذه الموجودات من إنسان وحيوان ونبات وجماد تخصصاً وتحديداً وتنويعاً واختلافاً في الأجناس والأنواع والأشكال والألوان والأحجام والصفات وغير ذلك.

فهل من المعقول أن تكون هذه المادة أو الطبيعة هي التي خصصت جزءاً منها قطعة خشب واخرى منها سبيكة فضة أو ذهب ،أو حديداً أو نحاسا أو غير ذلك ؟ وهل هي التي خصصت هذا إنسان أو ذاك حيوان وذلك نبات ، أو هي التي جعلت الإنسان بهذا الشكل وبهذا الحجم وبهذه الأعضاء والأجزاء ، وهي التي وضعت كل عضو في موضعه دون غيره ، فالعين بهذا الشكل ، وفي هذا المكان ، والأذن كذلك ، وكذا باقي أعضاء الإنسان ؟ أو هي التي منحت كل عضو هذه الوظيفة الخاصة به دون غيرها ، فالعين للرؤية دون غيرها والأذن للسمع دون غيره ، وكذا باقي أجزاء الجسم من حواس وغيرها أو هي التي قسمت الإنسان والحيوان إلى ذكر وأنثى ، ثم إلى عاقل وغير عاقل وذكي وبليد ، وإلى أبيض وأسود وإلى غير ذلك مما يحتاج إلى حياة وعلم وقدرة وحكمة وخبرة وإرادة واختيار ، ليوجد هذا التخصص وهذا الإحكام، وهذا الإبداع والاختراع والانسجام ، والمادة والطبيعة فاقدة لجميع ذلك؟

فهذا لا يمكن أن يدور بخلد عاقل ، أو يقول به من يحترم نفسه كإنسان ، فلم يبق إلا أن فاعلاً مختاراً ، وعالما حكيماً أبدع الكون وأوجد الإنسان من

العدم ، وهو الله تعالى . قال تعالى ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنـات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[1] .

العدم والوجود ومعنى الإيجاد من العدم

صعب على كثير من الفلاسفة والعلماء الطبيعيين أن يفهموا معنى إيجـاد الموجود من العدم فقالوا : نحن لا نفهم من كلمة العدم إلا عدم الوجود ، والعدم ضد الوجود ، والعقل لا يتصور أن يكون العدم أساس الوجود ، أو أن يوجد الشيء من لا شيء .

هذه خلاصة اعتراضهم ، وصورة إشكالهم ، وسبب إنكارهم ، ولكنهم لو دققوا النظر لوجدوا الأمر غير ما تصوروه.

ونحن ندع الجدل والنقاش الفارغ جانباً ، ونأتي الى حل الإشكال من أقرب طرقه فنقول : إن المعلوم الذي له صورة في الذهن ولم يكن له وجود في الخارج هو في حكم العقل من حيث ظهوره إلى الواقع ، وبقاؤه في بطن العدم أمران متساويان ، ليس أحدهما بأولى من الآخر ، فإذا ترجح أحدهما على الآخر كالوجود على العدم مثلا ، وأصبح حقيقة واقعة ، فهذا الترجيح يتضمن معنيين .

الأول) أن لهذا الموجود مُوجداً رجح وجوده على عدمه ، وقد تقدم الدليل على ذلك.

المعنى الثاني : أن هذا الموجود وُجد بعد سبق العدم عليه ، أي أن العدم أول ، والوجود طارىء عليه ، وهذا لا ينكره عاقل.

فالعقل إذن يعترف بأن هذا الشيء الموجود سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً وجد بكامله بعد عدم ، وهذا أمر لا يشك فيه إلا مكابر أو معاند ،

(١) الرعد ٤ .

فنحن وهم مقتنعون إذن على أن الموجود وجد بعد عدم ، بقي علينا أن نفهمهم كيف وجد هذا الموجود بحقيقته ومادته من العدم ، ولنا في ذلك جوابان ، حسي وعقلي .

الجواب الأول : لننظر إلى وجود الأشياء من العدم عن طريق الحس والمشاهدة ، وهو أسلوب العلماء الطبيعيين في الإستدلال ، فلو أنك مررت على قطعة أرض قاحلة جرداء ، ليس فيها زرع ولا شجر ، ثم مررت عليها بعد بضع سنين مثلا فوجدتها حية وارفة الظلال ، ذات زرع ونبات ، وأشجار وثمار ، أليست هذه الزروع والنباتات الخضراء ، وهذه الأشجار المتشابكة الفروع والأغصان ذات الثمار اليانعة ، والمناظر الممتعة وجدت بعد عدم ؟ فأين كانت قبل هذه السنوات ؟ ألم تكن معدومة الوجود لم تقع عليها عين ؟

ثم لننظر الى الإنسان نفسه ، ألم يكن قبل ولادته في جوف العدم ، غير معروف لأحد ولا مذكور عند أحد ؟ حتى ولو قال قائل ! إن لذلك أصلا تولد منه ، وهي البزور للشجر ، والنطفة للإنسان ، ولكن أليست هذه العظام وهذا اللحم ، وهذه العروق والأعصاب والشعر والدم الذي يجري في جسمه زائداً على النطفة ؟ فأين كان قبل ذلك ؟ وقل مثل ذلك في الشجرة وغيرها ، فإذا كان أكبر جزء من الإنسان ، وهي جملته الزائدة على النطفة بل على الحونية التي لا ترى إلا بالمجهر وجد بعد عدم ، فهذا الجزء البسيط يقاس عليه أيضاً ، لأن الحكم على المتماثلات واحد ، مع أن الآيات تشير الى الإنسان الأول ، والانسان الأول لم يتولد من نطفة ، حتى إن العلماء أنفسهم يقرون بهذا ، لأنهم يعتقدون أن الأرض كانت كتلة نار متوقدة عند انفصالها عن الشمس ، فلم تكن هنالك نطفة أو بزرة ، ولا أي عنصر من عناصر الحياة ، فمن أين جاءت لو لم تكن من العدم؟ ثم أليست هذه الأصوات التي تصدر عنك ، وهذه الحركات التي تتحركها والنار التي أوقدتها ، والسخونة في الماء الذي أحدثته وغيره وغيره وجد كل ذلك بعد عدم ، فهي آثار لفاعلها ، فأين كانت قبل وجودها؟ فالوجود بعد العدم ثابت ملموس ومشاهد محسوس .

الجواب الثاني : ما دام أن هناك أمرين متساويين وهما الوجود والعدم كما سبق ، إلا أن العدم له زمان ، والوجود له زمان ، فزمان العدم يمتد من الأزل الى ابتداء زمن الوجود،فعند ابتداء زمن الوجود تتعلق القدرة الإلهية التنجيزية[1] بالايجاد طبقاً لعلم الله القديم ، وموافقاً لتخصيص الإرادة بكل الصفات المقدرة على هذا الموجود.

وبهذا الجواب ينتفي الإعتراض القائل : كيف يكون الوجود من العدم؟ أو كيف يكون العدم أساساً للوجود ؟ فالعدم لم يكن أساساً للوجود ، بل هو : امتداد زمن انتهى أجله ، وبدأ ابتداء زمن آخر هو زمن الوجود.

على أن هذا الإعتراض وأمثاله ، ناشيء من الجهل بكمال قدرة الله تعالى ، وعدم إدراك عمومها وشمولها المعبر عنه بقوله تعالى ﴿ وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[2]

وكيفية الإيجاد من العدم هو سر الخلق الإلهي ، والله تعالى يقول : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾[3] فإذ لم يستطع العقل أن يدرك سر الخلق والإيجاد الإلهي من العدم ، فهو معذور ، لأن عقل الانسان مهما كان سامياً فهو محدود ، ولا يحيط إدراكه بكل شيء ، فالروح التي تمد العقل بالكشف والإطلاع لم يستطع هذا العقل أن يعرف حقيقة الروح ، بل العقل نفسه لم يتوصل الى معرفة نفسه ، ويكفيه أنه توصل الى الجزم واليقين بخروج الموجودات وظهورها من عماء العدم.

على أن الإيمان بالله تعالى وبكمال قدرته القادرة يكفي لإزالة هذه الشبهة ، وانقشاع هذه الشكوك والأوهام عن العقل ، فيسلم بعد إقامة الأدلة والبراهين على كمال قدرته تعالى وإحاطتها وشمولها ، كما جاء في الحديث الصحيح ، من أن النبي ﴿ﷺ﴾ لما أخبر أنه أسرى به في ليلة واحدة من مكة الى بيت المقدس ،

(١) يوجد لبعض الصفات الإلهية تعلقان ، صلوحي قديم وتنجيزي حدث .
(٢) يس ٨٢ .
(٣) الكهف ٥١ .

فارتد بعض من آمن به ، ولم تتسع عقولهم إلى مثل هذا ، ثم جاء أبو بكر رضي الله عنه وقال له المشركون : ماذا تقول في صاحبك وقد كذب هذه الكذبة التي لا يسعها عقل ؟

فقال لهم أبو بكر : وماذا قال ؟ فأخبروه بأنه زعم أنه أسرى به ليلاً من مكة إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في تلك الليلة.

فقال لهم أبو بكر : لقد صدق إن أخبر في ذلك.

فقالوا له : أو تصدقه ؟ فقال لهم : إني أصدقه في أبعد من ذلك أصدقه في خبر السماء .

يريد أنه قد صدقه في اتصاله بربه بواسطة الوحي الذي ينزل عليه من السماء ، ومتى صدقه في ذلك ، فيجب عليه أن يصدقه بكل ما يخبر به ، وإن كان يعلو على عقله وفهمه ، وذلك لأنه آمن بأنه رسول من عند إله قادر لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ولنستمع الى آيات القرآن التي تشير إلى قصة الاحياء من العدم.

قال تعالى ﴿ أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه ولم يكن شيئاً﴾[1] .

وقال تعالى ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾[2]

وقال تعالى ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم اليه ترجعون﴾[3] .

* * *

(١) مريم ٦٧
(٢) الانسان ١
(٣) البقرة ٢٩

قصة خلق الانسان

الانسان الأول ، خلقه الله من العدم ـ كما سبق ـ بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، لا في الأرض ولا في السماء ، وأما ذريته فقد خلقوا من النطف التي تنتقل من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، وبعد هذا الانتقال تحدث قصة الخلق ، وإليك هذه القصة العجيبة.

لما خلق الله في الأرض النباتات المختلفة ، والأشجار الكثيفة المثمرة ، والحيوانات الكثيرة المنوعة ، أصبحت الأرض كالبيت المُعَدّ والمُهيَّأ لساكن جديد من نوع متفوق ، يمتاز بالعقل والعلم والتفكير ، ويتصف بالقدرة والإرادة والتدبير ، ويتميز بالفهم والادراك ، يعمرها بمعرفته ، ويصلحها بخبرته ، ويحسن مناطقها بجهده وعمله ، ويسود أحياءها بعقله وذكائه ، ويستعين بهذه المخلوقات على مشقة الحياة ، ويسخرها لمصلحته ومنفعته ، فينتفع بالنباتات من أشجارها وثمارها وظلالها ووقودها وزروعها وأزهارها.

وينتفع من الحيوانات بلحومها وشحومها وجلودها وأصوافها وأوبارها ، وأشعارها وريشها ، ويتخذ منها زينة وجمالا ، وأثاثاً ورياشاً ، تحمله دوابها الى أماكن بعيدة ، وتنقله حيواناتها إلى بلاد أخرى ، ومناطق نائية ، وتقطع به المسافات وتجتاز به المهامة والمفازات ، كل ذلك سُخِّر له ليقوم بواجب كُلِّف به ، ويحقق غاية خلق من أجلها ، وهي عبادة الله وحده، وشكره على نعمه ، فخلقه الله وجعله خليفته في الأرض ليقوم بمهمة إعمارها وازدهارها ، من بناء المدن والمساكن ، وشق الترع والأنهار ، وجر المياه وحفر الآبار ، وزرع الأرض ،

وغرس الأشجار ، وتدجين الحيوان ، وتسخير الموجودات والقيام بعبادة الله تعالى الذي خلقه ، والعمل على طاعته وعبادته . ولكن الانسان ضعيف البنية ، قليل الحيلة ، عديم الخبرة ، عاجز عن التدبير ، يحتاج إلى مواهب فطرية ، وملكات فكرية ، تكون له سلاحاً يستعين بها ، لتحفظه من الأخطار ، وتدفع عنه الشرور والأضرار ، فخلق فيه العقل ، ليميز بين الخير والشر ، والنافع والضار ، وليمتاز على المخلوقات بقوة التفكير ، وحسن التدبير ، وركز فيه الغرائز الأصيلة ، التي هي درعه الواقي ، ووسيلته لحفظ ذاته ، وبقاء وجوده .

فكان من هذه الغرائز الحافظة لنوعه ، والمسببة لكثرة نسله ، غريزة الجنس عند الرجل والمرأة ، والتي لولاها لانقرض الانسان وامحّي نوعه ، ولم يبق له وجود على الأرض ، فحفاظاً على بقاء نوعه ، ودوام وجوده ، ركبت فيه الشهوة العارمة ، التي تدفع بالذكر والأنثى إلى الإتصال الجنسي ، فيكون من وراء ذلك التوالد والإنسال ، ومن خلال هذا الإتصال الجنسي تحدث قصة الخلق بكل فصولها .

وسنتحدث عن الحكم التي رافقت هذه القصة المثيرة بالتفصيل ، لنصل إلى اليقين القاطع بوجود خالق عظيم ، ومبدع حكيم ، وإله رءوف رحيم ، خلق الإنسان وأبدع تكوينه ، وأحسن تصويره .

ونحن لا نأتي بهذه الأدلة على أسلوب علماء المنطق ، من ذكر المقدمات المسلمة للوصول إلى النتائج المجهولة التي لم تكن مسلمة ، بل دمجنا الدليل بالمدلول وقصدنا الاستدلال من طريق الحكم الرائعة الموجودة بجزئيات الخلق على وجود الخالق ، وهذا الأسلوب في الاستدلال لا يحتاج إلا الى بيان الحكمة من خلق هذه الجزئيات وتكوينها على ما هي عليه ، للوصول إلى الاعتقاد بالموجد الحكيم الأعظم .

من المعلوم أنه يوجد في الانسان أعضاء كثيرة ، يقوم كل عضو منها بوظيفةالتي اختُصَّ بها ، والتي تحقق فائدة الإنسان ومصلحته في حفظ حياته .

فالعين وظيفتها رؤية الأشياء بأشكالها وأحجامها وألوانها.
والأذن وظيفتها سماع الأصوات وتمييز الكلام.
واليد ، للأخذ والعطاء ، والدفاع عن الذات ، والرجل للمشي والسعي ، وهكذا بقية الأعضاء .

حكمة الجهاز التناسلي عند الرجل والمرأة

ومن هذه الأعضاء التي تؤدى أكبر مهمة خطيرة في الحياة ، الجهاز التناسلي عند الرجل والمرأة ، أما عند الرجل ، فأداته هو العضو المختص بذلك ، وهو القضيب الذي يتألف من ثلاث عضلات إسفنجية ، إحداها تكتنف مجرى البول من الأسفل وتحيط به ، والاثنتان تغطيان ظهره على مسافة طوله ، وتنتشر عليهما أعصاب حساسة ، لمسها يثير فيه الشهوة ، وتتكون الاستثارة من الحواس الخارجية ، من اللمس أو النظر أو التفكير أيضاً ، وهذه الشهوة تدفع بالدم إلى هذه المناطق ، فينتصب القضيب ويتسع حجمه ، ويأخذ شكلاً متوتراً ، مما يساعد على تقليص الحويصل المنوي الموجود في الخصية ، ثم يقذف بالسائل المنوي إلى خارج الجسم ، والمهم في هذا كله أن نتبين الحكمة من هذا التركيب ، واتخاذ هذا الوضع بالذات.

أولا : فحكمة وجود العضلات الإسفنجية المتعصبة بالأعصاب الحساسة والمثيرة للشهوة ، هي إمكان انتصابه عند هيجان الشهوة لتفريغ مادة الخلق والتكوين ، وإمكان استرخائه بعد قضائها وفتورها .

فلو كان القضيب مؤلفاً من مادة لحمية رخوة غير عضلية وغير متعصبة بالأعصاب الشديدة والمثيرة للشهوة ، لما أمكن انتصابه وتوتره ووصول النطفة الى مكان التخلق من الرحم .

ولو كان القضيب من العظم لأضر بالمرأة ضرراً بالغاً ، ثم أضر بالرجل

أيضاً في قيامه وقعوده ونومه ، ولأحرجه في دوام انتصابه وإنعاظه ،

ثانياً : لولا وجود هذه الشهوة المحببة عند الإنسان ، والتي تدفعه إلى الإتصال الجنسي ، لأعرض كل الاعراض عن ذلك ، وانشغل بأمور أخرى ، فينقطع النسل تماماً ـ فحكمة هذه الشهوة التي تستدرج الذكر والأنثى للاتصال الجنسي ، ليعقبه العمل فالنسل تشبه حكمة الجوع والعطش عند خواء المعدة والبطن من الطعام والشراب ، ولذة الانسان عند تناوله طعامه وشرابه ، ليتغذى الجسم ويقوي على فعل الواجبات الحياتية والقيام بالتكاليف الشرعية ، فلو لم يشعر الإنسان بالجوع والعطش ، أو لم يلتذ بالطعام والشراب ، لاستغنى عنهما ، وأعرض عن تناولهما ، فخوى بطنه ، ونحل جسمه وذوى عوده ، حتى يهلك ، فسبحان الحكيم في خلقه المحكم في صنعه .

ثالثاً : لو كان هذا العضو في غير هذا المكان من الجسم ، لما أمكن ستره وإخفاؤه ، ولكان منظره مما يثير الاشمئزاز والتقزز ، لذا كانت الحكمة وضعه في أستر مكان من الجسم ، ليغيب بين لحم الفخذين ، فيخفى عن الظهور ، وكان هذا خاصاً بالانسان لشرفه وكرامته .

رابعاً : إن السائل المنوي لزج في رطوبته ، صمغي جاف في يبوسته ، مما يؤدي إلى انسداد المجرى التناسلي مع طول الزمن ، بل ويصبح بؤرة للجراثيم والأمراض ، مما يسبب الالتهابات في المجرى الداخلي ، ويؤدي الى الضرر البالغ بالجهاز التناسلي نفسه ، لذا كان اشتراك مجرى البول مع المجرى التناسلي في طريق واحدة وهو الاحليل ، له حكمة ظاهرة لغسل المجرى من البقايا اللزجة ، وإيجاد الرطوبة الدائمة فيه ، ـ وذلك كالحكمة في وجود حاسة الشم ، وهو الأنف فوق الفم مباشرة ليشم الآكل اللقمة قبل قذفها في جوفه وازدرادها ، حتى إذا كانت عفنة وفاسدة ـ ويعرفها من رائحتها ـ ألقاها ولم يأكلها ، ولو كانت حاسة الشم في مكان آخر لأكل الإنسان أطعمة فاسدة وسامة أودت بحياته .

خامساً : وجود صمام بين مجرى البول والمجرى التناسلي عند التقائهما في

الداخل وهو نتوء لحمي عضلي ، ينتفخ عند ثوران الشهوة وانتصاب العضو ، فيسد مجرى البول ، ـ وحكمة وجود هذا الصمام تشبه من وجوه كثيرة وجود اللهاة في أقصى الحلق عند التقاء مجرى التنفس مع مجرى البلعوم ، فعندما يبلعُ الانسان اللقمة تسد اللهاة مجرى التنفس ، حتى لا يدخل إليه شيء من الطعام فيتضرر الآكل .

فهل ترى من هذا كله عملا فوضوياً لا أثر للقصد فيه ، أم هو من عمل حكيم عليم ، وتصميم خبير قدير ؟

ولننظر الى النطفة الملقحة التي تخلّق منها الإنسان .

فآدم الأول الذي هو أبو البشر ، تكون من طين مُصَوَّر ، وروح نفخها الله فيه ، فسرت هذه الروح في ذاك الطين المصور ، فمع بُعد الصلة بين الطين والانسان ، استحال هذا الطين الى بشر سَوِيّ ، فكان الإنسان الأب . قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ (١) .

وأما ذريته التي نسلت منه ، فقد تكونت من ماء مهين ، انطلق جزء منه من خصية الرجل ، وهو يحمل الحونية، وانطلق الجزء الآخر من مبيض المرأة ، وهو يحمل البويضة ، ثم امتزجا معاً واجتمعا في رحم المرأة ، فكونا النطفة الملقحة ، ثم استحالا في قرار الرحم إلى علقة من دم ، ثم تحولا فيه إلى مضغة من لحم ، ثم تخلقت المضغة خلقاً آخر ، فكان الانسان الابن .

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ (٢) وقال

---

(١) ص ٧١

(٢) المؤمنون ١٢ - ١٤

تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾[1] وإليك توافق العلم مع الآية الكريم من أن أصل الانسان من تراب.

فالنطفة المخلقة تولدت من الدم بواسطة الخصيتين في الرجل ، والمبيضين في المرأة ، والدم يتولد من الكيموس ـ وهو سيال أبيض حليبي يتولد من عصير الأطعمة المهضومة ـ والكيلوس يتولد من الكيموس ـ وهو حالة من حالات تطور الأغذية في المعدة ـ والكيموس يتولد من الأغذية نباتية كانت أم حيوانية ، والحيوانية تنتهي في الواقع إلى النباتية ، لأن الحيوان إنما يتغذى بالنبات ، وما يتغذى منه باللحوم إنما يرجع في الواقع الى النبات أيضاً ، والنبات يتولد من صفوة الأرض والماء وهي السلالة الطينية التي عبر عنها القرآن الكريم في الآية السابقة ، وهذه السلالة الطينية بعد أن تواردت عليها أطوار الخلق وأدوار الفطرة ، وتعاقبت عليها الصور بمقتضى تطورها وانتقالها من حالة إلى حالة أخرى ، وتعاقب الصور والأشكال المختلفة عليها ، تحولت إلى نطفة ، وهكذا تتكرر عملية النطفة التي هي أصل الخلق ، فهي تنشأ من الدم كما سبق بواسطة الخصيتين ، والدم يتولد بالوسائط السابقة من التراب .

ولننظر أيضاً إلى السر العجيب الذي يكمن في هذين المصنعين ، مصنع الحوينة في الرجل الذي هو الخصية ، ومصنع البويضة في المرأة . الذي هو المبيض، واللذين يكوِّنان النطفة الملقحة التي يتكوَّن منها الإنسان.

إن أهم المراكز المصدِّرة للسائل المنوي في الذكر والأنثى هو النخاع الشوكي والقوى الدماغية المنتشرة في الجسم ، وبالأخص في الصدر ، والقوى القلبية والكبدية ، وكلها تتعاون على توليد المادة الخام ، وهو الماء الذي يتولد منه

---

(١) الحج ٥

الإنسان ، وقد كان هذا سراً غير معروف لأحد ، حتى جاء النصف الثاني من هذا القرن ، فاطلع العلماء بوسائلهم الخاصة على هذه الحقيقة ، وهي أن عظام الظهر الفقارية يتكون منها ماء الرجل وعظام الصدر العليا ، يتكون منها ماء المرأة ، وقد أيد هذا الأكتشاف ما جاء في قوله ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب [1] ﴾ .

ثم إن هذا السائل المنوي في الرجل ، يسير من هذه المنابع في مجاريه الخاصة الى الخصيتين ، ويوجد في كل خصية أنابيب كثيرة حلزونية ملتوية تقرب من ألف أنبوب ، يبلغ طول الأنبوبة الواحدة المتر تقريباً ، ثم تشكل شبكة من الأنابيب تسمى شبكة « هيللر » ويلتقي بعضها مع بعض ، وتصب جميعها في مكان ملتف ومتعرج ، يبلغ طوله ستة أمتار ، يقال له « البربخ » ثم تسبح هذه النطف ذات الأذناب الطويلة والمتولدة في هذا المصنع والقادمة موادّها من المنابع السابقة ، وتنتقل صاعدة في قناة أخرى ، ثم تصب في خزّان معد لهذه الملايين ، ويسمى بالحويصل المنوي الموجود في الصفن الذي يتدلى بين الرجلين ، وهو ما يعرف بالخصيتين ، حيث تنتظر التلقيح عندما ينفجر بركان الشهوة الجنسية بالدفق المنوي ، وهذه الملايين من النطف والتي يبلغ في الدفقة الواحدة من ١٥٠ مليون الى ٢٥٠ مليون حوين تقريباً ، تسبح كلها في ماء النطفة الزلالي بواسطة أذناب طويلة تتحرك بسرعة ، ولها رؤوس مدببة تشبه الإجاصة ، وهي مصفحة بغلاف يقيها جدار المهبل والرحم وغيرها ، وفي هذه الرؤوس يكمن السر الأعظم الذي يمثل كل ما يتعلق بالإنسان من صفات وأشكال وألوان وتكوين وهيكل عظمي وعضلات وضيق حوض وغلظ أكتاف وأشعار وأبشار وعيون وأهداب ووجه وأنف وكل خواص الذكورة والأنوثة وما إلى ذلك ، التي تتجمع فيه عن طريق الوراثة من قبل الأب ، وبتلقيحها بالبويضة تنتقل جميع صفات الوراثة المماثلة من قبل الأم .

---

(١) الطارق ٥ ـ ٧

وأما البويضة في المرأة فهي تنشأ وتتكون في المبيضين الموجودين على جانبي الحوض ، وهما متصلان بالرحم عن طريق قناة تسمى « بوق الرحم » والمبيض جهاز أو مصنع للبويضات التي تأتي خاماتها من السائل المنوي كما سبق في الرجل ، من النخاع الشوكي وعظام الصدر والقوى الدماغية والقلبية والكبدية ، فتأتي هذه المواد الأولية وتتركز في المبيضين اللذين يتوليان عملية إعداد البويضة ، لتكون جاهزة عند الطلب ، وكل مبيض يشبه البيضة الصغيرة في شكلها وحجمها ، وفي كل مبيض يوجد ما يقارب من ٤٠٠ ألف جريب ، ـ والجريب كيس صغير يشبه الجراب فيه خلايا صغيرة تحيط بالبويضة الأصلية التي تحمل جميع صفات الأم ـ ولا ينطلق من المبيض سوى ٤٠٠ جريب وسطياً خلال حياة المرأة ، وهو يعادل بيضة واحدة في كل شهر قمري ، ويبقى انطلاق هذه البويضات بنسبة بيضة كل شهر في مدة ٤٥ سنة الى ٥٠ سنة تقريباً ثم يتوقف المبيض عن صنع هذه البويضات وتبلغ المرأة حينذاك السن المسمى بسن الإياس ، أي اليأس من الحيض والحمل والولادة .

بينما تجد جهاز الخصيتين في الرجل يصنع في الدفقة الواحدة ما يقرب من ٢٥٠ مليون حوين ، ويبقى هذا المصنع مستمراً في عمله لا يتوقف مدة حياة الإنسان مهما طالت .

وعندما تنطلق البويضة من مكمنها في جراب المبيض ، بعد نضجها واكتمال نموها فيه ، وهي حاملة ٤٦ صَبَغِيّاً[1] وراثياً من قبل الأم ، تمر في بوق الرحم ، ثم تنقسم إلى قسمين قسم يشكل نواة مع ٢٣ صبغياً وراثياً من قبل الأم ، ثم تندلق الهرمونات الموجودة في الجريب الذي انطلقت منه البيضة في فسحة البطن ، ممهدة الطريق لمرور البيضة المكتملة ، ومثيرة لداعي الجنس عند المرأة تستحثها على الالتقاء الجنسي ، مما يجعل المرأة تتحبب إلى الرجل ، وتثير فيه بدورها دواعي الالتقاء الجنسي حتى لا تضيع هذه البيضة سدى دون فائدة ، فإذا

---

(١) هي التي تكمن فيها الصفات الوراثية من قبل الأب والأم

صدف أن كان هناك استجابة من الرجل وحدث الالتقاء الجنسي ، فينقذف عند المقارنة من السائل المنوي ما يحتوي على ما يقارب من ٢٥٠ مليون حيينة ، يستطيع كل منها أن يكون جنيناً ، إذا أتيحت له فرصة الالتقاء ببييضة حية ناضجة ، يدخل فيها فيلقحها ، ويغدو معها حجيرة كاملة تامَّةُ التكوين .

ولكن الذي يحدث ، هو أن المرأة لا تبيض إلا بييضة واحدة في الشهر على الأغلب كما تقدم ، فأي حيوان منوي قدر له أن يسبق هذه الملايين إلى البييضة يكون هو صاحب الحظ السعيد بالظفر بهذا الصيد الثمين ، ويكون هذا الحيوان المنوي قد انقسم قبل الالتقاء إلى شطرين ، كما حدث في البييضة ، ينفلق جدار البييضة ويدخل الحيوان المنوي فيه مؤلفاً معها خلية واحدة ، وهي المسماة بالنطفة الملقحة ، وتندمج الصبغيات مع بعض ، فتتجمع وتؤلف ٤٦ صبغياً وراثياً من قبل الأب ومن قبل الأم معاً ، وأما باقي الملايين من الحيينات ، فهي تضرب برؤوسها جدار الرحم وغيره لتخرج فلا تستطيع اختراقه فتموت .

ولنلاحظ الحكمة الإلهية على اختصار المرأة بإنجاب بييضة واحدة في الشهر فقط ، فلو كان للمرأة من البييضات بعدد حوينات الرجل ، لملأت بضع نسوة الدنيا من الذرية ، ولو أنجبت بييضة واحدة عند كل التقاء جنسي لضاقت الدنيا بالبشر على سعتها ، ولكن جلت حكمة الإله في هذا التوازن والاعتدال ، بين الطاقات البشرية في الغذاء والانتاج ، وبين الإخصاب الإنساني ، وسبحان القائل : ﴿ وكل شيء خلقناه بقدر ﴾[١] والقائل ﴿ ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾[٢]

يقول السيد قطب عليه رحمة الله : في ظلال القرآن ، في تفسير قوله تعالى ﴿ إنْ كل نفس لَّما عليها حافظ. فلينظر الانسان مم خلق ● خلق من ماء دافق ● يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[٣] وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد

---

(١) القمر ٤٩ (٢) الفرقان ٢ (٣) الطارق ٤ - ٧

الشديد . . ما من نفس إلا عليها حافظ ، يراقبها ويحصى عليها ، ويحفظ عنها . . ثم يقول ، فلينظر الإنسان من أي شيء خلق ، وإلى أي شيء صار . . إنه خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل ، وهو عظام ظهره الفقارية ، ومن ترائب المرأة ، وهي عظام صدرها العلوية ، ولقد كان هذا سراً مكنوناً في علم الله ، لا يعلمه البشر حتى كان نصف القرن الأخير ، حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ، وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة حيث يلتقيان في قرار مكين ، فينشأ منه الإنسان . والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير . . بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، وبين الانسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ، هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق ، توحي بأن هنالك يداً خارج ذات الإنسان ، هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة ، إلى طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهي إلى هذه النهاية الماثلة ، وتشي بأن هنالك حافظاً من أمر الله ، يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ، ومن الإرادة والقدرة ، في رحلتها الطويلة العجيبة . وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته .

هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد ترى بالمجهر ، إذ أن هناك ملايين منها في الدفعة الواحدة ـ هذه الخلية التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة . . تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم عملية بحث عن الغذاء ، حيث تزودها اليد الحافظة بخاصية أكّالة تحوّل جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة انقسام مستمر تنشأ عنها خلايا . . وتعرف هذه الخلية الساذجة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة . . تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد . . حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التي تعرف بها الطريق ، إنها مكلفة أن

تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ، لبناء ركن من أركان هذه العمار الهائلة . . عمارة الجسم الإنساني فهذه المجموعة تنطلق لتنشيء الجهاز العضلي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشيء الجهاز العصبي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشيء الجهاز اللمفاوي . . إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية . . ! ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة . . إن هناك تخصصاً أدق ، فكل عظم من العظام ، وكل عضلة من العضلات ، وكل عصب من الأعصاب لا يشبه الآخر ، لأن العمارة دقيقة الصنع عجيبة التكوين متنوعة الوظائف . . ومن ثم تتعلم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة أن تتفرق طوائف متخصصة تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصص لها من العمارة الكبيرة . إن كل خلية صغيرة تنطلق وهي تعرف طريقها ، تعرف أين هي ذاهبة ، وماذا هو مطلوب منها ، ولا تخطيء واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة ، فالخلايا المكلفة أن تصنع العين ، تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه ، ولا يجوز أبداً أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع ، مع أن كل موضع من هذه المواضع يمكن أن تنمو فيه عين ، ولو أخذت الخلية المكلفة يصنع العين ، وزرعت في أي من هذه المواضع لصنعت عيناً هنالك ، ولكنها هي بذاتها حين تنطلق لا تذهب إلا إلى المكان المخصص للعين في هذا الجهاز الانساني المعقد . . فمن ترى قال لها ؟ إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه ؟ إنه الله ، إنه الحافظ الأعلى الذي يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها في المتاهة التي لا هادى فيها إلا الله .

وكل تلك الخلايا فرادى ومجتمعة تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها هي وحدات الوراثة الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد ، فخلية العين وهي تنقسم وتتكاثر لكي تكون العين تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين وخصائص محدودة تجعلها عين إنسان لا عين حيوان آخر . وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة . . وأقل انحراف في تصميم هذه العين من ناحية الشكل ، أو ناحية الخصائص يحيد بها

عن الخط المرسوم ، فمن الذي أودعها هذه القدرة ؟ وعلمها ذلك التعليم ؟ وهي الخلية الساذجة التي لا عقل لها ولا إدراك ولا إرادة ولا قوة؟ إنه الله ، علمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه ، لو وكل إليه تصميم عين أو جزء من عين بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة تقوم بهذا العمل العظيم!

وراء هذه اللمحة الخاطفة عن صورة الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق حشود لا تحصى من العجائب والغرائب ، وفي خصائص الأجهزة والأعضاء لا نملك تقصيها في هذه الظلال . . تشهد كلها بالتقدير والتدبير . وتشي باليد الحافظة الهادية المعينة . وتؤكد الحقيقة الأولى التي أقسم عليها بالسماء والطارق ، كما مهد للحقيقة الثانية ، حقيقة النشأة الآخرة التي لا يصدقها المشركون المخاطبون أول مرة بهذه السورة » .

يقصد قوله تعالى (إنه على رجعه لقادر) . فرحم الله سيد قطب الذي أغنانا عن التعليق ، بما فصله وأوضحه من تحقيق ، وصدق الله إذ يقول ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ● ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ● ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1]

(١) المؤمنون ١٢ ـ ١٤ .

الحكم الإلهية في أعضاء الحواس وتركيبها

﴿ السمع ﴾

إن حاسة السمع من أعجب الأمور وأغربها ، فهي معقدة في بنائها وتركيبها ، وفي كيفية وصول الأصوات إليها ، وفي نقل الكلام وفهمه ، وتمييزه عن بعضه .

فأول ما يقع عليه النظر ، هذا الصيوان الغضروفي المنتصب على جانبي الرأس ، والذي ينقل الصوت عبر كهف كثير التعاريج والالتواءات لجمع الأصوات من تموجات الهواء واهتزازاتها التي تنشأ من منطلق الصوت إلى أذن السامع ، حيث يقرع في وسط الأذن غشاء مرنا كأنه طبلة مشدودة إلى إطار ، توصل الصوت كما جاء دون تحوير فيه أو تغيير .

وفي الأذن الوسطى توجد عظام ثلاثة حساسة مختلفة التركيب والأشكال تتفق مع وظيفتها في نقل الأصوات ، متجاوبة مع طبلة الأذن في اهتزازاتها لتنقلها إلى الأذن الباطنة .

والصوت يمثل حركة اهتزازية ، تنبعث من وقع الصوت للهواء وتموجاته في الفضاء ، شدة وضعفاً ، قلة وكثرة .

والأذن تستطيع أن تميز الأصوات المختلفة ، لأن كل صوت له ذبذبات اهتزازية تختلف عن ذبذبات صوت آخر ، ولكل إنسان تعاريج حلزونية خاصة في حنجرته ، ويكون تموج الهواء اهتزازات ضمن لحن خاص به ، ولوجود

الاختلاف في الشدة والضعف بين الأصوات وكون الحنجرة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة ، والخشونة والملابسة ، وصلابة الجوهر ورخاوته ، وفي طول مجرى التنفس وقصره ، لذلك اختلفت الأصوات عند الناس ، فلم يتشابه صوتان أبداً ، بل لا بد من وجود فرق بين كل صوتين ، يميز السامع به بعض الناس عن بعض ، بمجرد الصوت ، وقد يكون ذلك عند العميان أكثر دقة ووضوحاً ، لاعتماد الأعمى على سمعه في التمييز .

لذا نجد الأذن قادرة على أن تميز صوتي رجلين أو امرأتين أو طفلين أو رجل وامرأة ، أو رجل وطفل ونحوذ لك .

وأن الأذن بتركيبها المحكم ، وجهازها المتقن الذي يوجد فيه عشرة آلاف خلية سمعية قادرة على التقاط كافة الأصوات والتمييز بينها ، حتى بين حفيف الأشجار ، وخرير المياه وتغريد الأطيار .

يوجد في الأذن الداخلية أنفاقاً ودهاليز وتعاريج حلزونية وسراديب وطوابق علوية وسفلية ، وسوائل بلغمية ، ورمال وأهداب صغيرة منتشرة كالحشائش والأعشاب ، وأشياء كثيرة غامضة ومعقدة ، وهي للإنسان كالمعجزة ، تتعاون كلها على إيصال الأصوات والتمييز بينها ونقلها ونقل الكلام كما هو بكل أمانة إلى الخلايا العصبية وإلى الفَصْ الصُّدْغي ، الذي يتمركز فيه كافة أنواع الأصوات ، وله أقسام وكل قسم مختص بنوع خاص من الأصوات ، وفيها القدرة على التمييز الصوتي والصوت الهادىء ، وبين الشعر والنثر ، وبين الكلام الإيقاعي ، وبين كل نوع ونوع آخر ، تمييزاً دقيقاً عجيباً؟! . .

ألا ترى القصد والتصميم والحكمة المبدعة في الخلق والتكوين في هذا الجهاز البديع في دقته وإتقانه ؟ أليست هذه القدرة الفائقة التي صنعته صنعة قادر عليم ، ومريد حكيم ؟

لننظر إلى الحكمة في هذا الصيوان الغضروفي المنتصب على جانبي

الجمجمة ، ذو التعاريج الظاهرة والمدورة مع التقدير لجمع الصوت ، فلو كان تركيبه غير غضروفي[1] بأن كان لحماً خالصاً ، فماذا يحدث له ؟ لا شك بأنه يسترخي ويتهدل ، ويسد مجرى السمع ، ثم يكون منظره مثيراً للضحك ، وليس فيه جمال ولا كمال .

ولو كان من العظم الخالص ، لتأذى الانسان منه عند نومه على أي جنب من جنبيه .

وهذا النتوء اللحمي الموجود على صيوان الأذن ، وعند فوهة المدخل هما في الأذنين حارسان يحرسان المدخل من دخول الحشرات والغبار .

وكذلك هذه التعاريج والشعر والافرازات الصملاخية اللزجة المرة ، فهي أيضاً لحماية مجرى السمع من دخول الهوام والعوارض الضارة .

فهل كان هذا كله رمية من غير رام ، وصنعة من غير صانع ، أم هي حكمة حكيم ، وصنعة متقن عليم ؟

يروي لنا « وتياكر تشبميرز »[2] في كتابه « الدليل » حادثة بسيطة لعلها كانت السبب في تحويل مجرى حياته ، بل حياة كثير من البشر ، لقد كان يتطلع إلى ابنته الصغيرة . ثم التفت دون شعور إلى شكل أذنيها ، وذكر بينه وبين نفسه ، بأنه من المحال أن تكون تلك التلافيف الدقيقة التي تعمل عليها الأذن قد نشأت من طريق المصادفة ، انها لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن خبرة بالغة وتصميم وتدبير » .

ولو كانت الأذن موضوعة في البطن أو في الظهر أو الفخذ أو في أعلى الرأس ، أو في أي مكان آخر ، أو كان له أذن واحدة ، فكيف يمكن التحدث معه ، وكيف يصل الصوت إليه ؟

---

(١) الغضروف وسط بين اللحم والعظم

(٢) في كتاب الله يتجلى في عصر العلم ، من مقال الدكتور توماس باركر .

أليس في تركيب الأذنين في هذين الموضعين من الرأس حكمة جليلة تدل على القصد والاختيار ؟

ولما كان السمع نافذة من نوافذ الانسان على العالم الخارجي التي يطل من خلالها على المدركات السمعية ليزداد علماً وخبرة وإطلاعاً ،نجدالقرآن الكريم يكثر من الامتنان بنعمة السمع والبصرعلى الإنسان في آيات كثيرة قال تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله﴾[1]

ولكن﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾[2]

ولكن﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾[3]

---

(١) الانعام ٣٦
(٢) النحل ٨٠
(٣) الأنفال ٩٣

﴿ البصر ﴾

وهذا البصر الذي هو نافذة أخرى للإنسان على الوجود الخارجي ، فنطل به على العالم ، ونرى الأشياء كما هي في الواقع بأشكالها وأحجامها وألوانها وندرك به المعلومات ، ونستنبط به المعقولات بالمقارنة ، ونفعل ما نراه نافعاً ونترك ما نراه ضاراً ، ونعتبر بالأحداث والحوادث التي نشاهدها ، ولولا نعمة البصر لعاش الإنسان حياته في ظلام دامس ،لا يرى نفسه وغيره ولا يراه غيره،ولا يعرف الأسود من الأبيض ، ولا الأحمر من الأصفر ، ولا يشعر بالمتعة التي يشعر بها البصير ، وقد قيل : إذا أردت أن تعرف نعمة الله عليك ، فأغمض عينيك .

كرة صغيرة كحبة العنب ، مركبة من سبعة أخلاط منها الكثيف ومنها الشفاف ومنها الجامد ومنها المائع ولكل منها وظائف دقيقة تؤديها دون خطأ أو تقصير ، فمنها ما يختص برؤية اللون الأبيض ، ومنها ما يأذن بدخول النور إلى العين ، ومنها ما يمد العين بالغذاء والرُّوَاء ومنها يكسر الشعاع عند قدومه ، ومنها ما يحمل عناصر الأحساس بالنور ، ومنها ما يُكَوِّن المركز العام للرؤية في الدماغ .

هذه العين ، بهذه الأخلاط ، وبهذه الوظائف ، وبهذه الخلايا الضوئية التي يوجد منها في كل عين مائة وثلاثون مليون خلية ضوئية ، يرى الانسان من خلالها السماء والأرض والنجوم والكواكب والضياء والظلام والجبال والبحار والأنهار والسهول والحيوانات والنباتات ، بل يرى من خلالها ملكوت السموات والأرض ، أليس هذا بالأمر العجيب ؟!

والرؤية في العين من الكشف والظهور والوضوح للأشياء معجزة من معجزات الخلق في التركيب والتكوين ، والوظيفة والمكان التي وضعت فيه ، وما أحاط بها من أجفان وأشعار ورموش وحواجب .

والعين أداة الرؤية ، والرؤية تتوقف على ضوء يسقط على الأجسام فينعكس شعاعه على العين ، ثم يخترق سلسلة أوساط شفافة كاسرة للنور وجامعة له ، حتى يقع على منطقة حساسة هي الشبكية في مؤخرة العين ، التي توجد فيها عناصر الاحساس ، ثم تنقله إلى القَصّ القفوي الذي يعتبر المركز الرئيسي للرؤية في الدماغ .

« إن عدسات العين تلقي صورة على الشبكية ، فتنظم العضلات لهذه العدسات بطريقة آلية إلى بؤرة محكمة ، وتتكوّن شبكية العين من تسع طبقات منفصلة ، هي في مجموعها ليست أسمك من ورقة رقيقة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات ، ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط ، وقد نظمت هذه كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات .

ولكن العجيب أنها تدير ظهورها للعدسات ، وتنظر نحو الداخل لا نحو الخارج ، وإذا استطعت أن تنظر في خلال العدسات ، فإنك ترى عدوك مقلوب الوضع ، والجانب الأيمن منه هو الأيسر ، وهذا أمر يربك الناظر إذا حاول أن يدافع عن نفسه ، ولذا فإن القدرة الخارقة أجرت ذلك التصميم قبل أن تقدر العين على الرؤية ، ورتبت إعادة تنظيم كاملة عن طريق ملايين خويطات الأعصاب المؤدية الى المخ ، ثم رفعت مدى إدراكنا الحسي من الحرارة إلى الضوء ، ولذا جعلت العين حساسة بالنسبة إلى الضوء »[1] .

ولما كانت العين مركبة من سوائل ومواد بالغة الغاية في الليونة والطراوة

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان .

والنداوة ، وكان أقل شيء يصيبها يؤذيها ويضرها ، لذا جعلت العناية الإلهية الحكيمة أجهزة خارجية وداخلية ، تحفظها من الضرر ، وتحجب عنها كل خطر من الخارج ، وتحميها من الأذى ، وتدفع عنها كل قذى من الداخل .

وهذه الحوافظ الخارجية ، فضلا عن حمايتها من العوارض المضرة ، فهي بحد ذاتها جميلة المنظر ، بديعة المظهر ، تزين العين ، وتجمل الوجه ، ألا ترى إلى هذه الأهداب كيف وجدت في الأشفار على قدر ليست بزائدة فتضر العين ، ولا ناقصة فتضر بها أيضاً .

وكذا الأمر في الحواجب ، فهي ليست بالزائدة المشوهة للوجه ، ولا بالناقصة التي لا تدفع الضرر عن العين .

ولننظر إلى لطف العناية حيث وضعت العين في مكان منخفض من الوجه ، يشبه مدخل الكهف ، يحيط بها من جهاتها مرتفعات ونتوءات تحفظها من العوارض المضرة ، فمن الأعلى يوجد بروز العظم الجبهي ، يعلوه نتوء الحاجب ، ومن الأسفل يوجد ارتفاع الوجنتين ، ومن الجانب يوجد منحدر الأنف القائم ، فضلا عن وجود أشعار الحواجب والأهداب والرموش ، ووجود الأشعار والأجفان سريعة الفتح والإغلاق ، فتكون العين بهذه الحواجز المرتفعة وهذه الأجهزة والموانع قد حفظتها من كل عارض خارجي يضرها ، كاللكمات والضربات الموجهة للوجه ، وكأشعة الشمس المضرة ، والعرق النازل من الجبهة ، والغبار والرياح والجراثيم والأجسام الغريبة المؤذية ، وما إلى ذلك .

ولاستقرار العين وقدرتها على التحرك السريع لكل الجهات ، وضعت في مكان منقعر يحيط بها فرش ووسائد شحمية لينة .

وأما من جهة داخلها ، فقد جهزت بالغدد التي تفرز سائلاً مالحاً ليطهر العين بملوحته ، وليحفظها من الفساد ، ويرطبها ويدفع عنها ما يعلق بها من أجسام غريبة مضرة .

أليست في هذا التركيب الجميل ، والترتيب العجيب ، والتجهيز الكامل والتعزيز النفيس ، ما يرغم العقل على الخضوع والاعتراف بهذه القدرة القادرة ، والاعتراف بحكمة صانعها ومدبرها ؟ ولكن ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾[1] .

(١) الحج ٤٦ .

﴿ الشم ﴾

ثم لننظر بإمعان وتفكير إلى نعمة الشم في الإنسان وإلى حكمتها وفائدتها . فحاسة الشم نافذة أخرى للنفس على العالم الخارجي من نوع آخر غير السمع والبصر ، فهي تستقبل الروائح المنبعثة من الأجسام عن طريق الهواء المستنشق ، كما تستقبل العين الألوان والأشكال والأجسام عن طريق الضوء والرؤية .

وحاسة الشم في بعض الحيوانات هي أقوى منها في الإنسان ، لأن المولى سبحانه وتعالى جعلها سبباً في معرفة طعامها وشرابها وغذائها .

إن بعض الموجودات تفرز منها مواد ذات رائحة طيبة أو كريهة ، تنشرها في الهواء ، فتدخل إلى الأنف ، فتحللها الأهداب الشمية المنتشرة في القسم العلوي من الأنف ، وتنقلها هذه الأهداب إلى الألياف العصبية الموجودة تحت تلك الخلايا ، وهذه الخلايا تنقلها بدورها إلى البصلة الشمية الموجودة في المخ ، فتتركز هناك ثم تنتقل إلى مناطق أخرى فيه .

فالأشياء التي تجاور الإنسان أو يمر بها أو يتناولها لحاجته ، قد تكون نافعة ، وقد تكون ضارة ، وبصورة خاصة ما يتناوله من طعام أو شراب ، فلو لم يكن لها رائحة تنبه الإنسان إلى فسادها وضررها ، لأكل الأطعمة الفاسدة التي تحوي السموم أو الجراثيم فتودي بحياته أو سبباً في هلاكه ، وكان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه ، لذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن تجعل فيها مواد دقيقة تفرزها

وتنشرها في الهواء ، فتتحلل في الأنف إلى روائح تنبه الانسان إلى ما هو طيب مفيد من الأطعمة والأشربة ، وإلى ما هو فاسد ومضر منها .

ويوجد بين الشم والذوق ارتباط كالارتباط الموجود بين السمع والبصر ، ومن هنا كان لطف الخالق بخلقه أن جعل حاسة الشم تجاور وتعلو فتحة الفم والبلع ، حتى إذا كانت اللقمة أو الشربة التي يتناولها فاسدة وضارة ، انبعثت منها إلى الأنف قبل إدخالها إلى الفم رائحة كريهة تنذر الانسان وتنبهه إلى ضررها وخطرها على صحته وحياته فيلقيها قبل أن يقذفها في فمه ويتخلص منها ولا يتناولها .

فلو كان الأنف في مكان آخر ، فكيف يتسنى له أن يعرف الطعام اللذيذ النافع من الطعام المضر الفاسد ؟

فضلا عن أن الإنسان يتمتع بالمناظر الجميلة ، وتبتهج نفسه بالأشكال الظريفة ، والألوان اللطيفة ، فإذا جلس في مكان ممتع بهيج ، يسمع فيه حفيف الأشجار ، وخرير المياه ، وتغريد الأطيار وما إلى ذلك ، يتناول طعامه وشرابه فيه ، فعند ذلك تشترك جميع الحواس باللذة والمتعة ، فالعين بالمناظر الجميلة ، من أشكال وألوان بديعة ، والسمع بالأصوات والأنغام الشذية ، والذوق بالأطعمة والمأكولات الشهية ، والشم بالروائح العطرة الندية ، والنكهة العذبة الطيبة ، التي تغريه بكثرة الأكل ، ليبني جسمه بالأغذية المتنوعة .

والأنف هو واسطة الشم ، وقد خلقه الله وسط الوجه ، على أكمل هيئة وأتم شكل ، وفتح فيه منخرين ، وبث فيهما أعصاب الشم الحساسة لتنقل عن طريق استنشاق الهواء أنواع الروائح المنتشرة ، وزرع فيه أشعاراً لتسخين الهواء البارد الذي يدخل الأنف ، ولتطهير مجرى التنفس من الغبار والجراثيم حيث تعلق فيها ولا تأذن لها بالدخول .

وكما أن العين تبصر عدداً من الألوان ، والسمع يدرك عدداً من الأصوات

والألحان ، فإن الشم يدرك عدداً من الروائح المختلفة ، ويستطيع الإنسان أن يميز بواسطة حاسة الشم بين أنواع الفواكه والثمار والعطور والأزهار والأطعمة المختلفة والتوابل والسمن والعسل والزيت ، وغير ذلك من الموجودات الكثيرة التي تنشر روائح متعددة ومختلفة .

وللروائح خواص عجيبة ، وتأثيرات غريبة على النفس ، فمنها ما يثير شهية الطعام ، ومنها ما يحرك غريزة الجنس ، ومنها ما يقوم بتأثيرات روحية ، ومنها ما يقبض النفس ، ومنها ما يبسطها ويشرح الصدر ، والدليل على ذلك ما يحصل من التهوع والقيء لبعض الأشخاص عند شم بعض الروائح الكريهة ، وكثيراً ما يؤثر الشم في أعضاء التناسل والأعصاب ، لأننا نرى بعض الروائح الطيبة ، ينشأ عنها الفرح والسرور والنشاط للجماع .

وبعضها ينشأ عنه الحزن ، وبعضها ينشأ عنه النوم ، وبعضها ينشأ عنه اليقظة ، أو الصداع .

فرائحة الأفيون والبنج والبيلسان والجوز المقيء ، فهي تسبب النوم إن كانت ضعيفة قصيرة المدة ، وتسبب الصداع إن كانت قوية طويلة المدة . ورائحة المسك تسبب لبعض الناس الصداع الشديد ، وقد يحدث لهم منها رعاف ، ورائحة الكافور تضعف قوة أعضاء التناسل ورائحة الأزهار الجيدة الرائحة كالورد والياسمين والبنفسج والريحان تسبب عوارض خطيرة إذا كانت في مكان مقفل ـ لا سيما في الليل ـ وهناك روائح قاتلة كرائحة الزرنيخ القوية . الى غير ذلك من التأثيرات النفسية ، مما يدل على وجود الحكمة والقصد من الخلق ، وعلى وجود الإله العليم القدير ، والحكيم الخبير .

﴿ حاسة الذوق ﴾

ثم ألا ترى إلى هذه الحاسة العجيبة في تركيبها وبنائها ، العظيمة في نفعها وفائدتها ؟ وهي حاسة الذوق التي تلح على الإنسان في كثير من الأحيان أن يتناول من الطعام لا لجوع فيه ، ولكن ليتمتع بطعمه اللذيذ . حقاً ، إن شهوتي البطن والفرج ركزتا في الإنسان كطعم يغريه بالطعام وبالإتصال الجنسي .

فشهوة البطن تغريه بلذة الأكل ليكون سبباً في غذاء جسمه ، وبقاء حياته .

وشهوة الفرج تغريه بالتمتع بالمباشرة الجنسية مع المرأة لينجب الرجل والمرأة فيكثر النسل في الأرض .

وحاسة الذوق توجد منتشرة على سطح اللسان وفي جانبيه ، وفي باطن الفم على شكل براعم ذوقية دقيقة ، تُكوِّن ما يشبه الكهوف الصغيرة ، وفي داخل كل برعم توجد الخلايا التي تنقل أنواع المطعومات الى الأعصاب المنتشرة في قاعدة هذه الكهوف ، وبواسطتها يميز الإنسان بين كل طعام وطعام آخر ، وبين كل فاكهة وفاكهة أخرى من حلو وحامض ومر ومالح ، وما بين هذه الطعوم من الأنواع التي لا تحصى ، حتى ولو بلغ تأثير الطَّعْم دقيقاً وقليلاً جداً جداً ، فهو يحس ويشعر بطعمه ولو جزءاً من مائة ألف جزء .

وتتوزع البراعم الذوقية على الحليمات اللسانية ، وتبلغ هذه البراعم حوالي ٩٠٠ برعم ذوقي تقريباً ، وبواسطتها يجد الإنسان لكل مطعوم طعماً ، يغاير

طعم مطعوم آخر ، ولقد تعددت المطعومات إلى الآلاف .

وفضلا عن وظيفة اللسان الذوقية ، فله وظائف أخرى ، منها المضغ ، ففيه غدد تفرز اللعاب لتطرية الطعام ، وهو يعجنه بتحريكه اللقمة ذات اليمين وذات الشمال .

ومنها البلع فبعد تفتيت اللقمة بالأسنان والأضراس ، وتمضع باللعاب ، وتصبح صالحة للبلع ، فهو يقذفها إلى داخل الفم .

ومنها الهضم ، لأن من الأطعمة ما تهضمه المعدة والأمعاء بإفراز عصارات هاضمة ، ومنها ما لا يُهضم إلا بإفرازات اللسان ، لتحويل النشا إلى سكر ، فالمعدة لا تهضم النشويات وتحولها إلى سكر ، بل إن عصارات المعدة تعيق هضمه وتبطل تحوله ، لذلك كانت إفرازات اللسان اللعابية هي التي تهضم المواد النشوية وتحولها إلى مادة سكرية كما ذكرنا .

لأن للسكر أنواع (بسيطة) و(مركبة) والأمعاء لا تمتص من هذه الأنواع إلا البسيطة فقط ، وهذه لا تحتاج إلى تفكيك بعملية الهضم ، بل تمتصها الأمعاء بعد وصولها إليها مباشرة ، ولوصلها إلى الدم .

والأنواع البسيطة هذه ، هي سكر العنب ، ثم سكر الفواكه .

أما الأنواع المركبة وهي مركبة من نوعين معاً ، ويسمى السكر المثنى المحتوي على نوعين ، مثل سكر القصب المكون من سكر العنب وسكر الفواكه أيضاً وسكر الحليب وكذلك سكر الشعير .

وهناك أنواع من السكر المركبة العديدة مثل النشا النباتي والنشا الحيواني الذي يخزنه الجسم في الكبد والعضلات ويحوله إلى سكر العنب .

وهذه الأنواع المركبة لا بد قبل امتصاصها من هضمها وتفكيكها وتحويلها إلى أنواع بسيطة يمكن امتصاصها ، وهذا التحول يبدأ في الفم بالمضغ وفعل

اللعاب ، وتتم عملية التحول إلى أنواع السكر البسيطة في الأمعاء بتأثير خمائر تفرزها غدة البانكرياس والأمعاء أيضاً »[1]

ومنها الحس واللمس ، وذلك لدقة الإحساس في حلماته ، فعندما يلمس الأطعمة يشعر بحرارتها أو برودتها أو كونها لاذعة أو جارحة أو غير ذلك .

واللسان هو أداة النطق والتكلم بين البشر ، فاللسان مع الشفتين هما اللذان يقطعان الأصوات الخارجة من داخل اللهاة إلى حروف صحيحة ولولا اللسان لكان الانسان كالحيوان الأعجم ، له أصوات ممدودة كالمواء والعواء غير مفهومة القصد .

فليس للحيوانات حنجرة كثيرة التحرك مثل حنجرة الانسان ، فوجود الارادة في الانسان ، ووجود مرونة الحنجرة فيه ، ووجود اللسان والشفتين ، فبهذا كله يستطيع الإنسان النطق والكلام بأصوات مختلفة من كلام وقراءة وغناء وغير ذلك .

أليس في هذا كله ما يقنع الشاك على وجود إله خالق مصور وحكيم مدبر ؟ .

يلي وصدق الله إذ يقول ﴿ ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ﴾[2]

* * *

(١) داء السكري للدكتور أمين رويحة .

(٢) البلد ٨ ـ ١٠

﴿ حاسة اللمس ﴾

تتكون حاسة اللمس على سطح الجلد ولا سيما على سطح اليد ، فبواسطتها يمكننا الحكم على حرارة الأجسام أو برودتها ، وعلى نعومتها أو خشونتها ، وعلى ليونتها أو يبوستها ، وعلى شكلها وقوامها ، وعلى حركتها وسكونها إلى غير ذلك .

وهذه الحاسة في الانسان ، أتم منها في غيره من الحيوانات ، وفي النساء أكثر منها في الرجال ، وفي سن الشباب أكثر منها في سن الشيخوخة ، وفي البلاد الحارة أكثر منها في البلاد الباردة ، وبها يتنبه الفكر ، ويتأثر العقل وتتهيج الناحية الجنسية .

وسبب حاسة اللمس ، أنه يوجد في أجسامنا شبكة من الأنسجة الحسية منتشرة على امتداد جلدنا ، فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً بارداً فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الحسية التي تلتقط الأشياء الباردة تحس بها ، وعندئذ يتأثر المخ ببرودتها ، ويرتعد الجسم من هذه البرودة وتتسع الشرايين الجلدية ، فيتدفق فيها الدم لتزود الجسم بالحرارة ، وإذا أحست هذه الخلايا بالحرارة الشديدة ، فإن الأنسجة والخلايا ترسلها إلى الدماغ ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية تلقائياً عرقاً بارداً خارج الجسم .

ونحن نتساءل : من ركب هذه الأجهزة الدقيقة ونظمها هذا التنظيم ؟ من وضع فيها هذه الخواص وأودع فيها هذه الأسرار ؟

وصدق الله العظيم إذ يقول﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دليـــل البحـوث

١ ـ العالم غير المحسوس ـ الملائكة ـ الجن ـ الشياطين .

٢ ـ الأدلة على وجود عوالم غير محسوسة . ١١٥
٣ ـ الملائكة . ١٢١
٤ ـ الجن والشياطين . ١٢٧
٥ ـ هل الملائكة وإبليس والجن والشياطين من جنس واحد ؟ ١٣١

٦ ـ القول الأول : إن الملائكة وإبليس والجن والشياطين من جنس
واحد ولكنهم يختلفون في النوع . ١٣١
٧ ـ قول الفقهاء أن إبليس من جن الملائكة . ١٣٣
٨ ـ القول الثاني : ان الملائكة جنس وإبليس والشياطين والجن جنس آخر ١٣٣
٩ ـ خلاصة القول في هذه الآراء . ١٣٤
١٠ ـ رأي الجاحظ . ١٣٦
١١ ـ رأي الشيخ محمد عبده . ١٣٦

الأدلة على وجود عوالم غير محسوسة
الملائكة ـ الجن ـ الشياطين

من الثابت علمياً أن حواس الإنسان قاصرة فلا تدرك جميع الموجودات ، لأن هذه الموجودات ، منها ما يدق عن الحسن فلا يدرك إلا بواسطة ، ومنها ما يدق عن الواسطة ، فلا تدرك إلا آثاره ، وهي التي تدل على وجوده ، وثبوت هذا قطعي فلا يحتاج إلى استدلال ، فالمواد التي تتصل بحواسنا نشاهدها ونشعر بها ، ولا ينكرها إلا من فقد حواسه أو بعض حواسه ، فالأعمى لا يدرك الألوان ، فهو لا يراها ولا يحس بها بأي حاسة أخرى ، فإذا أنكر وجودها فهو معذور ، ولكنه يحس بالموجودات الملموسة ، أو المشمومة أو المسموعة أو غيرها مما يدرك ببعض الحواس ، والأصم وفاقد الحواس الأخرى ، قد يدرك أشياء ويعترف بأشياء أخرى التي تقع تحت إحدى حواسه ، وأما الأشياء الموجودة والتي تقصر عن إدراكها جميع حواس الإنسان ، فلا بد له من واسطة لإدراكها ، فالجراثيم التي تفتك بالأجسام ، لا ترى بالعين المجردة ، ولا تحُس بأي حاسة أخرى ، ولكنها ترى بواسطة المجهر ، ولكن هناك موجودات أخرى لا تدرك بأي حاسة من الحواس ولا بأي واسطة من الوسائط ، ولكن نشاهد آثارها فنستدل على وجودها من تلك الآثار ، قال الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

فلو أن قطعتين من الحديد متشابهتان من كل وجه ، إحداهما مشحونة بالمغناطيس ، والأخرى خالية منه ، فالإنسان لا يفرق بينهما بأي حاسة من حواسه ، ولكن يعرف خاصة المغناطيس في إحداها بجذبها دقائق الحديد ، وكذا وجود سلكين من النحاس ممتدان في مكان أحدهما مشحون بالكهرباء والآخر فارغ منه ، فلا يعرف المشحون بالكهرباء إلا بواسطة آثاره من إيقاد النور ، أو تأثيره في الجسم ، أو غير ذلك .

ونحن نشاهد على شاشة الرائي [1] صوراً ومناظر وأحداثاً وحوادث ، ونسمع من جهاز المذياع أصواتاً وأحاديث وغناء وخطب ومناقشات علمية ، ومحاورات تمثيلية وغير ذلك ، ولكن من أين تأتي ، وعن أي مكان تصدر ؟ فهل نقول كما تقول الأطفال ، يوجد في كلا الجهازين من يتكلم أو يحدث هذه الأفعال ؟ أم نقول كما يقول العقلاء الكبار : إن هناك في مكان ما أشخاصاً قاموا بكل ذلك ، ونقلت إلينا كل ذلك موجات الأثير عن طريق هذه الأجهزة ، وحولته إلى ما رأيناه وسمعناه ؟ ونحن لم نرَ الأثير ولا الهواء ، ولسنا نرى إلا الفراغ ، فهل الأثير والهواء غير موجودين لأننا لم نرهما ؟ هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فنحن ننظر من خلال الفراغ أو الفضاء فلا نرى شيئاً ولا نسمع شيئاً مما رأيناه أو سمعناه عن طريق الجهازين ، فهل عدم رؤيتنا لهذه الأشياء ، وعدم سماعنا لتلك الأصوات دليل على عدم وجودها ؟! أم هي موجودة ولكن حواسنا قاصرة ومحددة فلم تستطع إدراكها ؟ فلو تسنى لنا حواس أدق وأعمق من حواسنا المركبة فينا ، بحيث تبلغ دقتها هذه الأجهزة ، مثلاً ، أفلا نستطيع رؤية الكثير من الأشخاص والألوان والأشكال والأحجام المحتجبة عنا ، ونسمع الكثير من الأصوات والأحاديث وغير ذلك ؟ يقول العلماء : إن نسبة ما نراه ، كنسبة جزء إلى عشرة ملايين جزء مما لا نراه ، فالأشعة الكونية ، وأشعة جما ، وأشعة الخلايات الحية ، وأشعة إكس ، والأشعة فوق

---

(١) التلفيزيون .

البنفسجية ، كلها لا ترى إلا بالواسطة ، ثم يأتي بعد هذه الأشعة غير المرئية ، أشعة الضوء ، أو ـ الطيف المنظور ـ فهذا الذي يرى بالبصر المجرد فقط ، ويمكن الحصول عليه باستخدام منشور زجاجي إذا اسقطت عليه حزمة بيضاء من الضوء في حجرة مظلمة ، يشاهد الضوء الأبيض وقد انحل الى سبعة ألوان متلاصقة على الترتيب الآتي :

الأحمر ، فالبرتقالي ، فالأصفر ، فالأخضر ، فالأزرق ، فالنيلي ، فالبنفسجي ، ثم يأتي بعد هذه الأشعة المرئية أشعة أخرى غير مرئية أيضاً . وهي الأشعة تحت الحمراء ، ثم أشعة اللاسلكي التي يمثلها الموجات الثلاث ، القصيرة والمتوسطة والطويلة ، ثم الأشعة بعد النفسجية ، وكل هذه أيضاً لا ترى بالعين المجردة ، ولكن أجسامنا نشعر بهاعلى هيئة حرارة ، أو تشعر بها بعض الأجهزة كالترمومتر ، وهذا يدلنا على أن حواسنا قاصرة لا تتعدى نطاق الطيف المنظور الذي ذكرناه ، وأما ما فوقه وما تحته من الأشعة فلا ندركه .

وكما أن الطيف المنظور يوجد فيه عوالم المحسوسات من جماد ونبات وحيوان يوجد كذلك في تلك الأشعة غير المدركة عوالم كثيرة لا تحصى ، فهي أكثر بكثير مما تدركه حواسنا ، وهو العالم غير المحسوس .

يقول الاستاذ عبد الرزاق نوفل في كتابه « عالم الجن والملائكة » « إن من أهم ما اكتشفه العلم وتوصل إليه العلماء في ميادين البحوث العلمية التي تختص بالذرة وطاقاتها ومكوناتها وجود عالم غير مرئي ، تشير إليه الأجهزة العلمية ، وتؤكده القياسات المعملية ، ولكن لا يعرف العلم عنه شيئاً إلا بعض اليسير الذي يزيده غموضاً ، ويزيد من جهل الناس به . إذ كل ما وصل إليه العلم عنه ، إن هذا العالم تسكنه مخلوقات غير مرئية ، تتكون من المادة غير المادة التي نعرفها ، والتي يتكون منها عالمنا المرئي ، وأن هذه المادة التي تتكون منها سكان العالم غير المرئي علاوة على طبيعتها الخاصة التي تجعلها غير مرئية لنا ، فإنها ذات حرارة رهيبة لم يمكن بعد معرفة درجتها ، وانه أمكن في ظروف معينة التأكد من

إشعاعات وأضواء تعتبر أحد صور الطاقة الحرارية المنبعثة من أجسام هذه المخلوقات » .

ولو تسنى لنا ـ كما ذكرنا ـ حواس كالأجهزة العلمية أو أدق منها لرأينا عالماً كبيراً وكثير الاتساع ، ولكن من لطف الإله بنا ، ومن الخير لنا ، أن نجهل هذا العالم الذي وراء الحس ، لأننا لو سمعنا أو رأينا ما وراء الحس ، لاختلطت علينا الأمور ، وفقدنا الاستقرار ، ولرأينا العجب العجاب ، من أشكال وأشخاص مفزعة ورهيبة ، ولظهر لنا عوالم كثيرة في موجات ضوئية ، غير ما اعتدنا عليه ، ولفزعنا غاية الفزع ، ولتغيرت حياتنا وأمورنا وغبنا عن الصواب ، بل لربما فقدنا الحياة كما قال تعالى رداً على المشركين الذين طلبوا أن ينزل على محمد ملك من السماء ليشهد له بصدق رسالته فقال : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[1] والمعنى : وقال المشركون : هلا أنزل على محمد ملك من السماء يشهد بصدق رسالته ؟ فرد الله عليهم بقوله : ولو أنزلنا على محمد ملكاً من الملائكة وشاهدوه على حقيقته لصعقوا وماتوا قبل أن يبلغهم رسالته ويؤمنوا به ، لأن طاقتهم البشرية لا تتحمل رؤية الملك على حقيقته ، ولو أنزلناه ملكاً كما يطلبون لجعلناه في صورة رجل ليتمكنوا من رؤيته ، وعندئذ يلتبس عليهم الأمر ويختلط فلا يصدقون أنه ملك ، فيقولون إنه رجل مثلنا وليس بملك فيبقون على كفرهم .

لذا كانت الحكمة الإلهية الحكيمة قد اقتضت هذا الشكل من الحياة ، وعلى هذا الترتيب والنظام من العيش « لو اطلعتم على الغيب لا اخترتم الواقع » ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[2] .

والقرآن الكريم قد أشار إلى العوالم غير المنظورة بقوله : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾[3] .

---

(١) للأنعام ٨ ـ ٩ (٢) الاسراء ٨٥ (٣) الحاقة ٣٨ ـ ٣٩

والاعتقاد بوجود عوالم غير منظورة أو غير محسوسة أمر مسلم به عند كل الأمم قديمها وحديثها ، فلا مجال لإنكاره مطلقاً .

فنحن نرى في أحلامنا أطيافاً كثيرة من إنسان وحيوان ونبات وجماد وأمكنة وحوادث وأحداث تقع ونتأثر بها جسمياً وفكرياً ، مع أننا لم نرها في حياتنا ، أو نسمع بها أبداً ، وفي صحونا نرى في بعض الأحيان خيالات تمر علينا سريعاً وخاصة في حالة الخوف الشديد أو المرض الشديد ، حيث تستشف الروح ، ويخف عنها ركام المادة ، وقد نسمع طرقاً أو دوياً أو اهتزازات ، ولا نعرف مصدر ذلك ، ونفتش عن فاعله فلا نجد أحداً يفعله ، وقد يمر خاطر في صدورنا فتضيق له أو تنشرح له ، وقد نرى فيما بعد من الوقائع ما يؤيد هذه الخواطر التي مرت في بالنا سريعاً ، وأنها كانت تحمل إلينا إنذاراً أو بشارة ، وفي بعض الأحيان إذا دخلنا مكاناً نجد قشعريرة تسري في عروقنا ، وثقلاً في أجسامنا ، وأقدامنا ، وقد تزيد ضربات قلوبنا ، وقد يحصل لبعض الناس إغماء شديد ، وإذا سألت الكثير من الناس هل تحدث لبعض الناس إغماء شديد ، وإذا سألت الكثير من الناس هل تحدث لهم مثل هذه العوارض والخواطر ؟ أجابوك بالإيجاب وأكدوها ولم ينكروها .

وبعد البحث والتمحيص والدراسة لهذه الأحاسيس الباطنية والشعور النفسي العميق ، وإذا ما تتبعنا أسبابها ومسبباتها وجدناها خارجة عن إرادتنا ، وعن فعلنا ، ونجزم جزماً أكيداً بأنها صادرة عن عالم آخر غير عالمنا المحسوس ، وأن الذين يفكرون بعمق ، ويلاحظون هذه الخواطر والظواهر ، لا يمكن أبداً أن يردوها إلى الخيالات والأوهام أو إلى خداع البصر .

والواقع أن ما غاب عن حواسنا هو أكثر بكثير مما يقع تحت حواسنا ومداركنا كما تقدم ، لأن حواسنا محدودة ، ولها نطاق تقف عنده فلا تتجاوزه ، وإذا أثبت هذا علماً وواقعاً ـ وهو ثابت قطعاً ـ ثبت ما أقره الدين من وجود عوالم غير منظورة ولا محسوسة ، كعالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم

الشياطين ، الذين لم يتوصل الإنسان إلى معرفة حقيقتهم ، وكشف ماهيتهم وقد جاءت أخبارهم في الكتب السماوية كلها وعلى لسان الأنبياء والرسل جميعاً وتردد ذكرهم في القرآن الكريم كثيراً ، ونحن نؤمن بكل ما جاء به القرآن الكريم المعجز للبشر ، والقرآن نفسه كتاب أنزل بواسطة جبريل الملك ، فإذا كانت حواسنا القاصرة والمحدودة النطاق ، لا نرى بها الملائكة ولا نشاهدها ، فليس معنى هذا أنها غير موجودة ، فعدم الوجود لا يدل على عدم الموجود . إلا أن الاعتماد في الإيمان على وجودهم ، يقوم على الخبر الصادق عن المعصوم من الكذب والخطأ ، وقد جاء الخبر بهذا .

فالإيمان بهم واجب وجوباً دينياً وشرعياً ، وثابت أيضاً ثبوتاً منطقياً ـ كما تقدم الاستدلال على وجودهم ـ ولو كان الوجود والثبوت يتوقف على الحواس فقط ، لجاز لمن مات أبوه وهو جنين في بطن أمه إذا ولد وكبر أن ينكر أن له أباً ،

لأنه لم يره ، فإن قيل : إن هذا الرجل الذي مات أبوه وهو جنين ، وجوده هو دليل على وجود أبيه ، يقال : ولما ؟ فإذا أهدرنا الاستدلال بالعقل وآمنا بالمحسوس فقد استوى الأمران ، لأن الملك لم يشاهد عند هؤلاء المنكرين ،

وهذا الأب لم يشاهده ولده أيضاً ، وكلاهما ثبت وجوده عن الخبر الصادق ، فالأب ثبت وجوده بالخبر القطعي ، والملك ثبت وجوده أيضاً بالخبر القطعي ،

فثبوت الملك الذي أخبر عنه القرآن المعجز ، كثبوت هذا الأب الذي جاء عن طريق الخبر الصادق ، وكذا وجود الجن والشياطين .

وهؤلاء الذين ذكرتهم الكتب السماوية ، وأخبرت عن وجودهم الرسل ، يشاركوننا في حياتنا الواقعية ، ويشتبكون معنا في جميع أمورنا وأحوالنا ، ويخالطوننا في دورنا ومجالسنا ومجتماعتنا وأمكنة أعمالنا ، ومنهم ما له القدرة على مخالطة أرواحنا والايحاء إليها ، قال تعالى ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم

فثبتوا الذي آمنوا . . .)[1] وقال تعالى : ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) [2] وقال تعالى ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [3] وقال تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ [4] وقال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ [5] . وقال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ [6] . وقال تعالى ﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ [7] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق » . ومن الملائكة ما هو مكلف ينفخ الروح في الأجنة « ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح » ومنهم من يراقب أعمال البشر ويحافظ عليهم ، ويوزع أرزاقهم ، أو يقبض أرواحهم ، فلا يصح إنكارهم بحال من الأحوال .

﴿ الملائكة ﴾

الملائكة أجسام خلقوا من نور ، ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ ، قال : «خُلِقتْ الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وطبيعة الملائكة الخير فلا يعملون الشر أبداً ، لأن طبيعة خلقهم النورانية تنفي عنهم الظلمة الداخلية ، والكدورة والأدران والوسوسة والشهوات

---

(١) الأنفال ١٢
(٢) آل عمران ١٢٤
(٣) الشورى ٥
(٤) الأحزاب ٤٣
(٥) الرعد ١١
(٦) الناس ١ ـ ٧

الحيوانية ، لا يقترفون الذنوب ، ولا يرتكبون الآثام ، وهم يقدرون على أفعال شاقة لا يقدر عليها البشر ، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتناكحون ولا يتناسلون ، وهم عباد الله المكرمون ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، وهم عقول محضة ، حياتهم طاعة الله ، ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (١) وشأنهم ذكر الله ، ودأبهم تسبيح الله ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . . ﴾ (٢) .

والملائكة قسمان : قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق ، والتنزه عن الشغل بغيره .

وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق القضاء ، وجرى به القدر وقد وبخ الله من وصف الملائكة بالاناث فقال ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى ، وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ (٣) وقال تعالى (أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً شهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ (٥) .

وجعل الله في الملائكة قوة روحانية عظيمة ، خلقهم خلقاً لا تدركه أبصار البشر ولا عقولهم ، قال تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (٦) .

---

(١) التحريم ٦ .
(٢) البقرة ٣٠ .
(٣) النجم ٢٧ ـ ٢٨ .
(٤) الصداقات ١٥١ ـ ١٥٣
(٥) الزخرف ١٩ .
(٦) خاطر ١ .

والملائكة لهم خلق وصور لا تستطيع الطاقة الإنسانية رؤيتهم على حقيقتهم ، لأن الانسان عند رؤيته الملك على حقيقته يصعق ويموت كما تقدم القول في تفسير قوله تعالى ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلناه ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ﴾ .

والسبب في عدم قدرة البشر على رؤية الملك على حقيقته ، لأن الملك من العالم غير المنظور الذي لا يقع تحت إدراك الحواس ، لأن مادة الإنسان الترابية ، قيدت روحه وحبستها فلا تستطيع أن تستشف لدرجة ترى فيها الملك على حقيقته .

وأما الرسل فقد منحهم الله قوة رحانية بحيث تعلو طاقتهم الروحية إلى مساواة الطاقة الملكية ، فيحصل حينئذ رؤية الرسول للملك على حقيقته ، كما جاء في حديث مسلم وغيره من أن الرسول ﷺ رأى جبريل في حلة خضراء وقد ملأ ما بين السموات والأرض له ستمائة جناح .

ولما كانت أجسام الملائكة من نور فهي لا تتزاحم ، أو لا يضيِّق بعضهم على بعض ، فلو اجتمع ملايين في مكان واحد لوسعهم ، كما لو وضعنا في الغرفة ألوفاً من الشموع لا يضيِّق نور كل شمعة على نور الشمعات الأخرى .

وللملائكة القدرة على التشكل بصورة الآدميين والسير بين الناس ومخاطبتهم كما يخلع أحدنا ثيابه ويلبس ثياباً أخرى ، بلون آخر مثلا، وعندما يتشكلون بهذه الصورة البشرية يمكن للانسان رؤيتهم والجلوس بينهم والتحدث معهم ، لأنهم بذلك قد قيدوا أنفسهم بمساواة الأجسام البشرية أو يقال بالمفهوم العلمي : أنقصوا ذبذبتهم حتى تساوت مع النفوس البشرية ، فدخلوا بذلك في نطاق الطيف المنظور ـ كما تحدثنا عنه سابقا ـ فأمكن للحواس أن تشاهدهم ، كما تشاهد أي جسم من الأجسام المادية ، لأن لكل جسم من الأجسام المادية دبذبة [1] تكون عالية التردد كالأشعة غير المرئية التي سبق الحديث عنها ، أو

(١) الأجسام مؤلفة من ذرات ، والذرات مؤلفة من الكترون وبروتون ، والألكترون يدور في مداره

قليلة الاهتزاز والتردد كالأجسام التي تضع ضمن الطيف المنظور ، فصفائح المروحة مثلاً عندما تكون سريعة الدوران ـ أي سريعة الاهتزاز والذبذبة ـ لا ترى ، وعندما تنخفض سرعتها ـ أي ذبذبتها ـ فإنها تشاهد ، وكذلك يكون العالم غير المنظور ، فعندما يكون سريع الاهتزاز والتردد فهو لا يرى ، وعندما يخفف من ذبذبته فهو يرى ، فالملك عندما يلبس لبوس الانسان ، فهو يخفض من تردده ، لذا فهو يرى ، كما ترى سائر الأجسام المحسوسة ، وللملائكة والجن القدرة على التحكم بهذه الخاصية .

فقد كان جبريل ينزل على الرسول ﷺ بصورة رجل غريب غير معروف للصحابة رضي الله عنهم ، فيسأل الرسول عن أمور الدين ، ليعلم الصحابة أحكام الإسلام ، وكيفية التأدب مع الرسول ﷺ وتوجيه الأسئلة .

فقد جاء في صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال يا محمد : أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

قال : صدقت .

فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان .

حول البروتون الذي هو النواة بلايين المرات في الثانية الواحدة . فلعلهم يريدون من الذبذبات في الأجسام هذا المعنى ، وإن الملائكة والجن وغيرهما لهم ذبذبات خيالية لا تقدر ، وكذلك لا ترى أجسامها ، فإذا خففت من ذبذباتها ـ وهي قادرة على ذلك ـ عندها يمكن رؤيتها . راجع كتابنا آيات الله في السماء » .

قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت .

قال : فأخبرني عن الإحسان .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرني عن الساعة .

قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرني عن أماراتها .

قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان .

فانطلق . فلبثت ملياً ، ثم قال : يا عمر ! أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وقد أخبر القرآن في كثير من الآيات عن تشكلهم بصورة البشر .

قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال سلام قوم منكرون ﴾ (١) .

ولما جاءوا لوطاً في قرية سدوم تشكلوا بصورة غلمان حسان مُرْد ، ودخلوا على لوط ، فضاق بهم ذرعاً ، لأنه لم يكن يعرفهم ملائكة ، ولعلمه بسوء أخلاق

---

(١) الذاريات ٢٤ ـ ٥ .

قوله قال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ﴾ .

ذرعاً وقال هذا يوم عصيب.وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد.قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد.قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾[1] .

* * * *

(١) هود ٧٧ ـ ٨١

﴿ الجـن والشياطـين ﴾

الجن والشياطين من العوالم غير المنظـورة ، فكلمـة جن بكسر الجيم ، مأخوذة من الجن بفتح الجيم ، وهو ستر الشيء عن الحاسة ، وكل ما تصرف من صيغة جنَّ معناه الستر ، يقال : جنه الليل ، وأجنَّه ، وجن عليه فجنّه ، ستره وأجنه جعل له ما يجنه ، وجن عليه كذا ستر عليه ، قال تعالى : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ [1] .

والجنان : القلب لكونه مستوراً عن الحاسة .

والمجن والمجنة : الترس الـذي يجـن صاحبـه أي يستـره ، قال تعـالى ﴿ اتخذوا إيمانهم جنة ﴾[2] وفي الحديث « الصوم جنة » .

والجنَّة : كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره وأغصانه الأرض . قال تعالى ﴿ لقد كان لسبـأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ولولا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴾[4] .

وسميت الجنة جنة ، إما تشبيهـاً بالجنـة في الأرض أي تغطـي بتـكاثف أشجارها وتشابك أغصانها الأرض ، وإن كان بينهما فرق واسع ، وإما لسترها نعمها عنا ، المشار إليها بقوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفـى لهـم من قرة أعين ﴾ [5] .

والجنين أيضاً : القبر ، لذا تسمى المقبرة مجنة لأنها تستر الأموات فيها .

والجِنَّةُ جماعة الجن . قال تعالى ﴿ من الجنة والناس ﴾ .[6]

---

(١) الأنعام ٧٦ .
(٢) المجادلة ١٦ .
(٣) سبأ ١٥ .
(٤) الكهف ٣٩ .
(٥) السجدة ١٧ .
(٦) الناس ٧ .

والجِنَّةُ : الجنون ؛ قال تعالى : ﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾[1] أي جنون ، وهو حائل يحول بين النفس والعقل .

والشيطان : مأخوذ من شطن بمعنى تباعد ، إذا كانت نونة أصلية . أو من شاط بمعنى احترق غضباً إذا كانت نونة زائدة .

والشياطين : مردة الجن .

ويستفاد مما تقدم ، أن كلمة الجن ، تطلق على العوالم المستورة عنا ، وغير المنظورة لنا ، وهي العوالم الثلاث المتقدمة ، الملائكة ، والجن ، والشياطين لأن الجميع مستورون عن الحواس .

فالملائكة خلقوا من نور ، والجن والشياطين خلقوا من نار ، وحقيقة النور والنار لا ترى ، وإن الذي يرى هو لونهما فقط .

فكلمة جن تطلق على المخلوقات الروحانية المستترة عن الحواس كلها ، بإزاء الأنس . فعلى هذا ، تدخل في هذا المعنى الملائكة والشياطين ، فكل ملائكة جن ، وليس كل جن ملائكة ، فبينهما العموم والخصوص المطلق ، يجتمعان في الملائكة فيقال لهم جن وملائكة ، وينفرد الجن بالقسمين الأخيرين يقال لهما جن ولا يقال لهما ملائكة .

وقيل : الجن بعض الروحانيين ، وذلك أن الروحانيين ثلاثة . أخيار : وهم الملائكة ، وأشرار وهم الشياطين ، وأوساط فيهم الأخيار والأشرار وهم الجن ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن . . . إلى قوله تعالى . . . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾[2] .

والجن مكلفون بفعل الأوامر وترك المنهيات ، فهم بهذا التكليف كالأنس ، وركبت في طبائعهم الشهوات ، فهم يتزوجون ويتوالدون ، وهم

(١) سبأ ٤٦ .
(٢) ١ ـ ١٥ .

قادرون على فعل الخير والشر، ومجزيون بأعمالهم، وقد بلغهم الرسول ﷺ رسالته، لأنه مرسل إليهم أيضاً، كما هو مرسل إلى جميع الأنس، كما جاء في سورة الجن السابقة ﴿ قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً)[1] وكما جاء في قوله تعالى: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصفتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾[2].

والجن من سكان الأرض يعيشون عليها كما نعيش، وهم يخالطوننا دون أن نشعر بهم، لأنهم مستورون عنا كما سبق، وهم يعلمون نوايانا وأخبارنا لشدة اتصالهم بنا، وكثرة مخالطتهم لنا، ولدقة تحسسهم بنا، ورد في الحديث « إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق ».

وهم يوحون إلينا بالخير أو بالشر، وهذا ما نحمله على أنه من حديث النفس، ولو كانت النفس غير راغبة بهذه الأحاديث التي تخطر في البال، فهي وسوسة شيطان أو إيحاء جن أو ملك.

وللجن القدرة على التشكل بصور شتى من صور الحيوان والإنسان أيضاً كالملائكة.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة من هذا الكثير، وفي البخاري عن أبي هريرة قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آكل، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: إني محتاج

---

(١) الجن ١ ـ ٢.

(٢) الأحقاف ٢٩ ـ ٣١

ولي عيال ولي حاجة شديدة ، قال : فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله باسطاً شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما إنه قد كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ ، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، قال : دعني فإني محتاج ولي عيال ولا أعود فرحمته ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله ، قال : أما إنه قد كذبك، وسيعود . فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات ، إنك تزعم أن لا تعود ثم تعود ، قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت ما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . ﴾ حتى تختم الآية ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله فخليت سبيله ، قال : « وما هي ؟ » قلت : قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا[1] أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ : « أما أنه قد صدقك ، وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا . قال : « ذاك شيطان » .

وفي مسند الدارمي أي محمد ، قال الشعبي : قال عبدالله بن مسعود : لقي رجل من أصحاب محمد ﷺ رجلاً من الجن ، فصارعه فصرعه الأنس ، فقال له الأنسي : إني لأراك ضئيلاً شخيتاً كأن ذُرَيْعَتَيْك ذُرَيْعتا كلب ، فكذلك

(١) الضمير في كانوا راجع إلى الصحابة . قال القسطلاني : وكان الأصل أن يقول : « كنا » لكنه على طريق الالتفات . وقيل هو مدرج من كلام بعض رواته .

أنتم معشر الجن أم أنت من بينهم كذلك ؟ قال : لا والله ؛ إني منهم لضليع ، ولكن عاودني الثانية فإن صرعتني علمتك شيئاً ينفعك ، قال : نعم . فصرعه ، قال : تقرأ آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم؟ ﴾ قال : نعم . قال : فإنك لا تقرأها إلا خرج منه الشيطان له خبج كخبج الحمار ، ثم لا يدخله حتى يصبح . أخرجه أبو نعيم عن أبي عاصم الثقفي عن عبدالله ، قال : فقيل لعبدالله : أهو عمر ؟ فقال : ما عسى أن يكون إلا عمر [1] .

﴿ هل الملائكة وإبليس والجن والشياطين من جنس واحد ؟ ﴾

اختلف العلماء في الملائكة وإبليس والجن والشياطين ، هل هم متفقون في الجنس مختلفون في النوع ، أو هم من أجناس متعددة ؟ على أقوال .

وسأعرض لأقوال بعض الصحابة والتابعين ، ثم لأقوال العلماء من بعدهم وحجج كل من هؤلاء العلماء . ثم أقول رأيي في ذلك على ضوء هذه الأقوال جميعها وبالله التوفيق .

أ ـ القول الأول : إن الملائكة وإبليس والجن والشياطين من جنس واحد ، ولكنهم يختلفون في النوع .

فالملائكة مخلوقون من نوع ممتاز علوي ، والجن والشياطين وزعيمهم إبليس مخلوقون من نوع سفلي .

١ ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن ، خلقوا من نار السموم [2] من بين الملائكة ، وكان من

---

(١) الصليل : الدقيق والشخيت المهزول ، والضليع جيد الأضلاع ، والخبج الريح ، وقال أبو عبيدة ؛ الخبج الضراط ، وهو الحبج أيضاً بالحاء ا هـ « تفسير القرطبي لآية الكرسي » .

(٢) قال أبو عبيدة : السموم ، الريح الحارة النافذة في المسام ، تكون في النهار وتكون في الليل ، والجن أدق من الريح وألطف نفوذاً .

خُزَّان الجنة .

قال : وخلقت الملائكة من نور ـ غير هذا الحي ـ .

قال : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار ،وهو لسان النار الذي يكون فيه طرفها إذا التهب ، وهي أخلاط من هذا اللهب .

٢ ـ قال قتادة : كان ـ أي إبليس ـ من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن .

٣ ـ قال محمد بن اسحق : أما العرب فيقولون : ما الجن إلا كل ما اجتن فلم يُرَ ، وأما قوله ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾[1] أي كان من الملائكة ، وذلك أن الملائكة اجتنوا ـ اي استتروا ـ فلم يروا ، وقد قال جل ثناؤه﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾[2] وذلك لقول قريش : « إن الملائكة بنات الله ، فيقول الله : إن تكن الملائكة بناتي فإبليس منها ، وقد جعلوا بيني وبين إبليس ذرية ونسباً . قال : فأبت العرب في لغتها ، إلا أن الجن كل ما اجتن ، يقول : ما سمي الله الجن ، إلا أنهم اجتنوا فلم يروا ، وما سمي بني آدم الأنس ، إلا أنهم ظهروا فلم يجتنوا ، فما ظهر فهو إنس ، وما اجتن فلم ير فهو جن .

٤ ـ قال أبو جعفر الطوسي : غير مستنكر أن يكون الله جل ثناؤه خلق أصناف ملائكته من خلقة شتى ، فخلق بعضاً من نور ، وبعضاً من نار ، وبعضاً مما شاء من غير ذلك ، وليس فيما نَزَّل الله جل ثناؤه الخبر عما خلق منه ملائكته ، وأخباره عما خلق إبليس ، ما يكون إبليس خارجاً عن معناهم ، إذ كان جائزاً أن يكون خلق صنفاً من ملائكته من نار ، وكان منهم إبليس ، وأن يكون أفرد إبليس بأن خلقه من نار السموم دون سائر ملائكته ، وكذلك غير مخرجه أن يكون ، كان من الملائكة بأن له نسلاً وذرية لما ركب فيه الشهوة واللذة التي نزعت من سائر الملائكة ، لما أراد به المعصية .

وأما خبر الله عنه من الجن ، فغير مدفوع أن يسمى ما اجتنّ من الأشياء

(١) الكهف ٥٠

(٢) الصافات ١٥٨ .

عن الأبصار كلها جناً .

٥ ـ وقال كثير من الفقهاء : إن إبليس من الملائكة ، واحتجوا لذلك بأمرين . (الأول) أن الله تعالى استثناه من الملائكة ، والاستثناء يفيد اخراج ما لولاه لدخل أو لصلح دخوله ، وذلك يوجب كونه من الملائكة ، ولا يقال : الاستثناء المنقطع مشهور في كلام العرب ، قال الله تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ وقال : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاما ﴾ (١) وقال ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ (٢) لأن الأستثناء المنقطع خلاف الأصل ولا يصار إليه إلا عند الضرورة .

(الحجة الثانية) لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان قوله ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ متناولاً له ، ولو لم يكن متناولاً له لاستحال أن يكون تركه للسجود إباء واستكباراً أو معصية ، ولما استحق الذم والعقاب ، ولكن حصلت هذه الأمور كلها ، فدل ذلك على أن الخطاب يتناوله ، ولا يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة .

ب ـ القول الثاني : هو أن الملائكة جنس ، وإبليس والشياطين والجن جنس آخر .

١ ـ قال الحسن : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم .

٢ ـ قال سعيد بن مسعود : كانت الملائكة تقاتل الجن ، فسبي إبليس وكان صغيراً ، فكان مع الملائكة ، فتعبَّد معها ، فلما أمروا بالسجود لآدم ، فسجدوا إلاّ إبليس ، فلذلك قال الله ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾ .

٣ ـ قال ابن زيد : إبليس أبو الجن ، كما أن آدم أبو الإنس .

---

(١) الزخرف ٢٦ ـ ٢٧ .
(٢) مريم ٦٢ .
(٣) البقرة ٢٨٣

٤ ـ قال الطبري شارحاً معنى هذه الأقوال : وعلة من قال هذه المقالة ـ أي إبليس ليس من الملائكة ـ أن الله جل ثناؤه أخبر في كتابه ، أنه خلق إبليس من نار السموم ، ومن مارج من نار ، ولم يخبر عن الملائكة أنه خلقها من شيء من ذلك ، وأن الله جل ثناؤه أخبر أنه ـ أي إبليس ـ من الجن ، فقالوا : فغير جائز أن ينسب إلى غير ما نسبه الله إليه .

وقالوا : لإبليس نسل وذرية ، والملائكة لا تناسل ولا تتوالد . لا شك أن هذا الشرح قائم على أن الملائكة جنس والجن جنس آخر .

٥ ـ وقال بعض المتكلمين ولا سيما المعتزلة : إنه ـ أي إبليس ـ لم يكن من الملائكة ، بل كان من الجن ، لقوله تعالى في سورة الكهف ﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾[1] والجن جنس غير الملائكة ، ومخالف لهم ، وإذا ثبت أنه من الجن ، وجب أن لا يكون من الملائكة ، لقوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ﴾[2] وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك .

ج ـ والذي استخلصه من الاقوال جميعها ، هو أن الله تعالى خلق جنساً واحداً من مخلوقاته ، له ثلاثة طبائع ، نور . ونار سموم . ونار مارج بين النور والنار السموم .

١ ـ فالنوع الأول : وهو النور خلقت منه الملائكة الكرام ، والنور مضيء وهادىء وصاف لطيف ، تستريح إليه النفس ، وتأمن في جواره ، ويطمئن به القلب ، وينشرح له الصدر ، وهذه هي صفات الملائكة . وهم أطهر الأنواع الثلاثة ، وأصفاها جوهراً ، وأنقاها عنصراً . شأنهم الطاعة ، لا يعصون الله أبداً ، ودأبهم العبادة والتقديس ، لا يفترون عن ذلك أبداً ، اصطفاهم الله لذاته ، واختارهم لتصريف أموره وتبليغ رسالاته وأوامره ، ليس لهم شهوة تعكر صفاءهم ، ولا هوى نفسي يصرفهم عن طاعة ربهم ، وهم ملائكة الله المقربون .

---

(١) الكهف ٥٠ .

(٢) سبأ ٤٤ .

٢ ـ النوع الثاني : وهو النار السموم ، خلق الله منها إبليس والشياطين ، والنار يابسة محرقة مدمرة ، متعالية طائشة ، والسموم ريح حارة عنيفة ، نافذة ولافحة مؤذية ، تدخل الجسم من جميع المسام .

وهذه هي صفات الشياطين ، وهذا النوع أشر الأنواع وأخبثها ، وأسوأها ، وأعنفها وأقساها وأعتاها ؛ ركبت فيها شهوة الفرج فهم يتناكحون ويتناسلون، ويتوالدون، لهم ذرية، وفيهم شهوة الترفع والأستعلاء ويبس الطبع، وقساوة الأخلاق ، وشراسة المعاشرة والمخالطة ، فيهم الحقد والجسد ، وفيهم حب التشفي والأنتقام ، وهم نوع الشياطين إبليس وذريته .

٣ ـ النوع الثالث ، هم الوسط بين النور والنار السموم ، وهو المارج الحاوي لضياء النور وحرارة النار ، خلق منه الجن الذين ذكرهم الله في القرآن ، (وخلق الجان من مارج من نار) والمارج لسان النار وطرها إذا التهبت ، وهي نار لا دخان لها .

وقد ركبت فيهم شهوة البطن والفرج كأبناء آدم ، فإن تغلب عليهم التعالي والطيش الذي هو من صفات النار ، كانوا مردة الجن وإخوان الشياطين ، وإن تغلب عليهم الهدوء والصفاء الذي هو من صفات النور كانوا قريبين من الملائكة ، وهم مؤمنوا الجن .

والأنواع الثلاث يطلق عليهم في أصل اللغة لفظ الجن ، لأجتنابهم واستتارهم عن الحواس البشرية ، إلا أن العرف العام خص الملائكة بالنوع الأول فقط ، وخص الجن والشياطين بالنوعين الأخيرين .

ولما كان إبليس من نوع من أنواع الملائكة ولكنه ذو طبيعة مختلفة ، وكان قبل معصيته يعيش معهم ، يعبد الله ويجتهد في عبادته ولو في الظاهر ، وكان يعتبر منهم ، لأنه وذريته حي من أحيائهم ، وفصيلة من فصائلهم ، ولمشاركته لهم في الاختلاط والعبادة ، فبهذا الاعتبار فإن الأمر بالسجود يتناوله كما

يتناولهم ، والاستثناء يكون متصلاً ، فهو على بابه بهذا الاعتبار ، ولما عصى الله وخالف أمره طرد من بينهم ، وجرد من فضيلة الاختلاط بهم ، وانفصل عنهم ورجع إلى أبناء فصيلته وعشيرته المختلفة عن الملائكة ، ورفع عنه اعتبار التكريم الذي لازمه قبل معصيته والذي اكتسبه بمخالطته للملائكة المقربين الأطهار ، ومشاركته إياهم بالعبادة . مثل آدم عليه السلام ، لما خالف أمر ربه بأكله من الشجرة ، رفعت عنه مظاهر التكريم التي لازمته في الجنة . وتطايرت عنه خلع التقدير والأعتبار . وتجرد من كل المنح التي تفضل الله بها عليه ، حتى أصبح عارياً مجرداً من مزاياها . إلا أن آدم عليه السلام تداركته عناية الله ، فاعترف بذنبه ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[1] بينما بقي إبليس على عناده وإصراره في المعصية .

وبهذا التصنيف يندفع كل اعتراض ، ويتفق مع قول ابن عباس وغيره من أن إبليس كان من حي من أحياء الملائكة والله أعلم .

د ـ وبعد كتابتي لهذه الأسطر اطلعت على رأيين آخرين في هذا الموضوع (أحدهما) : للجاحظ و (ثانيهما) للشيخ محمد عبده ؛ فاحببت أن أسجلهما إتماماً للفائدة وجمعاً للآراء المتعددة .

١ ـ أما رأي الجاحظ فيقول : إن الملائكة والجن جنس واحد ، فمن طهر منهم فهو ملك ، ومن خبث فهو شيطان ، ومن كان بين بين فهو جن . وأظن أن هذا الرأي لايخرج عما ذكرته سابقاً ، والجاحظ رجل معتزلي ، فهو برأيه هذا يخالف أهل مذهبه من أن الملائكة جنس والجن جنس آخر .

٢ ـ وأما رأي الشيخ محمد عبده فيقول : إن الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته وإنما نؤمن بإخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه ، والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف ، لكل صنف وظيفة وعمل ، ونقول الآن : إن إلهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي ﷺ ، وقد أسند إلى هذه العوالم الغيبية وخواطر الخير التي تسمى إلها ما ، وخواطر الشر التي تسمى

(١) البقرة ٧ط .

وسوسة ، كل منهما محله الروح ، فالملائكة والشياطين إذن : أرواح تتصل بأرواح الناس ، فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجسمانية المعروفة لنا ـ يقصد كما يفعله النصارى من تصوير الملائكة بتماثيل على صورة بنات ذات أجنحة ـ لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فإنما تتصل بها من طريق أجسامنا ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس ، إذن هي من عالم غير عالم الأبدان قطعاً .

ثم يقول : وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة ، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من نبات وخلقة حيوان ، وحفظ إنسان وغير ذلك ، فيه إيماء إلى الخاصة مما هو أدق من مظاهر العبادة ، وهو أن هذا النمو في النبات ، لم يكن إلا بروح خاص ، نفحه الله في البذرة ، فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان ، فكل أمر كُليٌّ قائم بنظام مخصوص ، تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهي ، سمي بلسان الشرع ملكاً ، ومن لم يبال في التسمية بالتوفيق يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية ، إذا كان لا يعرف من عالم إلا مكان إلا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة ، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه ، هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه نظامها وقوامها لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً ، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية ، أو ناموساً طبيعياً ، لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع ، فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات .

ثم يقول : يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو الشر ، بأن في نفسه تنازعاً كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد ، وذاك يدفع ، واحد يقول : إفعل . وآخر يقول : لا تفعل . حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ، وهو في

الحقيقة لا يدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقتها ـ لا يبعد أن يسميه تعالى (أو يسمي أسبابه ملائكة) .

ثم يقول الشيخ محمد عبده : (وأقول) : إن الإمام الغزالي سبق إلى بيان هذا المعنى ، وعبر عنه بالسبب وقال : إنه سمي ملكاً ، فإنه بعدما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال : « إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث لا بد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث ، دل ذلك على اختلاف الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة .

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، تسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواء وخذلاناً ، فإن المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة . اهـ كلام الغزالي من «كتاب الأحياء في شرح عجائب القلب باختصار» ثم يقول بعد ذلك الشيخ محمد عبده : فإذا صح الجري على هذا التفسير ، فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية ، إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ؛ ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به ، خلق بعد ذلك الإنسان ، وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القروي وتسخيرها في عمارة الأرض ، وعبر عن تسخير هذه القوى بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حدّ له ، والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه ، لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس ، وهو القوة التي [لزها الله بهذا العالم لزاً ، وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل إلى النقص ، وتعارض مدَّ الوجود لترده إلى العدم ، أو تقطع سبل البقاء وتعود بالموجود إلى الفناء ، أو التي تعارض في اتباع الحق ، وتصد عن عمل الخير ،

وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته ليصل إلى مراتب الكمال الوجودي ، التي خلق مستعداً لها .

وتلك القوى التي ضللت آثارها قوماً فزعموا أن في العالم إلهاً يسمى إله الشر ، وما هي بآلهة ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو .

ولو أن نفساً مالت إلى قول هذا التأويل لم نجد في الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق اهـ .

ونحن نقول : إن هذا القول تصور خيالي بعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دليـل الموضوعـــات

١ ـ مصادر الهداية ـ الكتب ـ الرسل ١٤١
٢ ـ الكتب . ١٤١
٣ ـ الرسل . ١٤٧
٤ ـ معنى النبي ومعنى الرسول والفرق بينهما . ١٥٤
٥ ـ التدرج في موضوع الرسالات وحكمة تعددها . ١٥٧
٦ ـ الحكمة من عموم رسالة الإسلام . ١٥٩
٧ ـ معجزات الرسل . ١٦٢
٨ ـ الفرق بين معجزات الرسل ومعجزة الرسول محمد ﷺ . ١٦٥
٩ ـ صفات الرسل . ١٦٩

مصادر الهدايـة

﴿ الكتب ﴾

١ ـ الكتب • إن الله الذي خلق الإنسان وفضله على كثير ممـن خلـق ، بعقله المميز ، وعلمه المكتسب ، كلفـه بشريعة يقيمها ،وأحكام يطبقها ، ووضع له من أجل ذلك منهاجاً يسير عليه ، وأمره بفعـل ما يوصله إلى السعادة الحقة ، ونهاه عن فعل كل ما يؤدي به إلى الشقاء والهلاك المؤكد في دنياه وآخرته ، ولما كان الإنسان عاجزاً لا يمكنه أن يستوعب هذه التعاليم المطلوبة بذاكرته ، وضعيفاً لا يستطيع أن يختزنها بحافظته ، أو يدركها بعقله ؛ ثم ينقلها إلى الأجيال القادمة ، ففيه تكليف فوق الأستطاعة ، وهو أمر صعب التحقيق ، وعسير المنال ، فإن الله تعالى رحمة بهذا الإنسان أنزل كتباً من عنده على من أرسلهم لتبليغ شريعته ، تضمنت ما فرضه الله على الناس ، أو أحله لهم أو حرمه عليهم ، حتى إذا انتقل الرسول إلى جوار ربـه ، بقـي الكتـاب المنـزل تتلى آياتـه ، وتطبـق أحكامـه وتعاليمه ، فإذا طال الزمن بالناس ، وبَعُدَ العهد بينهم وبين الرسول السابق ، فغيروا وبدلوا ، أو ضلوا أو أضاعوا نزل كتاب جديد على رسول جديد ، يجدد للناس ما اندثر من أمور دينهم ويدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد ، والعمل على طاعته ، أو يزيد في الأحكام الشرعية على الأحكام السابقـة ، أو يعـدل أو يبدل ، على حسب طاقة الناس ، ومصلحتهم في حياتهم .

ولا شك أن هذه التعاليم التي كانت تنزل ، والأحكام التي طلب تطبيقها

في تلك الكتب ، كانت تتفق مع عقلية الناس ، وتتناسب مع مصالحهم في كل مرحلة من مراحل تقدمهم الفكري والاجتماعي .

وهذا التناسب والتوافق يشبه من وجوه كثيرة ، المناهج التعليمية التي تطبق على تلاميذ المدارس في عصرنا الحاضر، في كل مرحلة من مراحل التعليم الابتدائي ، والثانوي والجامعي ،

فطلاب المرحلة الابتدائية لا يُدَرَّسُون كتب المرحلة الثانوية ، وطلاب المرحلة الثانوية لا يدرسون المرحلة الجامعية ، لأن طلاب كل مرحلة لهم استعداد خاص ، جسمي وعقلي ، لا يستطيعون منهم أو استيعاب كتب المرحلة المتفوقة كالطفل يُعطى أولاً الحليب،ثم الأطعمة اللينة ، وهكذا بالتدريج حتى ينضج جسمه ، وتقوى معدته على الهضم ، وهكذا كانت الأمم التي تنزل الكتب من أجلها ، كان في هذه الكتب المنزلة التعاليم والأحكام المناسبة لهذه الاستعدادات الإنسانية في مراحل انتقالها وتطورها .

والشيء الذي اتفقت عليه الكتب المنزلة ولم يختلف في دين من الأديان هو عقيدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى .

لأن الإيمان بالله يدركه العقل من أدلته الطبيعية المحسوسة ، ومن دليل الفطرة الإنسانية فلا يتناقض معها . والإيمان بالرسل ، سبيله المعجزة الخارقة المشاهدة . وما عداهما سبيل الإيمان به الخبر الصادق عن الله تعالى من كتبه المنزلة على رسله ، أو عن خبر الرسول المعصوم صاحب المعجزة .

وأما التعاليم الدينية الأخرى كالعبادات أو التوجيهات الدنيوية كالمعاملات والعلاقات الاجتماعية فقد تختلف باختلاف العصور والأزمان ، أو بما يناسب مراحل التطور في النضج العقلي والاستعداد الفكري والنفسي ، ووجود المصلحة عند الانسان كما سبق .

ولا شك ان كل رسول بعثه الله تعالى لهداية الناس أنزل عليه كتاباً أو صُحُفاً فيها تعاليم ، من توجيهات عقائدية ، وأحكام تطبيقية عملية ، وإرشادات أخلاقية ، أو كلف بتطبيق تعاليم الكتاب الذي أنزل على من سبقه أو عاصره من الرسل ، كلوط مع إبراهيم ، وهارون مع موسى عليهم الصلاة والسلام .

وقد أخبرنا الله تعالى ببعض هذه الكتب وهذه الصحف ، وعلى أي رسول نزلت ، كصحف إبراهيم وصحف موسى قبل التوراة حيث قال تعالى (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) [1] والزبور الذي أنزل على داود كقوله تعالى (وآتينا داود زبوراً) [2] والتوراة الذي أنزل على موسى ، قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا . . . ﴾ [3] والإنجيل الذي أنزل على عيسى ، قال تعالى ﴿ وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾ [4] .

والقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ قال تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) [5] .

وقد ورد أنه ﷺ سئل : كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة ، منها على آدم عشر صحف ، وعلى شيت خمسون صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثون صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وعلى موسى وعيسى وداود ومحمد عليهم الصلاة والسلام التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

أما صحف الأنبياء السابقين ، فلم يبق لها وجود ، وأما التوراة والإنجيل والزبور ، فإنها وإن كانت لا تزال موجودة بأسمائها عند اليهود والنصارى ،

---

(١) الأعلى ١٨ .
(٢) النساء ١٦٢ .
(٣) المائدة ٤٤ .
(٤) طه ١ .

لكنها محرفة كل التحريف ، وقد حذف منها وأضيف إليها من أقوال أحبارهم ورهبانهم الشيء الكثير ، حتى اختلط الصحيح منها بالباطل ، وهم يعترفون بأن الموجودة ليست هي النسخ الأصلية ، بل هي ترجمة لها بعد مرور زمن طويل ، على وفاة أولئك الرسل ، أو على رفع المسيح عليه السلام .

والعقل يدل على أن الكثير منها لا يمكن أن تكون من كلام الله تعالى ، على أنه ليست لديهم نصوص تاريخية تثبت بأن هذه الكتب هي التي نزلت من عند الله تعالى .

أما التوراة فَقَدْ فُقِدَ عندما غزا بُخْتَنَصّرالقدس وهدم الهيكل وأسر اليهود إلى بابل ، وقد أملى التوراة الموجودة رجل منهم يقال له « عزرا » لذا توجد فيه الكثير من الكلمات البابلية .

وأما الإنجيل فقد أنزل الله إنجيلاً واحداً ، ولكن الأناجيل الموجودة أكثر من إحدى وثمانين ، ثم اتفقت مجامعهم على اربع فقط .

وأما القرآن الكريم ، وهو الكتاب لذي أنزل على سيدنا محمدﷺ ، وهو الكتاب الوحيد الذي أجمع الأولون والآخرون على صحته ، وثبوته ، وهو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى للأسباب الآتية :

أولاً بالقرآن الكريم نزل من عند الله بواسطة جبريل على قلب الرسول ، ومن قراءة الرسول إلى كُتّاب الوحي ، وكتابتهم له ، ثم نقلته جموع المسلمين الذين كانوا ينتظرون نزول آياته بتلهف وتشوق انتظار الأرض العطشى لماء السماء ، لسماعها وحفظها والعمل بها صغاراً وكباراً ، رجالاً ونساء ، حتى كيفية تلاوته التي تلاها جبريل على النبيﷺ ، والقراءات التي نزل بها على سبعة أحرف طبقاً للهجات العرب ، تيسيراً عليهم في قراءته وتلاوته ، فكلها دُوّنت وحفظت ولم يتغير منها شيء على الإطلاق ، حتى رسم الحروف التي كتبت بها كلمات القرآن في عهدهﷺ حافظ عليها المسلمون حتى اليوم ، وهي الكلمات المكتوبة الآن في رسم المصاحف العثمانية ، كما كتبها زيد بن ثابت واللجنة التي

ألفها عثمان بن عفان رضي الله عنهم ، ما عدا التنقيط والتشكيل والتقسيمات ، قال الله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [1]

بينما نجد الكتب السابقة على القرآن لم يكن لها أي حظ من هذا الحفظ ، فنسخها الأصلية ضاعب كلها ، والموجود منها ترجمة عنها وفيها خلط كثير من كلام الكهنة وآراء الأحبار وتفسيرات الفقهاء واستنباطاتهم ، اختلط هذا بكلام الله تعالى ، فلا يستطيع أحد أن يميز كلام الله تعالى من كلام الناس فيها ، لأنها نزلت كتب هداية لا كتب لا إعجاز حتى تحفظ .

ثانياً : إن أي كتاب مقدس موجود على الأرض اليوم ـ ما عدا القرآن الكريم ـ لا يوجد له مستند تاريخي معتمد يثبت أنه هو الكتاب الذي جاء من عند الله تعالى ، بينما تجد كل الشواهد التاريخيةوالأخبار المتواترة قد تضافرت جميعها على أن القرآن الكريم هو الكتاب الكريم الذي أنزل من عند الله تعالى على محمدﷺ ، بل إن الشواهد التاريخية تثبت كل آية منه متى نزلت ، وفي أي مكان نزلت ، وما هي الأسباب أو المناسبة التي نزلت من أجلها على النبيﷺ ..

ثالثاً : إن اللغات التي نزلت بها الكتب السابقة على القرآن ، كلها درست وزالت من لسان البشر ، ولم يبق لها وجود ، ولا يوجد من يفهمها إلا نفر من العلماء ، تخصصوا في دراسات اللغات القديمة و إن وجد منها شيء فهي نسخة غير أصلية ومحدودة النطاق . بينما نجد لغة القرآن ، هي لغة حية موجودة ، وتكاد تكون لغة عالمية ، يتصل حاضرها بماضيها ، ويتكلم بها ملايين من البشر ، ويفهمونها كلهم ، وهي لغة العلم والسياسة والقانون والطب والفلسفة والدّين ولغة الحياة ، تُعَلَّم وتدرّس في كل قطر إسلامي ، بل وفي كل جامعة من جامعات العالم ، في الغرب والشرق ، يمكن لكل من أراد دراستها أن يتعلمها بسهولة ويتكلم بها بطلاقة ، ويخطب ويتحدث بها كأنه فرد من أهلها .

---

(١) الحجر ٩ .

رابعاً : إن الكتب السابقة نزلت على أمم خاصة ، في زمن خاص ، ولإصلاح جيل خاص ، وقد استنفذت أغراضها، فلم تعد صالحة للتحقيق والتطبيق ، فليست هي بأممية ولا عالمية ، وفيها الكثير مما يخالف العقل ويناقض العلم ، ولا تصلح لإقامة نظام عالمي ، أو إقامة حضارة إنسانية ، ولا يمكن أن تشبع رغبات الإنسان الروحية والمادية معاً . بينما نجد القرآن الكريم ، قد دعا الناس جميعاً دون تمييز إلى اعتناقه والعمل بأحكامه ، وتطبيق نظامه ، لا يخص أمة دون أمة ، ولا جيلاً دون جيل ، أفكاره تتفق مع فطرة الإنسان حيثما كان ، وتعاليمه تتفق مع العقل الصحيح ، ودعوته لا تناقض العلم بحال من الأحوال ، وقد أوجد أمة من العدم ، جمعها بعد فرقة ، ووحدها بعد تشتت ، ورفعها بعد انحطاط ، واشبعها بعد جوع ، وجعل لها دولة كانت أقوى دول الأرض ، ونشر لها حضارة كانت أروع حضارة إنسانية عرفها تاريخ الإنسان ، أعطت للفرد حقوقه ، وردت إليه كرامته ، وردت للإنسان إنسانيته التي سلبت منه ، فكانت بيضاء ناصعة ، لا تجد في تاريخها نقطة سوداء تشوه صفحة من صفحاتها ، وهي قادرة الآن أن تبني نظاماً عالمياً روحياً وأخلاقياً واجتماعياً وسياسياً وعلمياً ، والسبب في ذلك أن الإسلام آخر دين للإنسانية جميعها ، يتفق مع فطرتها وعقلها وتفكيرها ، ويتفق مع قوانين العلم وقواعد الأخلاق ، وكان محمد هو رسول الانسانية ، مع أنه أمي ، ولكنه جاء بما لم تأت به الأنبياء من قبل ، ولم تستطعه عباقرة الأرض وأساطين العلم وفلاسفة الحكمة ، وكتابه هو الكتاب الوحيد الذي جمع جميع ما جاءت به الكتب السماوية مما هو صالح للإنسانية ، ونسخ منها ما لا يصلح لحياتها ، وأضاف إليها كل ما هو ضروري لتطور الحياة ، فكان المنهج الكامل للمجتمع الإنساني الفاضل ، وهو دستور الحياة للإنسانية جمعاء﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [1] .

* * *

(١) فصلت ٤٢

الرسـل

الإنسان ـ بما ركب فيه من عقل وشهوة ـ هو وسط بين الملك الكريم ، والحيوان البهيم ، فإن تغلب عقله في أعماله على شهوته فهو ملك في صورة إنسان ، وإن تغلبت شهوته في تصرفاته على عقله ، فهو حيوان في جلد إنسان .

وتغلب العقل على الشهوة ليس بالأمر السهل اليسير ، لأن للشهوات تسلطاً عنيفاً ، ونفوذاً عظيماً على النفس ، ولها تحكم قوي وشديد على تصرفات الإنسان ، ما لم توقفها عند حدها تفكير سليم إرادة قوية .

وأغلب الشر تجده رفيقاً للشهوات ، والخير كل الخير تجده مصاحباً للعقل ، على أن العقل ليس هو الوسيلة الكافية للتمييز بين الخير والشر ، أو بين الحق والباطل أو بين النافع والضار ، لأن العقل مجاله محدود ، وإدراكه لحقائق الأشياء وبواطنها قاصر ، لتفاوت العقول في السعة والضيق ، ولوجود الشهوات التي تحول بين حسن الأختيار وسوئه .

فإذا عرض على جمهور من الناس أمر ليحكم له أو عليه ، وجدت نظرتهم إليه تختلف ، لأنهم ينظرون إليه من زوايا مختلفة ، فتختلف أحكامهم عليه نتيجة لذلك ، هذا إذا عرفوا الحق فيه ، فكيف يكون الحال إذا جهلوه ؟ وهذا شيء كثير الوقوع ، لاختلاف نشأتهم وبيئتهم وتربيتهم وأمزجتهم ، واختلاف مصالحهم وأهوائهم ، لذا نجد أكثر الناس ينحرفون عن الحق ، ويميلون نحو الباطل .

فالعقل البشري ليس في استطاعته منفرداً بدون موجه أن يبلغ بصاحبه أو

بالناس الآخرين إلى الخير المحض ، وإلى السعادة المنشودة .

على أن هناك أموراً غيبية كثيرة لا يمكن إدراكها بالعقل وحده فلا بد له من موجه عارف يدله عليه .

فمعرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه الحسنى قد تخفى على كثير من الناس ، لذا نجد الكثير عبدوا الشمس والقمر والجن والملائكة والشجر والحجر ، ومن عرفه من عقلاء الناس جهل صفاته فضلٌ وأضلٌ . وكذلك معرفة الملائكة والجن ، والآخرة من حساب وجزاء وجنة ونار ، وغير ذلك ، فهي من الأمور الغيبية التي لا تدرك حقيقتها ولا يتوصل إلى معرفتها بالعقل المستقل .

ثم هنالك أمور أخرى في الحياة العملية ، فيها خير وفيها شر ، والعقل لا يستطيع التمييز بينها ، ولا التفريق بين ما فيها من خير أو شر ، كالربا والاحتكار والبيع والشراء والرهن والاجارة ، والحلال والحرام وغير ذلك من معرفة أوامر الله ونواهيه . وكذلك فإن العقل قاصر عن وضع عقوبات رادعة وزاجرة تكون مناسبة للذين يرتكبون الجنايات المختلفة ، كالقتل والزنا والسرقة وقطع الطريق وغيرها .

والعقل عاجز كل العجز عن معرفة الوسائل التي يتقرب بها العبد إلى ربه ، كالعبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة ، فهو لا يعرف كيف تكون العبادة التي يريدها الله منه ولا كيف أداؤها .

وكذلك يعجز العقل عن إيجاد نظام صحيح وسليم لشؤون الأسرة من زواج وطلاق وميراث وحقوق تجب وواجبات تترتب ، فكل هذا من الأمور التي يقصر العقل عن إدراكها وإدراك الوضع الصالح فيها ، والإنسان اجتماعي بالطبع ، والبشر في أشد الحاجة للنظام الذي ينظم هذا المجتمع ، ويحدد العلاقات ، ويبني الحقوق والواجبات ، ويضع الحدود التي يقف عندها أصحاب الشهوات ، ولا يتخطاها أصحاب الثروات ، فيمنع اعتداء القوي

على الضعيف ، وينظم شؤون الناس في الحياة ، على أساس من الحق والعدل ، ليكون هذا النظام هو المعيار الدقيق الثابت للتمييز بين الخير والشر والخطأ والصواب ، فإذا كان الأمر كذلك ـ وهو حق لا شك فيه ـ فمن الذي يوكل إليه وضع ذلك النظام ؟

إن قلنا : إلى عقلاء الناس ، فقد سبق بأن العقل قاصر ومحدود فهو لا يستطيع الاحاطة والشمول ، كما لا يستطيع النفوذ إلى أعماق المشاكل ليجد لها حلاً مناسباً ، ثم إن العقل البشري لا يمكن أن يفيء إلى معيار ثابت ، ولا يتفق على وضع واحد ، ثم إن الإحالة على العقل ، هي إحالة على مجهول عام شائع بين الناس جميعاً ، يصعب تعريفه وتحديده ، وإلا فما هو هذا العقل الذي نكل إليه وضع نظام عام ثابت للإنسانية ، ورسم أهداف مستقرة وشاملة لكل الأمم والشعوب ؟ هل هي المواهب السامية والقوى المدركة المميزة في الانسان ؟؟ ثم المواءمة والموازنة بين الأشياء ثم استنباط الحكم المناسب وإصدار القرار بتطبيقه والعمل به ؟ فكيف يكون هذا الادراك العميق والتمييز الدقيق والموازنة الصحيحة السليمة من الأخطاء ؟

ثم هل هذا العقل المعتمد لوضع المنهج وتحديد النظام هو ثابت لا يتغير ، ولا يتطور ، ام هو في تغير مستمر وتطور دائم ؟ فإذا كان ثابتاً لا يتغير ولا يتطور فكيف يحكم على الأشياء الحادثة المستجدة في الحياة ، وعلى الأشياء التي تتغير المصلحة فيها بتغير الزمان أو المكان ؟ وإذا كان متغيراً ومتطوراً على الدوام ، فكيف يحكم على الأشياء الآن ما يتغير حكمه عليها غدا ؟ أم هل العقل المطلوب تحكيمه هو عقل الجيل الماضي ، أم هو عقل الجيل الحاضر ؟ وهل تصدره هذه الأحكام بجلسة واحدة أم بعدة جلسات ؟ ثم من يعرف العقلاء من الناس وتمييزهم عن غيرهم ليستدعيهم ، ومن الذي أُعْطي هذه السلطة أو هذا الامتياز ؟ وممن صدرت هذه الأوامر لهذا المُنْتَخِب لعقلاء الناس ؟ ومن ومن . . ؟ ثم أليس الذي يهملون فلا يستدعون للمشاركة في وضع النظام العام العالمي يحقدون على واضعي هذا النظام ويرفضونه ولا يرضون به ؟ وإلا فكيف

لهم أن يجبروهم على قبول ما لهم الحق في رفضه ؟ فالزمن الذي كان فيه كل أمة تمثل عالماً قائماً بنفسه ، ذهب ومضى ، فأصبحت الأمم كلها اليوم من شرق الأرض وغربها تمثل وحدة عالمية ، فهي في حاجة إلى نظام واحد ، يشملها وينظم شؤونها ، ورسم مثل هذا النظام لا بدله من علم سابق في ما كان وما سيكون ، ولا بدله من خبرة دقيقة في ما يفيد وما لا يفيد ، واطلاع على أحوال البشر ومعرفة مصالحهم وما يحتاجون إليه في حاضرهم ومستقبلهم ، حتى يكون النظام عاماً لجميع الناس ، وشاملاً لجميع مصالحهم ، كما يكون منسجماً مع الأزمان ، ومنطبقاً على الحق والعدل في كل بلد وفي كل مكان ، ويتفق مع مصالح جميع الناس كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساء حكاماً ومحكومين ، فقراء وأغنياء ، فلا يمنح بعض الناس حقوقاً ويمنع آخرين ، ولا يحابي الأقوياء على حساب العضفاء ، وهذا لا يكون إلا من إله عالم أحاط علمه بكل شيء ، وحكيم خبير وضع كل شيء في موضعه المناسب ، وقوي قدير خضع لحكمه كل شيء ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (١) ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حَبل الوريد) (٢) . ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ (٣) ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (٤) .

وإلا فهذه هيئة الامم ممثلة بكبار رجالها المسؤولين ، فماذا تفعل في قضايا الحق والعدل ؟ فكم من ظلم مفجع وقع بالشعوب الضعيفة ، وحق بينّ ضاع على يدها ، لتأثر كل دولة منها بالمؤثرات المصلحية الخاصة ، أو بالتهديد والتخويف من قبل الدول الكبرى أو باغرائها للدول لصغرى بالمال والمساعدات لتقف في صفها وإلى جانبها عند التصويت على إيقاع الظلم أو إسقاط حق لشعب من الشعوب الضعيفة .

---

(١) الملك ١٤

(٢) ق ١٦

(٣) الأنعام ١٨

(٤) المائدة ٥٠

وهذه الدول القوية صاحبة النفوذ والسلطان ، فماذا فعلت في قضايا الحق والعدالة ؟ هل أنصفت شعباً من الشعوب ووقفت بجانبه لاستخلاص حقوقه من ظالميه ؟ أم كانت تمثل ذئاب البشرية مع هذه الشعوب ؟ فكيف يمكن لهذه الدول أن تضع نظاماً عالمياً إنسانياً وعادلا ؟

بل هذه الدول كلها من صغيرة وكبيرة ، فماذا تصنع مع شعوبها بالذات ؟ هل حققت لها حكوماتها العدالة ، وطبقت فيها المساواة ، هل انصفت شعوبها من نفسها ، فأقامت الحق وسحقت الباطل ، أم سخرتها كقطعان الماشية واستخدمتها لمصالحها ومصالح انصارها المقربين ، أو تحكمت فيها وتملكت رقابها وساقتها إلى موارد حتفها ؟

لهذا كله ولأكثر من هذا كانت البشرية في اشد حاجة إلى الرسل الذين يحملون من عند الله النظام الصالح والمنهج الواضح ، ليرسموا لها طريق الحياة على ضوء ذلك المنهاج الذي يحملونه ، ويوضحوا لها معالم هذا الطريق ، مستنيرين بنور ذلك المنهاج الإلهي الذي يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

ومن المعلوم أيضاً أن الإنسان تقوم به مجموعة من الغرائز الفطرية ، والدوافع الذاتية ، التي تلح عليه وتضغط بوسائلها المحببة لديه ، بأن يشبعها بأي وسيلة سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة ، فهي لا تنظر إلا بعين واحدة ، وهي عين الذات الشخصية ، كالغريزة الجنسية ، القائمة على الشهوة العارمة ، وغريزة الاستعلاء المدمرة ، وغريزة التملك المسيطرة ، والغريزة الغضبية والمقاتلة ، التي قد تكون في أكثر الأحيان معتدية ، وغيرها من الغرائز القائمة على الأنانية وحب الذات فقط ، وهذه الغرائز تريد إشباع نهمها ولا تبالي بآلام الغير ، وأحزان الآخرين ، فإذا تركت هذه الغرائز دون تقييد أو تحديد ، ودون توجيه أو تنظيم ، كانت وسائل تدمير وإهلاك للإنسانية ، لا وسائل تعمير وبناء لها ، وأصبح الناس يعيشون كحيوانات مفترسة في غابة ، يأكل القوي منهم الضعيف ، ويكثر السلب والنهب ، والسفك للدماء والفتك بالابرياء ،

ويكثر الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض ، فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد لهذه الغرائز التي تثير شتى الانفعالات ، والدوافع الذاتية في الإنسان من تقليم وتطعيم ، وتربية وتوجيه ، وتدريب وتهذيب ، حتى يمكن إصلاحها ، واستقامتها ، لاستغلال جوانب الخير والفضيلة فيها ، وهذا لا يكون إلا عن طريق القدوة الصالحة ، ووجود المربي المثالي المصلح ، وليس هناك من يستطيع القيام بمثل هذه المهمة العظيمة والخطيرة إلا الرسول المعصوم من الخطل والزلل ، المحفوظ من الخطأ والخلل ، المحصن من الفواحش والرذائل ، المؤيد من عند الله بقوة المعجزة ، التي تبهر العقول ، وتستولي على النفوس ، وتخضع لها القلوب ، فتنقاد لتوجيهات الرسول وإرشاداته في السيرة والسلوك .

ولو لم يرسل الإله رسله لبقي الناس في ضلالاتهم ، ولما أمكن لومهم أو عقابهم من الله تعالى ، ولكان لهم حجة قوية على الله تعالى بأنه لم يرسل إليهم من يبلغهم ما يريده أو ما لا يريده منهم ، ويرغبهم في ثوابه ويحذرهم من عقابه ، حتى يعرفوا واجبهم نحو ربهم ، لأنه لا عقاب إلا بعد تبليغ الأوامر المطلوبة ، والمنهيات المحظورة ، قال تعالى ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزياً حكيماً ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ (١) .

فإذا كان الإنسان بطبيعته وحكم تكوينه لا يدرك بعينيه الأجسام إلا إذا أشرق عليها النور ، وسقط عليها أشعة من الضياء ، وهو لا يبصر منها شيئاً في الظلام الحالك ، فهو من باب أولى لا يدرك بعقله حقائق الكائنات وصفات الموجودات ، إلا إذا أشرقت عليها أنوار الشرائع الالهية ، وأضواء الديانات السماوية ، التي يحمل مشعلها رسل الله ، الذين أرسلهم لهداية الإنسانية ،

---

(١) النساء ١٦٥

(١) طه ١١٤

وإخراجها من ظلام الكفر إلى نور الإيمان ، واتباع دين الحق ، والى بناء الحياة على العدل والحق ، قال تعالى ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ [1] .

* * *

(١) المائدة ١٥ ـ ١٦

معنى النبي ومعنى الرسول والفرق بينهما

النبيء والنبي ، بالهمز والتسهيل ، مأخوذ من النبأ ، وهو الخبر ، وهو إما أن يكون اسم فاعل بمعنى مُنْبِيء أي مُـخْبر الناس بالوحي عن الله تعالى . أو يكون اسم مفعول بمعنى مُنْبئا بالوحي ، أي مُـخْبَر به عن الله تعالى :

والنبي ، هو إنسان اصطفاه الله وأوحى إليه بأمر ما .

ونزول الوحي عليه ، هو معنى « اصطفاؤه بالنبوة » ووظيفته الدعوة إلى العمل بشريعة الرسول الذي جاء قبله وتفسيرها للمؤمنين بها . والرسول ، هو إنسان اصطفاه الله وأوحى إليه بشريعة يعمل بها ويبلغها للناس ، فالوحي إليه ، هو معنى « اصطفاؤه بالنبوة » وتكليفه بالتبليغ هو معنى « إرساله رسولاً إلى الناس » وعلى هذا ، فكل رسول نبيّ ، وليس كل نبيّ رسول ، قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ (١)

فقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا ﴾ فذكر كلمة أرسلنا والإرسال هنا يشمل النوعين ، الرسول والنبي ، ثم قال : ﴿ من رسول ولا نبيّ ﴾ فكلمة « رسول » فهي تخص الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ الرسالة التي أوحاها إليه إلى المخالفين له تعالى ، وكلمة «نبيّ » تخص من كلمه الله بوحي ليعلم جماعة المؤمنين الذين عندهم فَهْمٌ وإدراك ، فالأنبياء في وظيفتهم ، هم كالعلماء الذين ينقلون

---

(١) الحج ٥٢

إلى الناس أقوال الرسول وأفعاله في دينه وشريعته ، ويفسرونها لهم ويشرحونها . وعدد الأنبياء ـ كما جاء في الحديث ـ مائة ألف وأربعة عشر ألف نبي .

وعدد الرسل ؛ ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً .

ولم يعين القرآن الكريم أحداً من الأنبياء غير المرسلين ، وقد تحدث عن بعضهم عرضاً في قصة أوردها عن بني إسرائيل حيث قال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ (١) ولم يبين لنا أنه مرسل ، وبين أنه من بعد موسى ، فدل على أنه نبي فقط ولم يكن رسولاً .

وأما الرسل فقد عين منهم القرآن الكريم خمسة وعشرين رسولاً وهم : آدم ، ادريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، اسماعيل ، اسحق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، أيوب ، ذو الكفل ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ، الياس ، اليسع ، يونس ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام جميعاً .

والحكمة من ذكر هؤلاء الرسل فقط دون غيرهم من الرسل الآخرين الذين أشار القرآن إليهم بقوله ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ (٢) ذلك لأن هؤلاء الرسل عاشوا وأرسلوا في بلاد العرب والشام ، فالعرب الذي نزل القرآن بلغتهم وعلى رجل منهم ، لهم صلة بهؤلاء الرسل في المساكنة في أرض واحدة ، فهم معروفون عندهم ، ويعرفون ديارهم وآثارهم وبعض أخبارهم ، وما وقع لأممهم من العذاب والهلاك لما كذبوهم .

والبعض الآخر معروف عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المجاورين للعرب ، فذكر قصصهم وما حصل لهم من التصديق أو التكذيب ، وما وقع

---

(١) البقرة ٢٢٦

(٢) النساء ١٦٤

لأممهم من الهلاك والتعذيب ، فيه تذكار واعتبار لأولى الأبصار من العرب الذين بعث محمد ﷺ منهم وفيهم ليبلغهم ويبلغ الناس جميعاً رسالته ، فإن وقفوا منه ومنها موقف المكذبين والمعارضين من الأمم السابقة لرسلها ، وقع بهم من العذاب وأصابهم ما أصاب تلك الأمم المكذبة لرسلها .

وقد أخبرنا القرآن أيضاً ، أنه ما من أمة من أمم الأرض التي خلت إلا جاءها رسول من عند الله يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده من الألوهية والطاعة والعبادة قال تعالى : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاءهم رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٣) .

ويجب علينا أن نؤمن بهم جميعاً ، تفصيلاً وبالتعيين لمن ذكرت أسماؤهم لنا ـ وهم الذين تقدمت أسماؤهم ـ وإجمالاً في إرسال الله رسلاً لكل أمة ، لأنهم جميعاً من عند الله تعالى متفقين في مبدأ الرسالة وهدفها ، وإن اختلفوا في فروعها وتفصيلاتها ، لاعتبارات سنتحدث عنها .

فمن كذب رسولاً واحداً ، فقد كذب جميع الرسل ، لأنك لو فرضت أن جماعة من الناس جاءوا بخبر واحد متفقين عليه ، وكذبت واحداً منهم في هذا الخبر بالذات ، فكأنك قد كذبت الجميع في هذا الخبر ، وتكذيب رسول من هؤلاء الرسل ، هو كفر بالله وبجميع رسالاته ، لذا فالمؤمنون بالله ، هم يؤمنون به وبجميع رسله قال تعالى ﴿ آمن الرسول بما أنزل عليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ (٤) .

* * *

(١) فاطر ٢٤
(٢) يونس ٤٧
(٣) النحل ٣٦
(٤) البقرة ٢٨٥

التدرج في موضوع الرسالات
وحكمـــة تعددهـا

من المعلوم بداهة أن الجنس البشري ، بدأ حياته كما بدأ الطفل حياته ، في نمو عقله ، وتقدم تفكيره ، فكانت تأتيه الرسالة بتعاليم الإله ، مناسبة لمدى تفكيره ، ونمو عقله ، حتى يستطيع فهمهـا وهضمهـا دون أن تكون هنـاك صعوبة تعوقه في تطبيقها على واقع حياته ، وكان كلما بعد الزمـن بينـه وبـين الرسالة التي جاءته ، وضاعت معالمها ، واندرست آثارها ، كلما جاءت رسالة أخرى تجدد ما اندرس من الرسالة السابقة ، وتزيد عليها تعاليم وأفكاراً دينية تقدمية ، أوسع مدى وأشمل حاجة ، أو تقتصر على نفس الرسالة السابقة التي حوتها الكتب التي نزلت ، مثل رسالة يوسف عليه السلام ، فهو رسول وهو على شريعة إبراهيم ، ومثل داود وسليمان ، فهما رسولان ولكن على شريعـة التـوراة والزبور ، وكذلك عيسى عليه السلام فهو على شريعة التوراة والإنجيل ، وكذا الأمر في بعض الرسل الآخرين .

وكان هناك أسباب متعددة لتعدد الرسالات وعدم الاقتصار على رسالـة واحدة تعم الجميع .

أولا : توزع البشرية على مناطق نائية ومتباعـدة عن بعضهـا من أقطـار الأرض ، وانقطاع المواصلات بينها لوعورة المسـالك ، والخـوف من الأسفار واجتياز المسافات الشاسعة ، فلـم يكن هنـاك التقـاء بـين البشر لا في الأفكار والخبرات ، ولا في الروابط والعلاقات ، لذلك نرى هذه الرسالات تأتي بتعاليم

لسد حاجتها البدائية ، فلا تتجاوز أسس العقيدة وأصول العبادة ، ومبادىء الأخلاق ، وبعضاً من الأحكام التشريعية من حلال وحرام .

وإلا فمن غير المفيد قطعاً أن تأتي رسالة كاملة وشاملة إلى هؤلاء الأقوام البدائيين في التفكير ، والبداوى في المعيشة والحياة ، تحوي نظاماً إنسانياً عالمياً ، شاملاً لأصول التجارة والزراعة والثقافة والسياسة والعمران والاجتماع ، إلى غير ذلك من طب وهندسة وعلوم متنوعة وفنون كثيرة مما لا يحتاجون إليها ولا تخطر على بال .

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (١) .

ثانياً : تعدد اللغات وقلة انتشار تعليم هذه اللغات المتعددة وانتقالها من شعب إلى شعب آخر لوجود الصعوبات والعوائق المتقدمة .

ثالثاً : تفاوت الاستعدادات الفكرية ، والاختلاف في درجة الثقافة ، فما كان يناسب شعباً من الأفكار والتكاليف الشرعية ، قد لا يناسب شعباً آخر ، لتقدمه عليه أو تخلفه عنه ، لذلك كان كل رسول يبعث إلى أمة بعينها وبلغتها ولا يكلف بتبليغ رسالته إلى أمة أخرى .

وسيأتي شرح هذا بالتفصيل .

* * *

(١) الأسراء ٨٥ .

الحكمة من عموم رسالة الإسلام

وهكذا بقي ركب الإنسانية يسير من مرحلة بدائية إلى مرحلة أخرى أرقى منها فكرية وتقدمية ، حتى تقاربت الأمم في الافكار ، وتقاربت الشعوب في المنازل والديار ، فسهلت المواصلات ، وكثر المتعلمون والدارسون للغات ، فالتقت الأمم بعضها مع بعض ، نتيجة للحروب التي كانت تقوم ولا تهدأ ، وتستمر ولا تنقطع ، ونتيجة للتجارات واجتياز القارات ، وحاجة كل شعب للشعوب الأخرى فكرياً ومادياً ، فانتشرت على أثر ذلك الآراء والأفكار في العقيدة والدين ، التي تعلمها الناس عن الأنبياء السابقين ، ومن كتبهم المنزلة ، فكانوا يتناقلونها في أسفارهم وارتحالهم وتجاراتهم ، حتى أصبحت الإنسانية بعد بساطتها وسذاجتها على غاية من النضج العقلي ، والرقي الفكري ، والتقدم الاجتماعي والثقافي ، واستعدت الأمم والشعوب استعداداً تاماً إلى تلقي ديانة واحدة تجمع في أصولها وقواعدها مبادىء تلك الديانات السماوية المتعددة ، وتشمل في نظامها وأحكامها جميع المبادىء والمناهج الصالحة لرقي الانسانية وتقدمها ، وتكون قائمة على الأفكار المجردة التي هي من شأن الرجال الكبار والعقلاء الناضجين ، لا على إقناع الحواس كإقامة الأدلة والبراهين بالمعجزات المحسوسة والمشاهدة ، التي تبهر الأطفال الصغار فتقنعهم ، لأن الإنسانية قفزت من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة ، فجاءتها الرسالة العالمية في صلاحها وشمولها ، والإنسانية في مبادئها وأخلاقها ، فكانت هي رسالة الإسلام ، رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

كانت الرسالات السابقة تشبه الجداول والسواقي والأنهر ، وكانت رسالة

محمد ﷺ هي البحر المحيط الذي تصب فيه تلك الأنهر ، فجمع جميع ما في الرسالات السابقة مما يصلح للبشر ، وكان مؤيدا لها ثم اصبح هذا البحر المعطاء هو المصدر الوحيد لمد الأحياء بماء الحياة ، ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[1] ، فعمت خيراته البلاد والعباد ، وشملت بركاته الأقطار والأمصار .

وكانت رسالات الرسل السابقة شموعاً تضيء درب الانسانية الذي تسير عليه قوافل الأمم ، ثم جاءت رسالة محمد ﷺ شمساً تشرق على الأرض فأضاءت معالم سبلها .

كانت رسالة محمد ﷺ عامة لجميع الناس ، بعد أن كانت الرسالات من قبل تأتي لبعض الناس .

جاءت رسالة محمد ﷺ بكل تقدم روحي وعقلي وعلمي وأخلاقي وسياسي واقتصادي واجتماعي وعمراني ، وبكل ما يكفل للإنسانية سدادها ورشادها ورقيها وسعادتها .

جاء محمد بدين واحد للإنسانية جمعاء أساسه الإيمان بإله واحد وكتاب واحد ، يدعوهم إلى الوحدة وجمع الكلمة والمساواة في الحقوق والواجبات ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾[3] ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾[4] .

وقال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة »[5] .

---

(١) آل عمران ٨٥
(٢) الحجرات ١٣
(٣) الأعراف ١٥٨
(٤) سبا ٢٨
(٥) البخاري ومسلم

ولما كانت رسالته عامة للناس جميعاً ، ابتدأ بإبلاغ دعوته إلى الأقربين من عشيرته ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[1] ثم أبلغها قبائل العرب ثم الملوك والأمراء في عصره ، كتب كتباً إلى النجاشي وإلى قيصر الروم وإلى كسرى فارس وإلى المقوقس في مصر وإلى سائر الأقطار المجاورة ، وهذا ما يدل على أن رسالة الإسلام عامة للناس وليست بخاصة للعرب .

(١) الشعراء ٢١٤

معجزات الرسل

إن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم بشر من الناس ، اصطفاهم الله من خلقه ، واختارهم لحمل رسالته وتبليغها لأممهم .

ولكن وظيفة الرسل شاقة جداً ، بل هي من أشق الأعمال وأشدها صعوبة ؛ لأن الرسل مكلفون بتبليغ الناس ما يخالف عاداتهم وعباداتهم ومعتقداتهم المتأصلة فيهم ، وأخلاقهم المتمكنة منهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، ومكلفون بدعوتهم إلى أن يبتعدوا عن شهواتهم وملذاتهم ، وينزلون الأغنياء وأصحاب الجاه والسلطان عن عروشهم ومكانتهم التي بسببها نالوا تلك المنازل وارتفعوا بها على غيرهم ، ويجعلونهم يتساوون مع بقية الناس ، من فقراء ومغمورين ، وأن موازين الأمتياز والتقدير هي الإيمان وتقوي القلوب ، والعمل الصالح ، وأن من يقوم بهذه المهمة ، لا يعرض نفسه للتكذيب والمعارضة فحسب ، بل يعرض نفسه إلى الأحقاد السوداء ، والضغائن الهوجاء ، والسخط والغضب الذي قد يؤدي إلى قتل الرسول وهلاكه ، وإيذائه أشد الأذى على الأقل، ولولا تأييد الله لهم بالمعجزات المفحمة لما قامت لهم قائمة .

لذلك كان لا بد للرسول من حجة قوية قاطعة لكل اعتراض ، تقمع المعاندين والمكذبين ، وتقنع أهل الشك والمترددين ، وتفحم المناقشين والمجادلين ، وهذه الحجة لا ينبغي ان تكون من عمل البشر ، أو في مقدورهم ، وإلا لاستطاع كل إنسان أن يزعم للناس أنه نبي مرسل ، فلا يعرف الصادق من الكاذب ، وهذا أمر بديهي لا يحتاج إلى إثبات .

فالدول اليوم عندما تنتدب سفيراً لها لدى دولة أجنبية يمثلها ويتكلم باسمها في تلك الدولة ، وليُمَكِّن أواصر الصداقة والعلاقات الطيبة بين الدولتين ، وليعقد المعاهدات الاقتصادية والتجارية والثقافية وغيرها ، فلا بد له من أن تزوده دولته بأوراق اعتماد ، يثبت بها انه سفير دولته ، يقدمها إلى رئيس الدولة التي يمثل بلاده فيها ، حتى تثق فيه ، وتعتمد عليه في تمثيل دولته ، وإبرام العقود والمعاهدات ،وإلا لسهل على أي إنسان أن يدعي أنه سفير دولة كذا كما تقدم .

ومن هنا كانت حجة الرسول في صدق دعواه بأنه رسول من عند الله ، هي المعجزة الخارقة للعادة ، والتي ليست مما يقدر على فعلها البشر ، حتى تنقطع حجتهم ومعارضتهم له ، بأن هناك من يقدر أن يأتي بما أتى به مدعي النبوة والرسالة ، فلا تثبت رسالته .

ولما كان الإله الذي أرسل الرسول قادراً على كل شيء ، وهو الذي خلق الأسباب والمسببات ؛ وربط بعضها ببعض ، فهو وحده الذي يستطيع أن يخرق العادات والقوانين الجارية ، والسنن الطبيعية ، اللازمة .

فالمعجزة مأخوذة من الإعجاز ، وهو إثبات العجز عن الإتيان بمثلها ، وهي : الأمر الخارق للعادة في نظام الكون وقوانين الطبيعة ، يجريه الله تعالى على يد من أرسله تأييداً لصحة نبوته ، وصدق رسالته . مثل نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ ، حتى توضأ وشرب منه نحو من ثلاثمائة رجل كانوا في أحدى الغزوات ، وكعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام لما القي فيها ، وكفلق البحر وقلب العصا حية لموسى عليه السلام ، وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام .

فهذه الأمور ليست في قدرة البشر ، ولا تقع تحت طاقتهم ، بل هي من فعل الإله القادر على كل شيء .

وأما السحر ، فهو يقوم لا على الإعجاز ، بل على معرفة الأسباب

والمسببات وإن كانت خفية على كثير من الناس ، ولكن في مقدور أي إنسان أن يقوم به إذا علم أسبابه ومسبباته ، لذلك كان سحرة فرعون ـ وهم أساطين السحر ـ علموا أن عمل موسى لا يدخل في نطاق السحر ، فخروا سجداً لرب موسى وهارون ، وآمنوا بالله تعالى مع تهديد فرعون لهم ، بل وتنفيذ هذا التهديد ، بالقتل والصلب على جذوع النخل ، فلم يمنعهم ذلك من الثبات على إيمانهم الذي اعتقدوه وأيقنوه ، وقال تعالى : ﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا إن كنا أول المؤمنين ﴾ [1] .

* * *

(١) الشعراء ٤١ ـ ٥١

الفرق بين معجزات الرسل ومعجزة الرسول محمد ﷺ

سبق أن قلنا : إن البشر بدأوا حياتهم كما يبدأ الطفل حياته في انتقاله من طور إلى طور آخر ، ينمو عقله معه ، وتنمو مداركه مع نمو جسمه ، لذا نجد التعليم الناجح هو ما يقدم للأطفال من المعلومات ، ما يناسب عقولهم الساذجة ومداركهم البسيطة ، فإذا كانوا في مرحلة دُورِ الحضانة وأولى مراحل التعليم الابتدائي ، فخير ما يقدم لهم من المعلومات ، ما يقوم على الحس والمشاهدة ، والإكثار من وسائل الايضاح التي تقنع الطفل الساذج . إقناعاً فطرياً ـ بصحة ما يلقنه معلمه من المعلومات ، وتجعله يميز بينها ويدركها بحواسه ، فإذا نما عقله وتوسعت مداركه يعطي بعض المعلومات الفكرية ، مع الإكثار من الشرح وإيراد الأمثلة الحسية ، وهكذا حتى ينضج عقله ، ويبلغ مبلغ الرجال المفكرين ، حينئذ يعطي النظريات العلمية الصرفة ، والقضايا الفكرية المحضة ، ويوجه توجيها فكرياً خالصاً ، ويترك لوحده يمارس البحث والنظر والمقارنة والاستنتاج ، ليستنبط المعلومات التي يكتسبها من البحث والجهد الشخصي والاطلاع ، حتى تنمو مواهبه ومداركه وتنضج ملكته . وكذلك كان شأن الرسالات ، وشأن المعجزات مع البشر ، تنزل وتأتي بحسب تقدم الناسع العقلي والفكري ، لأنها ديانات مرحلية ، وليست بديانات دائمة ، لأن الإنسانية كانت في عهد طفولتها وصباها الفكري ، فلا تستطيع إدراك المعجزات العقلية الصرفة ، لذا كانت تأتيها التعاليم والتوجيهات بسيطة ومحدودة ، والمعجزات الدالة على صدق الرسل ، حسية ومشاهدة ، يرونها بأعينهم فتبهرهم وتعجزهم ، وتنقطع لذلك حجتهم في المعارضة ، فلا يسعهم إلا الإيمان

والاستسلام لرسولهم ، والاعتراف بعجزهم عن محاكاته ومجاراته ، أو العناد والتمرد على رسولهم وعلى الدين الذي جاء به ، مع اعترافهم بعدم قدرتهم على الاتيان بمثل ما جاء به رسولهم من المعجزة ، فيعقب هذا العناد والتكذيب العذاب الذي يقع بهم فيدمرهم ويهلكهم بعد قيام الحجة عليهم .

وبالأخص كانت هذه المعجزات تأتي في الغالب ، من جنس الأمور التي يتفوق فيها النوابغ والعباقرة منهم ، لأن هؤلاء إذا عجزوا عن الاتيان بمثل ما يتحداهم به الرسول ، والذي هو من جنس اختصاصهم ، فغيرهم أعجز عن الإتيان بمثله ، مثل انقلاب عصا موسى حية حقيقية التهمت سحر السحرة ، فقد عاينوا ذلك وشاهدوه ، فلم يسعهم إنكاره ، فاعتقد السحرة أن هذا ليس بسحر ، وأنه ليس بمقدور البشر الإتيان بمثله ، فخروا سجداً لرب موسى وهارون ، ولم يمنعهم من الإيمان تهديد فرعون لهم وتنفيذه هذا التهديد .

ومثل تصوير عيسى للطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً حقيقياً بإذن الله ، ومثل إحيائه للموتى بإذن الله إحياء حقيقياً لا سحراً ظاهرياً ، وكان يجري كل ذلك على مرأى ومسمع من الناس .

وكان السحر في زمن موسى ، والطب في زمن عيسى ، مطمح الأنظار ، تهفو إلى تعلمه النفوس ، ويمتهنه عباقرة المجتمع وعقلاؤهم ، وكان السحرة والأطباء لهم المقام الأول عند الناس .

وهكذا كانت معجزات الرسل التي جاءت على أيديهم ، ولكن أين عصا موسى اليوم ، وأين ما أحياه عيسى بإذن الله من طير وإنسان ميت ؟ ذهب كل ذلك من الوجود ، ولم يبق منه إلا ما سجله الحق في كتاب الخلود، يُتْلى للذكرى والاعتبار فهو حي في ضمير المؤمنين .

وأما معجزة محمد ﷺ ، فقد جاءت حين نضج عقل الإنسان وتوسعت مداركه ، وامتد أفق تفكيره ، وقد اجتازت البشرية مرحلة طفولتها البدائية ،

ومرحلة صباها المراهقة ، ودخلت في مرحلة الرجولة والكمال العقلي ، فمن غير اللائق أن يأتي لطلاب الجامعة مثلاً بالمحسب ووسائل الإيضاح المحسوسه ، حتى تفهمهم المعلومات التي تلقيها عليهم ، لأنهم اجتازوا هذه المرحلة الطفولية ، وأصبحوا في مرحلة يكفي أن تعرض عليهم الفكرة أو القضية ، أو تصور لهم النظرية مع ضرب الأمثلة المجردة حتى يفهموها ويهضموها .

وكذلك كانت معجزة الرسول ﷺ عقلية صرفة ومنطقية مجردة ، تتناسب مع نضج الإنسانية وتقدمها الفكري والعقلي ، فهي معجزة إنسانية عامة ودائمة ، لأن التقاء العالم بعضه مع بعض أصبح واقعاً وسهلاً وميسوراً ، وأصبحت العلاقات والصلات بينهم قائمة ومتشابكة الأطراف ، ومتداخلة المصالح .

فالعالم أصبح في حاجة إلى دين واحد ، يجمعهم ويؤلف بينهم ، ويكون قادراً في مبادئه وأحكامه وقواعده وأصوله ، على حل مشاكلهم ، وإزالة الخلافات والفوارق بينهم ، فكان الإسلام هو الدين الذي جاء لهذا الغرض الإنساني ، فقد حوى كتابه ما جاءت به كتب الأنبياء من العقائد ، وجمعت رسالته ما جاءت به الرسالات من القواعد ، وزادت عليها من الأحكام والنظام ما تقتضيه ظروف الحياة ، حتى أصبحت ديانة للانسانية ، خالدة وصالحة لأهل الأرض من بدو وحاضرة ، وكتابه باق إعجازه ، ودائم وجوده ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون ﴾ ، ومحفوظ من التغيير والتبديل ، والزيادة والنقصان ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكم حميد ﴾[1]

فليس بعد القرآن كتاب ينزل ، وليس بعد رسول الإسلام نبي يبعث ، وليس بعد الإسلام دين ، ومن يتبع غير الإسلام ديناً وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾[3] .

---

(١) فصلت ٤٢ (٢) آل عمران ٨٥ (٣) المائدة ٣

لذلك كان محمد رسول الإنسانية لصلاحها ورشادها ، ولانقاذها ونجاتها ، وكان القرآن معجزة البشرية ، في البلاغة والأسلوب ، وفي المبادىء والنظام ، وفي التشريع والأحكام ، وفي الأخبار عما كان وعما سيكون (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [1] .

* * *

(١) الاسراء ٨٨

صفـات الرسل

الرســل جماعـة من البشر يتصفـون بجميع الصفـات البشرية ، يأكلـون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، ويتزوجون ويتناسلون ، وينامـون ويمرضـون وغير ذلك من صفات البشر .

غير أن الله طهّر قلوبهم من الأحقـاد والضغائـن ، وزكى نفوسهـم من السفاسف والرذائل ، وحماهم من كل خُلُق ذميم ، ومن كل آفة جسمية تُنَفِّـر الناس منهم ، وتبعدهم عنهم ، واختارهم لحمل رسالته إلى خلقه ، يبلغونهم إياها كاملة غير منقوصة .

وكما أن الله تعالى أيدهم بالمعجزات الدامغة ، أيدهم كذلك بصفات خاصة تقوم بهم على وجه الوجوب العقلي وهي :

الصدق ، والفطانة ، والتبليغ ، والأمانة ، فهذه الصفات لازمة للرسل ، لا يتخلون عنها مطلقاً ، لأنه لا يمكن أن يؤدوا الرسالة كما كلفوا بها من تبليغ ما ينفع العباد في أمور الدين والدنيا ، فتقطع حجة الناس عليهم ، فلا يوجه إليهم تهمة الشك أو الطعن في رسالتهم إلا إذا اتصفوا بهذه الصفات الأربع .

أولا : فيجب اتصافهم بالصدق : أي أن تكون أخبارهم التي ينقلونها كلها مطابقة للواقع ، فلو جاز عليهم الكذب ، لجاز أن يكذبوا في الإخبار عن الله تعالى ، والله تعالى قد صدقهم بالمعجزة التي أظهرها على ايديهم بأنهم صادقون في كل ما يبلغونه عن الله تعالى ، فكذبهم يؤدي إلى كذبه تعالى في تصديقه إياهم

بتلك المعجزة التي أجراها على أيديهم ، والكذب على الله محال ، فكذبهم إذن يكون محالاً لا محالة .

قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [1] .

إلا أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم حالتان بالنسبة للخطأ والصواب الذي يصدر عنهم ، حالة من خصائص تبليغهم الرسالة .

وحالة من خصائص إنسانيتهم ، فما كان من خصائص التبليغ ، فلا يقع منهم الخطأ مطلقا ، لأنهم معصومون عنه ، حتى لا يتطرق الشك إلى كل قول أو فعل يتعلق بالتشريع والأحكام مما يصدرعنهم ، فتبطل بذلك الشريعة التي جاءوا بها ، والإله أيدهم بمعجزاته لأنهم على حق ، فوقوع الخطأ منهم في هذا التبليغ محال .

وأما ما يخص إنسانيتهم ، فهم بشر ، يصيبون ويخطئون ، ولكن أخطاءهم ليست كأخطائنا التي قد تكون خطأ محضاً لا تحتمل الصواب .

فهم يجتهدون كبقية البشر ، وقد يفتون أو يفعلون خلاف الأولى ، فالأولى وما دونه كلاهما حق وليس بباطل ، فلا يعتبر خطأ يضر بعصمتهم ، هذا إذا لم ينزل الوحي ، أما إذا نزل الوحي بذلك مؤيداً أو مصححاً ، فهم يلتزمون الحكم الذي نزل به الوحي .

هذا أيضاً إذا لم يكن قد نفذوا ما اجتهدوا به ، وإلا كان نزول الوحي مجرد عتاب على ترك الأولى ، مثل اجتهاده ﷺ في أسرى بدر لما قبل منهم الفداء بعد استشارته أصحابه ، وقد نزل العتاب بقبول الفداء ، بينما كان الأولى أن يثخنوا في القتل (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض

---

(١) الحاقة ٤٤ ـ ٤٧

الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ولولا كتاب من الله سبق لمسلَم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [1] وذلك لأنهم يعودون لقتال المسلمين . ومثل اجتهاده بالإذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك حيث كان الأولى عدم الإذن لهم حتى ينكشفوا على حقيقتهم أمام المسلمين فقال تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلـــم الكاذبين ﴾ [2] .

ثانياً : وتجب لهم الفطانة : وهي الانتباه وشدة التيقظ في أسلوب مناقشة الخصوم ، لإظهار الحجة عليهم ، وإفحامهم بها ، والتبصر بطرق إبطال دعواهم الباطلة ودحضها ، لأنهم لو كانوا بلهاء ومغفلين لا يحسنون المناقشة وإقناع الخصوم وإقامة الحجة عليهم ، لبطلت دعواهم الرسالة ، لضعف حجتهم وتقصيرهم في بيانها . فالرسالة وإن صحت عن طريق المعجزة ، فلا بد من حجية الإثبات عن طريق الاستدلال والاقناع ، فالرسل كالأطباء النطاسيين الذين يعرفون العلل والأمراض ، ويعرفون أدويتها وطرق علاجها ، فهم يضعون الدواء على الداء ، ويزيلون بذلك العلل والأمراض ، بأدويتها الخاصة بها ، لذلك نجد الرسل الذين تحدث عنهم القرآن من أبلغ الناس بياناً ، في الادلاء بحجتهم ، ومن أحسن الناس أسلوباً في الدفاع عن رسالتهم ، يرفعون منار الدعوة ، ويثبتون احقيتها بالبراهين الدامغة ، ويدحضون شبهة الخصوم والمعارضين وقد أبرز القرآن الكريم جانباً من هذه المحاورات والمناقشات التي جرت بين الأمم ورسلهم .

ثالثاً : ويجب عليهم التبليغ ، أي تبليغ ما جاءوا به من عند الله تعالى وأمروا بتبليغه ، وإلا فقدوا معنى كونهم رسلاً مبلغين عن الله ، لأن الرسول هو المبلغ ، فإن لم يفعل ، أو أخفى شيئاً منها ، فلا يكون رسولا ، قال الله تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ [1] .

---

(١) الأنفال ٦٧ ـ ٦٨ (٢) التوبة ٤٣ (٣) التوبة ٦٧

لأن كتمانهم ذلك يعرضهم لغضب الله وسخطه لقوله تعالى ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾[1] فالآية وإن كانت قد نزلت في حق اليهود الذي كتموا رسالة محمد ﷺ ، الموصوف والمعروف عندهم في التوراة فهي عامة تنطبق على كل من يكتم ما أنزله الله للناس ، فكيف يكون هذا من الرسل عليهم الصلاة والسلام وهم المصطفين الأخيار ، وهم حجة الله على عباده في تبليغ رسالاته ؟ قال تعالى ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[2] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل مما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس[3] .

لذلك فهم معصومون عن كتمان أي شيء من رسالته التي أرسلوا من أجل تبليغها .

رابعاً : وتجب لهم الأمانة وعدم المعصية وهي أن يحفظ الله نواياهم وأعمالهم من كل معصية أو مخالفة لله تعالى ، لأنه لو جاز عليهم فعل المعاصي ، لجاز عليهم أن يخونوا الله في رسالته ، أو في بعضها ، فلا يبلغوها للناس أو يغيروا شيئاً منها أو يبدلوه ، أو يأمرون الناس بالمعاصي والمخالفات ، فكيف يكون هذا منهم ونحن مأمورون باتباعهم وتقليدهم في أقوالهم وأعمالهم ، وجميع أحوالهم ، قال تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[4] وقال تعالى ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾[5] والله تعالى لا يأمر بالمعصية قال تعالى ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[6] .

لذا فلا تقع منهم معصية قولاً ولا فعلاً ولا يأمرون بها لأنهم معصومون عن ذلك .

---

(١) البقرة ١٥٩
(٢) النساء ١٥٦
(٣) المائدة ٦٧
(٤) آل عمران ٣١
(٥) الحاقة ٤٤ ـ ٤٦
(٦) الأعراف ٢٨

وأما ما ورد مما يوهم وقوع المعصية من بعض الأنبياء وفي توبتهم واستغفارهم من ذلك مما يدل على وقوعها منهم ، فما جاء من الأحاديث من طريق الآحاد فمردود ، إما لحملهاوتفسيرهاعلى غير محملها الصحيح ، كأن يفهمها بعض الناس على ظاهرها أنها معصية ، وهي في الحقيقة غير معصية ، وإما لضعف في بعض رواتها ، وإما لأن الحديث الآحاد يحتمل الطن، وعصمتهم تقتضي اليقين ، واليقين مقدم على الظن ، فيسقط الظن وهو معصيتهم ، ويثبت اليقين وهو عصمتهم وعدم وقوع المعصية منهم .

وأما ما جاء بطريق التواتر سواء أكان حديثاً أو نصاً في القرآن الكريم ، فيحمل على وقوع ذلك، منهم سهواً أو نسياناً أو ترك الأولى ، أو ما شاكل ذلك من التأويلات المذكورة في مظانها من كتب التفسير أو كتب العقائد .

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

« دليل البحوث »

١ ـ الإيمان باليوم الآخر . ١٧٥
٢ ـ القضاء والقدر . ١٨٨
٣ ـ هل نحن مسيرون أم مخيرون ؟ ١٩٥
٤ ـ الجبر والأختيار . ٢٠٤

الإيمان باليوم الاخر

إن هناك معتقدات لا تدخل تفصيلاتها في حدود العقل ، وإن كانت بوجه الإجمال ، يقرها العقل ولا ينكرها بحال .

١ ـ منها ؛ الإيمان باليوم الآخر ، ومعناه : هو اليوم الذي يبعث الله فيه الناس أحياء بعد أن يموتوا جميعاً ، ليحاسبهم على أعمالهم التي جنتها أيديهم في الدنيا من خير أو شر ، فَيُدْخِل المؤمنين ـ بفضله وبإيمانهم وأعمالهم ـ الجنة ، ويدخل الكافرين ـ بعدله وبكفرهم ـ النار ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1] .

والإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب الغائب عن الحواس ، والذي يأتي علمه اليقيني عن طريق الخبر الصادق ، فبعد أن قامت الأدلة العقلية القاطعة على وجود إله متصف بصفات الكمال ، ومنزه عن صفات النقص والعجز ، وقامت الأدلة أيضاً على أن هذا الاله العظيم ، قد بعث رسلاً يبلغون الناس رسالته إليهم ، وأنه قد أيدهم بمعجزات أثبتت صدقهم بكل ما بلغوه عنه .

فعلى هذا ، أن كل ما يخبرونه عن الله تعالى فهو حق لا يحتاج إلى إثبات بالدليل العقلي ، لأن ما أخبروا به مبني على أنه جاء من عند الله ، والله تعالى قد

(١) الزلزال ٧ ـ ٨

صدقهم بذلك بما أجراه على أيديهم من المعجزة التي هي في حكم قول الله تعالى : صدق عبدي بكل ما يبلغه عني ، فإخبارهم باليوم الآخر هم صادقون به لذلك ،ولأنهم معصومون عن الخطأ والنسيان والكذب والغفلة وفي كل ما أخبروا به عنه تعالى ،كما سبق القول في صفات الرسل .

وقد أجمع الرسل في كل الأزمان ، من عهد أول رسول للبشر وهو آدم إلى عهد آخر رسول منهم ، وهو محمد صلىّ الله عليه وعليهم وسلم ، على أن للإنسان حياة أخرى ، غير هذه الحياة الدنيا ، يبعث فيها الإنسان بعد الموت ثم تستمر حياته تلك خالدة باقية لا تنقطع ، وهو في هذه الحياة الثانية ، إما أن يسعد في دار النعيم والخلود ، فيتنعم روحياً وجسمياً باللذات الدائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وإما أن يكون شقياً يتعذب في نار جهنم إلى ما شاء الله تعالى .

فمن آمن بهؤلاء الرسل ، فقد آمن بطريق اللزوم بكل ما جاءوا به عن الله تعالى ، وكان من جملة ما أخبروا به ، وجود الحياة الآخرة ، فمن أنكر شيئاً من أخبارهم المتواترة ، فقد أنكر رسالتهم عموماً ، لأن إنكار الأخبار المتواترة عن الرسل فيما يخص الرسالة التي جاءوا بها ، هو تكذيب لهم جميعاً ، وهو بالتالي تكذيب لله في معجزاته التي أيدهم بها ، وكفر به ويكتبه ورسله جميعاً ، ومن يكون كذلك فليس هو بمؤمن ، وليس له دين على الاطلاق ، لأن جميع الأديان السماوية قررت وجود الحياة الآخرة واعترفت بها ، وإن اختلفت في كيفيتها وتفاصيلها .

٢ ـ على أن الإيمان باليوم الآخر جملة ، لا يرتفع عن الفهم ، ولا يعلو على الإدراك ولا يخرج عن نطاق العقل والتفكير ، لأن معنى البعث ، هو إعادة الحياة من بناء الأجسام وتركيبها بعد فنائها وتفرق أجزائها ، وإعادة الروح إلى هذه

الأجسام المعادة ، سواء كانت نفس الأجسام الأولى أو أصولها مع الزيادة من غير تلك الأجسام الأولى ، أو استبدالها كلية ، على الخلاف في ذلك ، فإن من يعتقد بأن للحياة بداية ، يعتقد بالبداهة ، بإمكانه إعادتها بعد فنائها ، لأن البداية والاعادة أمران متساويان في نظر العقل ، بل الإعادة تكون أسهل من البداية ، لأن البداية اختراع للحياة وللأجزاء التي تركبت منها الأجسام الحية على غير سابق مثال ، بينما الإعادة تركيب جديد يصوَر ومواد سابقة وموجودة ، فإن من يصنع جهاز الساعة أو التلفزيون فهو قادر وغير عاجز على إعادة تركيبه من جديد هو أو مثله بعد تفرق أجزائه ، بل الإعادة تكون أسهل عليه من بداية صنعه ، لأن هذه الاعادة يوجد لها أصل سابق من صورة خارجية ومواد موجودة ومعلومة ، فإذا كان هذا ممكناً بالنسبة لصنعة المخلوق ، فكيف لا يمكن بالنسبة لصنعة الخالق ؟ ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ (٤) وقال تعالى (ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً ؟ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه ولم يك شيئاً ﴾ (٥) .

ومن العجيب الغريب أن هؤلاء الملحدين بالله وبالأديان السماوية ، والكافرين بالله وبالحياة الأخرى ، نجدهم يؤمنون بقدرة العلم الخارقة ، ويؤمنون بالوسائل التي اخترعوها هم أنفسهم لتفسير حوادث الكون أنها تستطيع أن تعيد وقائع الكون كما كانت مرة أخرى ، ثم لا يؤمنون بأبسط التفسيرات وأصحها التي جاء به الدين .

---

(١) الملك ١٤
(٢) مد ١٥
(٣) يس ٧٨ - ٧٩ .
(٤) الأحقاف ٣٣
(٥) مريم ٦٦

يقول العالم الطبيعي البيولوجي هيجل : « إيتوني بالهواء والماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان » .

بمثل هذه السخافة الصفيقة ، والصلافة السمجة ، يزعمون على لسان أحد زعمائهم أنهم قادرون على خلق الإنسان ، وينكرون على خالق الإنسان قدرته على إعادة خلق الإنسان ، فإذا كانوا لا يستطيعون خلق المادة التي تكوَّن منها الإنسان وهي التراب والماء والأجزاء الكيمياوية ، ولا يملكون لأنفسهم الوقت الكافي فكيف يخلقون الأنسان؟ ثم إذا كانوا ـ وهم الضعفاء العجزة ـ بزعمهم إن تيسرت لهم الظروف والمواد ـ وما أكثرها على الأرض ويمكنهم الحصول عليها ـ يستطيعون خلق الإنسان بدعواهم أفلا يستطيع من خلق المادة وأوجد الإنسان أن يعيد الإنسان بعد الفناء كما كان ؟ ﴿ أفعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ (١) ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٢) .

ألا ما أكثر الغباء ، وأشد العماء إذا تجاوز الحد الذكاء .

وهم يقولون أيضاً في تفسيرهم لحدوث الحياة : إن الصدفة التي حدثت صدفة من حرارة ورطوبة ومواد كيمياوية وو . . . . هي التي أوجدت الحياة ، ولو حدثت هذه الصدفة التي ساعدت على وجود الحياة بشروطها مرة أخرى ، لأمكن وجود الحياة مرة أخرى ، فهم يناقضون بذلك أنفسهم بأنفسهم ، لأنهم ينكرون إعادة الحياة من جهة ، ويقرون بإمكان وجودها مرة أخرى من جهة العلم والمادة (ولكن الكافرين بآيات الله يجحدون) .

٣ ـ ثم إن الإله تعالى منصف بالحكمة والعدل المطلق ، وقد خلق الناس بيده وجعل منهم القوي ومنهم الضعيف ، ومنهم الغني ومنهم الفقير ، ومنهم الحاكم ومنهم المحكوم ، وساوى بين الجميع في الحقوق والواجبات ، وكلفهم

---

(١) ق ١٥ .

(٢) يس ٧٨ ـ ٧٩ .

بتكاليف واحدة ، وأمرهم بأوامر حسنة محمودة طلب منهم فعلها ، ووعد من أتى بها بجنة عرضها السموات والأرض ، ونهاهم عن أمور أخرى سيئة مذمومة ، وأوعد من فعلها بدخوله جهنم وساءت مصيراً ، فكيف يليق بالإله الحكيم العادل الذي وعد وأوعد ، يرى الكفر به وترك الطاعة له ، والإقبال على فعل المعاصي من بعض عباده . ثم يرى الإيمان به ، وشدة التمسك بدينه وطاعته ، والبعد عن المعاصي من البعض الآخر ، ثم يرى اعتداء القوي على الضعيف ، وتفاخر الغني على الفقير ، وظلم الحاكم للمحكوم فيسوي بين المؤمن والكافر ، والمحسن والمسيء ، فلا يعاقب الكافر الفاجر والظالم الغادر ، و لا يكافىء المؤمن المحسن الذي قضى حياته في طاعته وعبادته ، مؤمناً به ، ومصدقاً بوعده ووعيده ، فهل هذا جائز فعله في شرع العقل من العادل الحكيم ؟ كلا . لا يمكن وقوع هذا أبداً ، وإلا كانت الحياة عبثاً لا معنى لها ، وفارغة من القيم لا طائل تحتها ، يسعد فيها نفر قليل ، تيسرت لهم القوة والنفوذ ، قوة الغني والمال ، ونفوذ الجاه والسلطان ، عاشوا سادة في لذة وترف ، وماتوا سادة على فرش الحرير والديباج ، ويشقى فيها ملايين كثيرة من البشر ، ممن وقعوا تحت سلطة تلك الفئة القوية الماجنة ، التي استغلتهم واستعبدتهم ، وسخرتهم لمصالحها الدنيئة ، فعاشوا في قبضتها وتحت سلطانها عبيداً في ذل وحرمان ، وماتوا عبيداً على الشوك وحسك السعدان ، فما معنى الحياة إذن وما فائدتها ؟

إن العقل ليجزم بأن المؤمن المحسن في عمله ، سيلقى ثواب إيمانه وإحسانه ، وأن الكافر الظالم سيلقي جزاء كفره وطغيانه ، وهذه العدالة إن لم تتحقق في هذه الحياة ـ وكثير منها لا يتحقق ـ فلا بد من وجود حياة أخرى ، يقوم فيها الحق ، وينتصب فيها ميزان العدالة ، وينتصف هناك المظلوم من الظالم . ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ (١) ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ﴾ (٢) .

---

(١) إبراهيم ٤٢ ـ ٤٣

(٢) الزلزلة ٨ ـ ٩

٤ ـ ثم إن هذا العالم الإنساني الموجود في هذه الحياة ، يعبر وجوده عن زينة وجمال ، ولولا قيام الإنسان على الأرض وإعماره لها بالبناء الفكري والمادي لكانت الأرض موحشة مخيفة ، لا إنس فيها ولا أنيس ، كالمدن الخالية من سكانها .

كبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

فالإنسان قد أضفى على الأرض بوجوده وعمله ، الحسن والجمال ، والبهجة والعمران ، فهل رأيت عاقلاً حكياً ، عنده قصر منيف ، وجميل رائع ، يسلط عليه معاول الهدم والتدمير ، ليتركه هكذا خراباً يباباً ، تنعب فيه البوم والغربان ، أم يهدمه ليجدد بناء ه على أسلوب أبدع ، وطراز أروع ؟ فإن لم يفعل ذلك دلّ على نقصان عقله ، وفقدان حكمته ، فهذا الإنسان زينة الحياة في الأرض ، ومتعة الوجود في الدنيا ؛ خلقه الله فأبدع خلقه ، وكونه فأبدع تكوينه ، وسواه فأحسن صورته وأحكم تركيبه ، وأمده بقوة العقل ، فكان معجزة في التصوير والتفكير ، فإذا هدم الإله بناءه ، وأزال من الأرض وجوده ، فمن أجل أن يعيد تركيبه في حياة أخرى ، هي أفضل مسكناً ، وأجمل عيشاً ، وأرحب مجالاً ، وإلا فالوجود الذي ينعدم لا إلى وجود جديد ، فهو كَلاَ وجود ، لذلك نجد المؤمنين في كل ملة ودين ، يؤمنون بالحياة الآخرة بعد الموت ، وجاءت الرسل جميعاً تَرسخ هذه العقيدة في العقول ، وتؤكدها في الأفهام وتوطدها في الأذهان ، ولم يشذ عن هذه العقيدة إلا نفر ممن أركسوا إلى حيوانيتهم البهيمية ، وانغمسوا في مستنقع الرذيلة ، يعبُّون من آسنها المنتن ، فيمتعون البطون والفروج ، وينكرون الحياة الآخرة خشية أن تنغص عليهم هذه العقيدة لذتهم الفاجرة ، وشهوتهم الداعرة ، ومتعتهم العاهرة وثروتهم العابرة ، ليس

---

(٣) الشعراء ٢٧٧

يصدر عنهم إلا الضرر ، وليس همهم في الحياة إلا قضاء الوطر ﴿ يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (١) .

٥ ـ وشيء أخير : إن الإنسان مفطور إذا عمل العمل ،يعمله إذا اعتقد فيه نفعه ،ويتجنب العمل إذا اعتقد فيه ضرره أو عدم نفعه ، وكل عمل لا يعتقد نفعه لا يعمله ، وكل عمل لا يخشى ضرره لا يتجنبه ، لذا لا تنشط النفس لعمل تشك في نفعه ، ولا تُقبل على عمل تعتقد عدم جدواه ، فلو أردت حفر بئر لاستخراج الماء منه ، وقيل لك أحفر في هذا المكان وكنت تشك في وجود الماء فيه ، أو تعتقد عدم وجوده في هذا المكان ، فإنك لا تقدم على حفر البئر في هذا الموضع ، أو على الأقل تتردد و تنشط نفسك في حفره وكذلك كل عمل تشك في نفعه ، أو تعتقد عدم نفعه ، تمتنع أو تتردد في الإقدام على العمل ، ومثل هؤلاء الذين ينكرون وجود الآخرة ، وينكرون الحساب والجزاء والجنة والنار ، فهم لا يقدمون على طاعة الله وعبادته ، لأنهم لا يعتقدون بوجود الله حتى يطيعوه ويعبدوه ، فإذا قيل لهم صلوا ، قالوا : وما فائدة الصلاة ؟ وإذا قيل لهم صوموا أو حجوا ، قالوا : وما فائدة ذلك ، فهم لا يعقلون الطاعات والعبادات ، لأنهم لا يتوقعون من ورائها الجزاء ، ولا يفعلون الخير ، لأنهم يعتقدونه عبثاً وعبئاً ولا طائل تحته ، ويذهب الجهد فيه هباء منثوراً ، ولا يتجنبون المعاصي والآثام ، وبخاصة إذا كان فيها لذتهم ومتعتهم ، ويهزأون بالمنكرين عليهم ، بل يسخرون ممن يقوم بذلك لأنهم لا يعتقدون ضررا في تركه ، ولا منفعة في فعله ، أما إذا اعتقدوا منفعة عاجلة من عمل البر ، كأن يمدحوا ويثنى عليهم، أو يناهم من وراء ذلك مكسب من مال أو منصب ، فهم يفعلون ذلك لذلك .

ومن هنا نجد بعض الأغنياء ممن ينكرون الآخرة يبنون المستشفيات والملاجيء والمدارس وغير ذلك ، لا لأنهم يتوقعون ثوابا على ذلك في الآخرة ، ولكن لأنهم يتوقعون المدح والثناء في الصحف والمجالس أو يكون من ورائه

(١) محمد ١٢

دعاية ناجحة لتجارتهم وأعمالهم ، وإذا اعتقدوا فيه ضرراً عاجلاً فهم يتجنبونه من أجل ذلك الضرر ، مثل مقاطعة الناس لهم ونفورهم منهم ، وإنكارهم عليهم ، أو يعود عليهم بعقوبة من غرامة مال أو دخول سجن ، أو يمنعون عنه لأنه ضار في ذاته كشرب الخمر مثلاً وتعاطي المخدرات ونحو ذلك ، فهم لا يفعلونه لأن الله نهى عنه ولكن لما فيه من ضرر شخصّي في أجسامهم وعقولهم .

لذا نجد أمثال هؤلاء إذا اتقوا الضرر وآمنوا وقوعهم في الخطر ، انقلبوا إلى وحوش كاسرة ، يسفكون الدماء ، ويسلبون الأموال ، ويهتكون الأعراض ويعملون كل فعل ذميم ، يكذبون ويغشون ويحتكرون ، ويأكلون الربا ولا يبالون بما يلحق الناس من ضررهم وأذاهم ، وإذا أسند إلى أحدهم عمل أو منصب كبير أو صغير استغلوه لمصلحتهم واستخدموه في منفعتهم ، وقد يبيعون أمتهم وبلادهم بعرض من الدنيا قليل ، لأنهم لا يخافون الله إذ لا يعتقدون وجوده ، ولا يخافون الحساب والعقاب إذ لا يعتقدون قيامه وحدوثه . بينما نجد من يؤمن بالله وبالآخرة ، ويعترف بالجزاء والحساب ، مقبلاً على عمل الخير بصبر وجد وجلد ، باذلاً فيه أقصى جهده ، يعين المعدوم ، ويكسب المحروم ، وينصر المظلوم ، ويغيث الملهوف ، ويتجنب الشرور ، ويبتعد عن أضرار الناس ، ولا يؤذى أحداً من البشر حتى ولا من الحيوانات ، لأنه يؤمن بالله ويعتقد بيوم الجزاء وأن الله سيحاسبه على أعماله ويجازيه بالخير خيراً وبالشر شراً ، ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [1] .

فإن دعاه داعي الجهاد في سبيل الله وناداه بقوله ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ [2] لباد بقوله ﴿ وعجلت إليك ربي لترضى ﴾ [3] فيلقي نفسه بين أنياب الموت ، ولا يبالي أوقع على الموت ، أم وقع الموت عليه ، قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا

(١) الشورى ٨٩

(٢) التوبة ١١١

(٣) طه ٣٤

في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] فإن مات كان شهيداً وإن عاش كان عزيزاً سعيداً ، قال رسول الله ﷺ ﴿ لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ﴾[2] .

فانظر الفرق بين هاتين العقيدتين ، عقيدة الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وعقيدة الكفر بالله وباليوم الآخر ، وانظر تأثيرها في الرجلين ، في أحدهما بذل وتضحية بالنفس والنفيس ، وفي الآخر جبن وخور وعمل خسيس .

٦ ـ أما كيف تقوم القيامة ، وكيف تعود الحياة مرة أخرى ، وكيف يكون البعث والإحياء ، فهذا أمر لا يمكن معرفة حقيقته ، لأن الحياة الآخرة تختلف عن الحياة الأولى .

على أن الله تعالى قد أطلعنا في الدنيا على نماذج مصغرة لكيفية حدوث القيامة ، وكيفية الحياة فيها ، بل وأعطانا صورة صغيرة عن سعة تلك الدار المجهولة لنا ، فالهزات الأرضية ، والزلازل التي تحدث كل سنة في كثير من أقطار الأرض ، والتي لا سبيل للانسان لدفعها ، أو منع وقوعها ، فهي تمثل الواقعة الكبرى ، التي لا بد من وقوعها ، وفيها دليل على أن الله تعالى الذي خلق الأرض قادر على تغييرها أو تدميرها كيف شاء ومتى شاء ، قال تعالى ﴿ إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثاً ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها يومئذ تحث أخبارها ﴾[4] .

وقد أثبت علم الفلك ، إمكان اصطدام الأجرام الكونية بعضها ببعض ،

---

(١) آل عمران ١٦٩ ـ ١٧٠
(٢) البخاري ومسلم
(٣) الواقعة ١ ـ ٦
(٤) الزلزلة ١ ـ ٤

بما لا يدع مجالا للشك من وقوع هذا الاصطدام .

ثم هذه الأحلام التي يراها الإنسان أثناء النوم وهو راقد في فراشة ، من بلاد نائية أو دانية ، وأماكن كثيرة ، وأناسٍّي عديدة ويرى جبالا وبحاراً وأنهاراً ممن يعرف ، وممن لا يعرف ، وتعتريه مسرات وأحزان ومصاعب وأخطار كثيرة ، وما إلى ذلك من الأمور الكثيرة ، والتي لم يشاهدها قط في يقظته ، فنومه مثل الموت ، ورؤيته لهذه المشاهد تمثل الحياة الآخرة ، لأنه لم يرها بعيني رأسه ، بل بعيني قلبه وروحه .

كما أن الجنين في بطن أمه لو كان له عقل يفكر ، ولسان ينطق ، لظن أن بطن أمه هو أوسع مجال في الحياة التي يحياها أثناء الحمل ، وليس هناك ما هو أوسع مدى منه ، ولو خير بين الخروج والبقاء ، لفضل البقاء على الخروج ، لأنه يظن أن البقاء هو حياته ، وأن الخروج هو موته مع أن خروجه هو ولادة إلى حياة جديدة . وكذلك الإنسان في هذه الدنيا ، فهو يظن أنها أوسع مكان في الكون ، ولو خير بين البقاء فيها والخروج منها ، لفضل البقاء على الخروج ، لأنه يعتقد أن البقاء فيها هو الحياة ، والخروج منها هو الموت ، ولكنه لو عقل كالعقلاء ، وآمن بالله كالمؤمنين الصادقين لاعتقد أن موته فيها ولادة جديدة لحياة أخرى جديدة ، وأنه أخرج من سجن هي الدنيا ، إلى حياة أرحب مكاناً وأوسع مجالاً من هذه الدنيا ، ففي الدنيا يشاركه فيها ملايين من البشر ، قد تضيق الحياة على بعض الناس ، فلا يجدون مسكناً فيها ، يأوون إليه ، وأما الآخرة فقد عبر عنها الرسول ﷺ أروع تعبير عن سعة الجنة ، فأخبر أن أقل رجل من أهل الجنة له مثل الدنيا مرتين ، وقد قال تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ [1] .

وإذا عجز بعض الناس عن فهم الحياة الآخرة ، فيكفي أن يعلم قدرة الله التي لا يعجزها شيء أو لا ، وأن يعلم كيفية النشأة الأولى من هذه المظاهر

(١) آل عمران ١٣٣

الحياتية التي تتجدد من نبات وحيوان وإنسان ، ثانياً ، فيسهل عليه الاعتقاد بذلك قال تعالى ﴿ أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ (٢) .

ولقد أورد لنا القرآن أدلة كثيرة على البعث ،عرض علينا أن ننظر في نشأتنا الأولى لنستدل بها على نشأتنا الثانية مع الاعتقاد الجازم بقدرة الله القادرة على كل شيء مع علمه الواسع والمحيط بكل شيء بحيث لا يتصور العقل أن يضيع شيء من ذرات أجسامنا أو يغيب عن علمه منها شيء ، قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٣) أي هو عالم إحاطة بكل مخلوقاته من ذرات وعناصر وأجسام وقال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور . وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (٤)

ويضرب القرآن لنا المثل بمشاهدة النبات كيف ينشأ وكيف يتطور من حال إلى حالة أخرى ، لنقارن نشأته بنشأتنا وتطورنا قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلفة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل

---

(١) العنكبوت ١٩ ـ ٢٠
(٢) الواقعة ٦٠ ـ ط,
(٣) يس ٧٨ ـ ٧٩
(٤) سبأ ٢ ـ ٣

العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾[1] قوله: من تراب أي من عناصر الأرض الترابية التي يتركب منها جسم الإنسان ، وهي نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض ، وتتحول هذه العناصر من تربة الأرض إلى جسم الإنسان ، بواسطة الطعام الذي يتناوله الإنسان من نباتات الأرض ، وإذا كان الإله لم يعجزه خلق السموات والأرض على عظم أجرامها كما سبق القول في ذلك ولا يزال الإله يخلق النبات والحيوان والإنسان ، بل وأجرام السماء ويشاهد خلقه من نبات وحيوان وإنسان في كل يوم أفتعجزه الاعادة للانسان مرة أخرى ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾[2] .

﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾[3] .

ومن الثابت علمياً أن الإنسان يتألف من ذرات صغيرة معقدة تسمى الخلايا وهي تزيد في الإنسان العادي على ٢٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ خلية وهذه الخلايا دائمة التغير والتجدد بصورة مستمرة ، بمعنى أن الانسان من ظفر قدمه إلى شعر رأسه يتغير باستمرار ، وقد قدر التغير الكامل يحدث كل عشر سنين مرة ، ولكن مع هذا التغير المادي والفناء الجسمي الدائب، يبقى في الانسان علمه وتفكيره وذاكرته وعاداته وأخلاقه وجميع صفاته وملكاته المعنوية كما كانت فهو يشعر في جميع مراحل حياته أنه هو نفس الإنسان الذي ولد من عشرات السنين ، وهو لا يحس بأي شيئاً من أعضائه وأجزائه قد تغير ، وهذا يدل على أن الإنسان ليس هو

---

(١) الحج ٥

(٢) الأحقاق

(٣) ق ١٥ .

جسمه بل هناك شيء آخر غير الجسم ووراء الجسم وهي الروح .

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... وتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على الروح واستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وهذه الروح أمر مستقل عن الجسم وهي باقية بعد موته وفناء جسمه المادي ولو كان الموت فناء للإنسان لأمكن أن نقول بعد كل مرحلة من مراحل تغير خلاياه الجسمية أن الإنسان كلما مرت عليه عشر سنوات يموت ثم يعيش حياة جديدة بعد موته ذلك ، ومعنى أن الرجل الذي يعيش خمسين سنة قد مات وعاش خمس مرات ، فإذا مات الميتة الأخيرة فلم لا يقال إنها ميتة يعقبها حياة أخرى جديدة كتجدد حياته السابقة ؟

ثم إن كلاً منّا يؤمن بالنشأة الأولى ، ومن أنشأ النشأة الأولى كيف يعجز عن النشأة الأخرى ؟ ﴿ أفعينا بالخلق الأول ﴾ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ .

* * *

القضاء والقدر

١ ـ القضاء والقدر : هما نظام الكون الأزلي الـذي قدره الله في علمـه بالمعايير والموازين المضبوطة ، والسنن والنواميس المنظمة له ، ثم الحكم على هذا النظام المتقن ، والقضاء المحكم بالظهور إلى عالم الوجود لربط الأسباب الأزلية المقدرة بالمسببات الواقعية ، ولربط العلل بمعلولاتها ، والنتائج بمقدماتهـا ، فما من حادث في الوجود يقع إلا بسبب ، ولا معلول إلا بعلة ، ولا نتيجة إلا بسبق مقدمة ولكن هذه الأسباب والعلل قد تكون ظاهرة وواضحـة لنـا ، نفهمهـا وندركها ، وندرك حكمتها ، وقد تكون مجهولة لنا وخافية علينا .

٢ ـ ومن هذه الأقدار الإلهية ما لا يستطيع الإنسان رده أو دفعه مهما كان له من القوة والسلطان ، فلا بد من وقوعه ونفوذه شاء الإنسان أم أبى ، مثل نواميس الكون التي تسير ضمن قوانين محكمة ، فليس بوسع الإنسان أن يغير مجرى الفلك أو يوقف حركته ، أو يحل الليل محل النهار أو الشمس محل القمر أو الصيف محل الشتاء . . .

٣ ـ ومنها ما يتعلق بسنن الوجود كأن يكون زيد من الناس ابناً لفلان لا لغيره وأن يكون ذكراً لا أنثى وأن يكون مولوداً في بلد كذا دون كذا من البلا وفي عصر كذا دون غيره من الأعصر . .

وهذه الأقدار أيضاً لا تقع تحت قدرة الإنسان ولا يستطيع تغييرها أو التأثير فيها ولا يقع عليه تكليف بسببها ولا مسؤولية عنها (لا يكلف الله ننفساً إلا وسعها)[١] .

(١) البقرة ٢٨٦ .

ولبعض الأقدار التي تتعلق بسنن الوجود أسباب مجهولة لنا وخفية علينا ، لا ندرك غايتها ، ولا نفهم علتها ، كالأحداث المفاجئة وغير المتوقعة كأن يختار الإنسان السفر في البحر دون البر أو الجو فيغرق أو يشارك آخر في تجارة فتسلب ، أو يموت له قريب فيرث منه أموالاً طائلة ، أو يحفر بئراً فيجد كنزاً أو ينهدم البئر عليه فيكون له قبراً ، وهذه أيضاً من الأقدار التي لا يد فيها للإنسان ولا يحاسب عليها .

ولكن قد ندرك الحكمة العامة من هذه الأحداث الخارجة عن قدرة الإنسان ، حتى نشعر أن هناك قوة قادرة مطلقة فوق قدرتنا وإرادة قاهرة نافذة أكبر من إرادتنا تتصرف في سنن الكون ونواميس الوجود لأسباب نجهلها ، وأسرار لا نعلمها ، حتى نزيل من أنفسنا صلفها وكبرياءها ، ونخفف من غرورها وغلوائها ، ولنعلم أنه ليس لنا من الأمر شيء ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ [1] .

٤ ـ ومن الأقدار ما لا يستطيع الإنسان دفعه أو رفعه ، ولكن يستطيع تخفيف حدته ، وتلطيف شدته ، وهو ما يتصل بالغرائز والبيئة والوراثة ، فغرائز الإنسان لا يستطيع دفعها أو إزالتها لأنها مفطورة مع الإنسان ذاته ولكنه يستطيع تخفيفها وتلطيفها ، فإذا ما جمحت فيه غريزة الجنس خفف غلواءها بالزواج ، فإن تعذر عليه الزواج كبح جماعها بالصوم أو بالتربية الدينية المهذبة للأخلاق ، وهكذا غيرها من الغرائز ، ومثلها البيئة والعشرة ، فإذا كانت بيئة فاسدة ، فعليه أن يقاوم فسادها بتجنب رذائلها ، ويصلح نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وفي العشرة السيئة أن يبتعد عن صحبة الأشرار ومخالطة الفجار ، قال تعالى ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث

(١) الحديد ٢٢ ـ ٢٣ .

غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ [1]

٥ ـ وهناك من الأقدار ما يستطيع الإنسان دفعها ، ويمكنه رفعها وإزالتها أو يحاول عدم وقوعها ، وهي التي تقع تحت قدرته وإرادته ، وضمن حريته واختياره ، ويدخل فيها جميع التكاليف الشرعية التي خاطب الله بها الإنسان ، وطلب إليه القيام بها من أوامر ونواه . وكان من السنن التي نظم الله بها الكون ، والتي هي جزء من القضاء والقدر أن خلق الله الإنسان حراً مختاراً في فعله وتصرفاته ، بما منحه من نعمة العقل والتفكير ، الذي يميز به بين الخير والشر والحق والباطل والنافع والضار ، فيختار الإنسان منها أي العملين أراد ، ويسلك أي الطريقين شاء ، غير مقهور ولا مجبور ، فهو مستعد استعداداً فطرياً لأن يسعد نفسه بعمل الخير ويشقيها بعمل الشر ، وصالح لأن يصعد في سلم الرقي ودرجات السمو حتى يقرب من الملائكة ، كما هو صالح يتردي في درجات الهبوط والانحطاط إلى رتبة الحيوانات ، كل ذلك يحصل له بحريته واختياره ، فهو يفعل الخير مختاراً فيثاب عليه ، ويفعل الشر مختارا فيعاقب عليه .

ولهذا العقل المميز بين الخير والشر ، ولتلك الحرية في التصرف ، ولهذا الاختيار في القول والعمل ، وجّه الله إليه خطاب التكليف بفعل المأمورات وترك المنهيات ، وأرسل إليه رسلاً تهديه وترشده ، وأنزل إليه بواسطة رسله كتباً لتكون بين يديه تهديه طريق الحق كلما ضل السبيل فتوجهه إليه وتدله عليه ، قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ [2] وقال الله في شأن اليهود ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [3] إلا أن الله تعالى ركز في الإنسان غرائز ، ووضع فيه نزعات ورغبات لها تأثيرها عليه ، وأمده بشهوات تستطيع أن تقوده في كثير من الأحيان ، وابتلاه أيضاً بعدو أكبر وهو الشيطان إبليس ،

---

(١) فصلت ١٧
(٢) الانعام ٦٨
(٣) الصف ٥

يترصد له في طريقه ، ويتربص به زلة القدم ، ليصده عن الحق إلى الباطل بالاغراء والاغواء وتزيين الشهوات ليضعفه بها فيوقعه في حبائل الفساد والضلال .

فكان ما منحه الله من عقل ، وما منحه من هداية الرسل والكتب في جانب منه ، وما ركز من غرائز ، ووضع فيه من ميول وأهواء وإغراء الشيطان في جانبه الآخر ، ومد أمامه طريقين طريق الخير الذي يهدى إليه العقل وهداية الكتب والرسل ، وطريق الشر الذي تهدى إليه الغرائز والشهوات والشيطان المضلل ، وأعطاه الله الحرية المطلقة ، والقدرة على اختيار أحد الطريقين ليسلكه في حياته ، ولم يرغمه على سلوك أحدهما ، ولو شاء لدفعه في طريق الخير فلا يعرف شراً أبداً ، ولو شاء لدفعه في طريق الشر فلا يعرف خيراً أبداً ، ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (١) ﴿ قل فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (٢) ولكن الله تعالى أراده الإنسان الحر العاقل خليفته في الأرض ، والمعزز المكرم بهذه الحرية والاختيار ، والمكلف باتباع طريق الخير ، واجتناب طريق الشر ، ورتب مسؤولية الثواب والعقاب على هذا الاختيار ، وبذلك يكون هو الذي حدد جزاءه يوم الحساب تبعاً لما يختاره هو بنفسه في الحياة الدنيا ، إما إيمان فجنة ، وإما كفر فنار ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً ، إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ (٣) .

وقديماً اعتذر المشركون عن شركهم بأن الله أجبرهم على الشرك بمشيئته ، ولو شاء لما أشركوا به ، فكذبهم الله وأنكر عليهم قولهم هذا ، وأعلمهم بأن حجته عليهم قائمة ، بما منحهم من عقل ومنحهم من حرية واختيار ، وأرسل

---

(١) يونس ٩٩

(٢) الأنعام ١٤٩

(٣) الأنسان ٢ ـ ٥

إليهم رسلا حذرتهم وبلغتهم ، وأنزل عليهم كتبا أخبرتهم ونورتهم ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (١) .

فالإنسان ما دام فيه العقل الواعي ، وعنده الارادة الحرة والاختيار الكامل ، فهو مسؤول عن أعماله وتصرفاته ، ومحاسب عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وإذا فقد واحدة من هاتين الاثنتين ـ العقل الواعي والارادة الحرة ـ سقط عنه التكليف ، ولا يحاسب على عمله ، ولا على تصرفاته عند الله تعالى ، لأن مناط التكليف الذي يترتب عليه الحساب والجزاء جعله الله بالعقل والارادة ، فإذا أخذ ما أوهب ، فقد أسقط ما أوجب ، ومن أكره على فعل شيء لا يريده فليس بمسؤول عن نتائج هذا الفعل ، قال تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ (٢) وقال رسول الله ﷺ : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » أي : رفع عن أمتي حكم هذه الأمور من مسؤولياتها المترتبة عليها ، وينبغي أن نفرق بين العلم والإكراه على فعل الشيء .

فعلم الله تعالى قديم يتعلق بالمعلومات التي تقع في الحاضر والمستقبل كما هي وعلى ما هي عليه .

فالله يعلم أن فلانا من الناس سيفعل كذا وكذا من الخير والشر بإرادته الحرة ، واختياره الكامل ،فعلم الله تعالى هو صفة انكشاف للأمر الذي سيقع لا صفة تأثير وإلزام في إيجاد الشيء أو تغييره ، فلا يؤثر علمه تعالى على اختيار

---

(١) الأنعام ١٤٩

(٢)النحل ١٠٦

الإنسان مطلقاً ، فلو أن فلكيا قال : إن حسابات الفلك أثبتت أن القمر سينخسف في ليلة كذا من شهر كذا في سنة كذا ، ، وقد وقع ذلك بالفعل وبالتحديد الذي ذكر ، فعلم هذا الفلكي لا دخل له في خسوف القمر ولم يؤثر فيه ، بل كشف علمه عن حقيقة ستقع في المستقبل وقد وقعت ، وكذلك من ركب قطاراً وكان قد اطلع قبل أن يركب على قائمة محطات وقوف القطار ، فهو يعلم مسبقاً أن القطار سيقف في مكان كذا ، فلو أخبر ركاب القطار بأن القطار سيقف في مكان كذا ، ووقف القطار في ذلك المكان بالفعل ، فعلمه بذلك لم يوقف القطارَ ، ومن نظر في مرآة إلى وجهه ثم قطب وجهه وعبس ، أو ابتسم فأظهرت المرآة ذلك ، فالمرآة لا شأن لها في عبوس الوجه أو تبسمه وإنما كشفت حقيقة واقعة هو قام بها بإرادته واختياره .

فإذا كان الإله يعلم في الازل ـ لسبق علمه وشموله ـ أن فلاناً سيفعل كذا باختياره ، فمسؤولية العمل تقع على الفاعل المختار ، لا على الله الذي علم ذلك ، ولو أن رجلاً وقف على غصن شجرة ، ثم أخذ ينشر ذلك الغصن الذي يقف عليه بالمنشار ، فأخبره رجل بأنه بعد لحظات سيسقط على الأرض ، وكان قد سقط بالفعل ، فليس له الحق بأن يلقى تبعة سقوطه على الرجل الذي أخبره لأنه علم بذلك ، فعلمه لم يسقطه ، وهذا أمر بديهي يدركه العقل ويميز بين الاختيار وعدم الاختيار ، فلو أن إنساناً ألقى نفسه تحت عجلات سيارة مسرعة فمات ، فهو قاتل نفسه وهو مسؤول عند الله ما دام فيه عقل واختيار .

ولو أن رجلاً ماراً في الطريق فدهسته سيارة مسرعة بدون إرادته فمات ، فهو غير مسؤول عند الله عن قتل نفسه ، بل يعتبر في نظر الشرع شهيد آخرة ، يثاب على هذه الميتة ، ومن يلقي نفسه من أعلى السطح ليس كمن يسقط دون إرادته ، ومن لا يصلي بأختياره ودون عذر ، ليس كمن يصلي ، فإذا وجد العذر المشروع ارتفع التكليف من المعذور ، فالمرأة الحائض أو النفساء معذورة عن الصلاة فلا تحاسب عليها حين عذرها وهكذا .

فالإسلام إذن: ينكر أشد الإنكار على من يضل ويتبع طريق الباطل وينحرف عن أوامر الله تعالى في عقائده وعباداته وأخلاقه ، ثم يعتذر عن ذلك بقضاء الله وقدره ، ولو صح هذا الاعتذار لبطلت الشرائع والتكاليف الدينية ، ولأصبح إرسال الرسل وإنزال الكتب عبثاً وباطلاً ، ويلزم من هذا أيضاً أن يكون إبليس وفرعون وهامان وقارون وأبو جهل وكل من كفر بالله وأهلكه بذنوبه معذورين فيما فعلوه وفيما قاموا به من كفر ، ويلزم منه أيضاً أن لا يكون هناك فرق بين مؤمن وكافر ، ولا بين محسن ومسيء ، ولا بين عاص ومطيع ، ولا بين أولياء الله وأعدائه ، ولا بين أهل الجنة وأهل النار ، وهذا مخالف للحق والعقل والشرع قال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ﴾ [3] .

والاعتقاد بأن رؤوس الكفر وزعماء الالحاد ومن تابعهم بأنهم مساوون للمؤمنين وهم معذورون فيما قاموا به من كفر وعصيان ومخالفات، هو كفر بالله وخروج عن الأديان كلها ومما يتنافى مع حكمة الله الحكيم ومع عدله ووعده ووعيده الذي قطعه على نفسه بإكرام المؤمنين وتعذيب الكافرين .

* * *

---

(١) ص ٢٨ .

(٢) الجاثية ٢١

(٣) القلم ٣٥ .

هل نحن مسيرون أم مخيرون ؟

هذا سؤال يجري على ألسنة الكثير من الناس ، وقد سئلته عشرات المرات من طلاب وغيرهم ، وأعتقد أن كل من يتصدى للتعليم والتوجيه الديني يُسأل هذا السؤال ، كأن السائلين يريدون أن يحرجوا المسؤول بعدم وجود جواب على سؤالهم هذا ، أو يريدون أن يبرروا تقصيرهم عن فعل الخير ، أو يبرروا أنفسهم إذا أقدموا على الأعمال الفاسدة أو المنحرفة عن الدين ، بأن كل ما يجري على الإنسان من خير وشر ، هو مكتوب عليه لا يمكن التخلي عنه « والمكتوب ما عنو مهروب » و « اللي بنكتب علجبين لازم تشوفو العين » أو « كؤوس معدودة في أماكن محدود » لمن يعتذر عن شرب الخمر ، أو نحو ذلك من الأمثلة العامية التي صاغها الشيطان ولقنها أتباعه وأولياءه ، لينشروها بين عامة الناس ، للتضليل والتدجيل ، ولتبرير أنفسهم من الفساد والرذائل التي يعيشون في مستنقعها النتن . فلو سألت الطالب لماذا تأتي إلى المدرسة ؟ لأجابك على الفور ، لأتعلم . فلو قلت له : العلم مقدر فلم لم تجلس في بيتك فيأتيك العلم إن كان مقدراً لك أن تتعلم ؟ لقال لك بدون تفكير : العلم يؤتى ولا يأتي . ولو قلت للتاجر : لماذا تفتح متجرك من الصباح ؟ لأجابك: لأبيع فأربح فأعيش . فلو قلت له : هلا جلست في بيتك فيأتيك رزقك المقدر لك ؟ لقال لك إسع يا عبدي أسع معك . وإذا سألت الزارع لم تزرع ؟ لأجابك : لأحصد فآكل فلو قلت له : لِمَ لم تجلس في بيتك ويأتيك طعامك وشرابك المكتوب لك ؟ لقال لك : من لم يزرع لا يحصد ولا يأكل . ولو سألت الطبيب والصانع والمعلم . لأجابك بنفس الجواب . العمل هو سبب الرزق . وهذا حق

إذن :فكل مسبب هو ناشيء عن سبب ، فالتعلم مسبب والعلم سبب والتداوي سبب والشفاء مسبب. والصناعة والزراعة والوظيفة كلها أسباب والرزق مسبب، فنر من هذا أن نظام الكون قائم على الأسباب والمسببات ، والأسباب من عملنا وفعلنا ، فنحن الذين نقوم بها ونسعى إليها ، والمسببات من عمل الله ، ونحن نؤمن بالله تعالى ونؤمن أنه ربط الأسباب المسببات والمقدمات بالنتائج كما مرّ في بحث القضاء والقدر ، ونحن نؤمن بذلك لأن مصلحتنا تتطلب ذلك ولكنك ، إذا قلت لتارك الصلاة : لِمَ لَمْ تصلِّ ؟ لقال لك : حتى الله يريد » وإذا قلت لشارب الخمرة ؛ لماذا تشربها ؟ لقال لك : « الله مقدر عليّ » ، وإذا

وإذا قال الحاكم للسارق لم سرقت؟ لأجاب الله كاتب علي . ومن أعلم تارك الصلاة ، أن الله تعالى لا يريد أن يصلي . ومن أعلم السارق وشارب الخمرة أن الله كاتب ومقدر عليهم ذلك ؟ ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾[1] .

نعم . نحن نعلم من الله شيئاً واحداً فقط ، وهو الأمر بالفعل ، والنهي بالترك ، فنعلم أن الله أمرنا ابالصلاة ، ونهانا عن تركها ونهانا عن السرقة وعن شرب الخمر ، ولكن من أين نعلم أن الله كتب علينا وقدر ؟ أذلك العلم كان قبل وقوع العمل أم بعد وقوعه ؟ فهل رأيت أعجب وأغرب من هذا ؟ يؤمن هؤلاء بالأسباب في قضايا الرزق والعمل الذي يفيدهم ، ويدافعون بالقوة عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم إذا هاجمهم مهاجم ، ولا يتركون ذلك للقضاء والقدر ، ثم يتمسكون بالأقدار في قضايا المعاصي والذنوب من فعل المنهيات أو ترك الواجبات ، فهل هناك أكذب ممن يفعل هذا إن كان يعقل ، أو أحمق منه إن كان لا يعقل .

الأنعام ١٤٨

مع أن الجميع من الأقدار الإلهية كما تقدم ، ولكن الله أمرنا ـ لو عقل هؤلاء ـ أن نحارب القدر بالقدر ، نحارب قدر الجوع بقدر الشبع ، ونحارب قدر الجهل بقدر العلم ونحارب قدر الهزيمة بقدر النصر ، وندفع قدر المرض بقدر التداوي والشفاء .

ولو أهملنا الأقدار الثانية ، واعتمدنا على الأقدار الأولى لكنا مسؤولين أمام الله ، فلو وقع بالإنسان قدر الجوع ، فلم يدفعه بقدر الأكل والطعام فمات وهو قادر على دفعه ، مات قاتل نفسه وعاصيا الله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾[1]. لماذا لم يستسلم الرسول ﷺ للأقدار حين كذبه قومه وحالوا دون نشر دعوته ؟ لماذا قاومهم وانتصر عليهم إذن ؟

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال : أرأيت أدوية تتداوى بها ورُقىً نسترقي بها ، وتُقى نتقى بها ، أترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « هي من قدر الله » وقال أبو عبيدة لعمر بن الخطاب ، لما أراد الرجوع إلى المدينة فرارا من الطاعون الذي وقع بالشام : أتفر من قدر الله ؟ قال عمر : نعم . أفر من قدر الله إلى قدر الله » هذا هو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ والذي فهمه عنه أصحابه رضي الله عنهم .

هذا هو الإسلام الذي يعلمنا أن ندفع الأقدار بالأقدار ،ندفع قدر الكفر بقدر الإيمان ، وقدر الفساد بقدر الصلاح ، وقدر الرذائل بقدر الفضائل وقدر الظلم والاضطهاد وبقدر المقاومة وعدم الاستسلام وإقامة الحق والعدل وهكذا . . .

فليس هناك إذن ما يقال : إننا مسيرون أو مخيرون ، فنحن مخيرون في كل عمل يقع تحت قدرتنا واختيارنا .

قد يقول قائل : إن ما سردته علينا من مقاومة الأقدار بالأقدار المعاكسة صحيح ، ولكن ألا يجوز . بل يقع الكثير من الأمور التي لا تتحقق لنا كما

(١) البقرة ١٩٥ .

نريدها ونسعى إليها مع وجود هذه المحاربة والمقاومة لتلك الأقدار ؟ أقول : نعم . قد يقع ذلك ، فمثلاً قد يجتهد الطالب ولا ينجح ، وقد يعالج المريض ولا يشفى ، وقد يزرع الفلاح ولا ينبت الزرع ، وقد يعد الإنسان نفسه للسفر في قطار فيعوقه عائق دون إرادته فيمنعه عن السفر ، وقد يعد الجيش العدة للحرب ويقاتل ولا ينتصر ، وقد وقد . . . كل ذلك جائز الوقوع بل قد يقع بالفعل في بعض الاحيان ، ولكن علينا أن نفهم قبل كل شيء أموراً ثلاثة :

أولاً : نحن مكلفون باتخاذ الوسائل والأسباب الكاملة فيما أُمِرنا بفعله ، وبترك الوسائل والأسباب فيما نهينا عن فعله ، لأن الفعل أو الترك يقع في مقدورنا وفي اختيارنا ، فإذا قصرنا أو أهملنا العمل أو لم نأت به كاملاً فيما أمرنا بفعله وفيه فائدتنا ، فالحرمان الذي قد يقع نتيجة لذلك يكون بسبب منا ، وإن فعلنا ما نهينا عنه ولحقنا من ذلك ضرر ، كان الضرر بسبب منا أيضاً ، فنحن المسؤولون عن كلا الأمرين فالزارع عليه أن يزرع الأرض ويتخذ الأسباب والوسائل الكاملة لنمو الزرع فإن أهمل ولم يزرع فهو المسؤول عن عدم الحصاد .

والمريض عليه أن يتداوي ويستعمل العلاج ، فإن قصر ولم يشف فهو المسؤول عن عدم الشفاء ، والجيش عليه أن يعد العدة ويتدرب على القتال ثم يقاتل فإن تهاون فلم ينتصر فهو المسؤول عن هزيمته .

ومن يريد قتل النفس أو شرب الخمر أو السرقة أو أي عمل محرم ، عليه أن يمتنع ولا يفعل ذلك ، فإن فعل ولحقه ضرر فهو المسؤول عن النتائج .

وأما المسببات بعد القيام بأسبابها ، فهي من فعل الله تعالى .

فإن شاء الله أنبت الزرع وشفي المريض ، ونصر الجيش . . . وإن شاء لم يفعل ذلك لحكمة يعلمها ولا نعلمها ، فظهور النتائج موافقة أو غير موافقة لرغباتنا هو من فعل الله تعالى ، ونحن علينا أن نقوم بما كلفنا الله به من عمل

وإتقان واتخاذ الحذر والحيطة ، ثم نتكل عليه تعالى فيما هو من فعله ، لأنه هو الحكيم العليم بمصلحة عباده ، في العطاء أو المنع ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ (١) .

وهذا التوكل هو محض الإيمان ، ونحن إذا قمنا بعملنا خير قيام وتوكلنا عليه تعالى في النتائج ، لم يحرمنا من ثمرات أعمالنا لأنه أرحم بنا من أنفسنا .

ثانياً : إن عدم النجاح في أعمالنا بعد القيام بالوسائل والأسباب ، قد يكون في بعض أسبابه تقصير منا ، دق إدراكه علينا فلم ننتبه إليه أو إلى بعض عوامل النجاح فيه ، وقد ندركه بعد فوات الأوان أو نبقى على جهلنا في ذلك ، فالطالب قد يجد ويجتهد في دراسة الكتاب الذي يمتحن فيه ، ويترك بحثاً أو صفحة منه مثلاً ، دون دراسة أو فهم ، بدعوى أن هذا غير مهم ، فيأتي السؤال منه فلا ينجح ، وقد يبذر الزارع حبا فاسداً أو في أرض غير صالحة لزراعة هذا البذر فلا تنبت ، وقد يذهب الجيش إلى المعركة ويدخل الحرب معتمداً على قوة أخرى خارجية ، أو سلاح يأتيه ، فتتخلى عنه تلك القوة ، أو قصرت في مساعدتها له في الوقت المناسب ، أو لم يصله السلاح في حينه أو لم يصله أبداً ، فيولي الأدبار .

قال تعالى ﴿ واتخذوا من دون الله أنداداً لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ (١) أي إن النصر من عند الله فقط ، وهؤلاء اتخذوا غير الله أندادا واعتمدوا عليهم في النصر ، ولكن لا يستطيعون نصرهم لأن النصر من عند الله خاصة وهم يدافعون عن هذه الأنداد التي اتخذوها آلهة كالجند الذين يدافعون عن مقدساتهم وأوطانهم .

ثالثاً : قد يريد الإله تعالى بعض الأمور التي لم ينجح فيها الإنسان مع اتخاذ الوسائل الكاملة والاحتياطات التامة ، أن يشعره بعجزه وضعفه ، حتى لا

---

(١) الأسراء ٣٠ (١) يس ٧٤ ـ ٧٥

يغتر بنفسه أو قوته في دوام نجاحه ، فيخفف من صلفه وغروره ، ويحد من غلوائه ، لأن للإنسان حدوداً بشرية ، فإذا تمرد عليها وأراد أن يتجاوزها إلى حدود خارجة عن طاقته البشرية ، جاءه الإخفاق والفشل في كثير من الأحيان .

وإذا أراد أن يتجاوز حدود بشريته بجبروته وطغيانه إلى حدود عمل الألوهية جاءته الضربة الربانية القاضية ، ليكون عبرة لغيره ، كما وقع لقارون لما تمرد على حدوده الإنسانية ، وزعم أن أمواله الكثيرة ، وكنوزه الوفيرة ، إنما جاءته عن علم ومعرفة عنده ، وخبرة سابقة لديه ، وليست فضلاً من الله عليه ، ويحكي القرآن لنا هذه القصة بأسلوبه المعجز فيقول : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون.فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل الصحاً ولا يلقاها إلا الصابرون.فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون :ويآ كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ [1] .

إذن : فنحن مخيرون في كل عمل يقع تحت قدرتنا وطاقتنا ونفعله بحريتنا واختيارنا ، فنحن مسؤولون عن ذلك الفعل وعن نتائجه .

ونحن مسيرون فيما لا قدرة لنا عليه ، ولا طاقة لنا به ، أو لنا قدرة عليه ،

---

(١) القصص ٧٦ ـ ٨٢

ولكن فعلناه مكرهين أو ناسين أو مخطئين ، فنحن لسنا بمسؤولين عن ذلك الفعل ولا عن نتائجه .

وخلاصة القول في هذا الموضوع هو :

إن الله تعالى خلق الإنسان وخلق فيه العقل المميز بين الخير والشر ، وخلق له القدرة على فعل الخير أو الشر ، كما خلق فيه الحرية في التصرف والاختيار لأحد العملين .

والله تعالى خلق الإيمان والكفر ، وخلق الخير والشر ، وخلق الحق والباطل وخلق النافع والضار إلى آخر ما هنالك من المخلوقات المتعارضة . فنحن نعتقد أن كل شيء هو مخلوق لله تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (١) . ولكن الله تعالى ـ كما سبق أن قلنا ـ خلق فينا العقل المميز بين هذه الأمور المتخالفة والمتناقضة ، وخلق فينا الحرية لنختار من بينها ما نطبقه على أنفسنا في حياتنا أو نفعله بإرادتنا واختيارنا .

كما أرسل إلينا الرسل فبينوا لنا طريق الخير من طريق الشر ، وبينوا لنا الفوائد التي نجنيها من سلوكنا في طريق الخير ، ورغبونا في السير فيه ، وكشفوا لنا عن المساوىء والأضرار التي تصيبنا من سلوكنا في طريق الشر ، وحذرونا كل التحذير من السير فيه .

كما أنزل علينا كتباً من عنده ، رسم لنا فيها طريق الخير وأمرنا أن نسير فيه ، كما رسم لنا طريق الشر ، وحذرنا من سلوكه والسير فيه . ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (٢) ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ (٣) . وقد أثبتت لنا الرسل والكتب وأيد ذلك العقل ،

---

(١) الصافات ٩٦ .
(٢) الأنعام ١٥٢ .
(٣) الأنسان ٢ ـ ٣ .

بأن نتيجة اختيارنا طريق الخير فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة ، وإن اختيارنا سلوك طريق الشر فيه شقاؤنا في الدنيا والآخرة ، فماذا بقي بعد هذا البيان والتأكيد من حق الاعتراض ؟ فإذا أوقدت ناراً لحاجة تريدها أو لحكمة تعلمها أنت دون غيرك ، ثم قلت لولدك العاقل الراشد الكبير ، يا بني هذه نار محرقة ، إياك أن تضع يدك فيها فتحرقك وتؤلمك ، ثم أرسلت إليه أخاه الذي هو أعقل منه وأكثر علماً ووعياً ، وطلبت إليه أن يحذره من وضع يده في النار ، وأعطيته لوحة مكتوب عليها « لا تضع يدك في النار فتحرقك »وقلت له ضعها أمامه معلقة على الجدار ، ليشاهدها دائما كلما نسي فيتذكر التحذير ، ومع كل هذه التوجيهات والتحذيرات والتأكيدات ، وضع يده في النار حتى احترقت يده ، فمن هو المسؤول عما حدث يا ترى ؟ فهل له حق بأن يوجه اللوم والانتقاد لأبيه ، لأنه أوقد النار ، أم يعض على لسانه ويتحمل آلامه وحده ويسكت ! . .

ولو أن أباك أعطاك بعض الدراهم وقال لك يا بني ، خذ هذه الدراهم وتاجر بها وانتفع ، وحذرك من أن تصرفها فيما يضرك ولا ينفعك ، وعين لك الأمور التي تضرك ، ومع ذلك أخذتها وصرفتها على موائد الخمرة والقمار ، وعلى الغانيات من النساء ، فهل يكون أبوك المسؤول عن إضاعتها أم أنت ؟ وهل يلام أبوك على عطائك المال مع وجود عقلك فيك ومعك ؟ ولو أن الدولة أعطتك سلاحاً لتدافع به عن نفسك ووطنك ، وتقاتل به العدو كجندي باسل ، فأخذته ثم قتلت به أخاك بن أمك وأبيك ، فهل تلوم الدولة وتوجه إليها النقد ـ عند محاكمتك ـ لأنها أعطتك السلاح ؟ قد تقول : إن الله قادر على منعي من المعصية لأنه يعلمها سابقاً ، والدولة لا تقدر على ذلك لأنها لا تعلم ما أريد ، ولكن تذكر أن الله خلقك بشراً مكرماً بالعقل والحرية في التصرف ، ولم يخلقك ملكاً لا تعصى أو حيواناً أعمى مسلوب العقل والحرية .

وهكذا أنت ومسؤوليتك عن تصرفاتك ، فإذا كان الله قد خلق الإيمان

والكفر وأمرك بالإيمان ووعدك الثواب عليه ، وحذرك من الكفر وأوعدك بالعقاب عليه ، فلم اخترت الكفر على الإيمان ؟

وإذا كان الله قد خلق الخير والشر فلم فضلت الشر على الخير ؟ فإذا عاقبك على ذلك الاختيار ، فهل لك حق الاعتراض ؟

قد تقول : لِمَ لم يمنعني عن فعل المعاصي مع علمه بأنني سأفعلها وهو قادر على منعي ؟ سبق إن قلنا : ان الله تعالى أراد أن يجعل الإنسان العاقل الحر المختار خليفته في الأرض ، ولو منعه من المعاصي وأجبره على الطاعة لكان ملكاً لا إنساناً ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [1] والملائكة قالوا لربهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ [2] فقال لهم ربهم ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [3] .

لذلك اقتضت حكمة الله أن يكرم الإنسان فيجعله حراً مختاراً لا مرغماً ولا مكرهاً ومجبراً ، مستعداً لقبول الخير والشر ، فهو الذي يختار طريقه بنفسه من غير أن يجبره على سلوك أحدهما ﴿ ولو شاء الله لهداكم أجمعين ﴾ [4] .

* * *

(١) التحريم ٩ .
(٢) البقرة ٣٠
(٣) البقرة ٣٠ .
(٤) الأنعام ١٤٩ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الجبر والاختيار

ـ والخطأ في فهم بعض النصوص الواردة في ذلك ـ

إذا أردنا أن نفسر بعض النصوص التي يُفهم ظاهرها الجبر وعدم الاختيار يجب أن نفسرها على ضوء المبادىء الآتية :

أولاً : حكمة الله في إرسال الرسل ، والتكليف الشرعي ، وعدالة الله المطلقة .

ثانياً : إذا ورد نصان يفهم منهما تعارض في المعنى ، وكان أحدهما مطلقاً والآخر مقيداً ، نحمل المطلق على المقيد على طريقة الأصوليين .

ثالثاً : ننظر في السياق والسباق، وعود الضمير لينكشف المعنى المراد .

أمثلة : ١ ـ قال الله تعالى ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [1]

فظاهر المعنى أن الناس خلقوا فريقين ، فريق خلق للجنة ، وفريق آخر خلق للنار ، وهذا مخالف لحكمة الله وعدله ، وإلا فما ذنب من خلق للنار ، إذا كان أصل خلقه لذلك ؟

فمعنى الآية إذن ليس على هذا المفهوم الظاهري القائم على التقسيم غير العادل .

---

(١) الشورى ٧ .

وإنما المعنى على أنه إخبار عن واقع الحال الذي آل إليه أمر الناس وذلك أن الله تعالى خلق الناس وكلفهم باتباع أوامر أمرهم بها ، واجتناب نواه نهاهم عنها ، فمنهم من خضع لله فآمن بالله وأطاع أمره ، فهو من أهل الجنة ، ومنهم من تمرد على الله فاختار الكفر على الإيمان والمعصية على الطاعة ، فكان من أهل النار .

ومثلها قوله تعالى ﴿ وهو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ (١) .

والمعنى أن الله تعالى خلقكم ، وبين لكم الإيمان وعاقبته ، وبين لكم الكفر ونتيجته ، فكان منكم من اختار الإيمان ومنكم من اختار الكفر .

٢ ـ ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ (٢) .

ظاهر المعنى يدل على أن من الناس من سبقت لهم المنزلة الحسنى في اللوح المحفوظ ، أو في علم الله تعالى فكانت لهم الجنة فهم عن النار مبعدون ، وهناك فريق آخر ، سبقت لهم في علم الله تعالى أو في اللوح المحفوظ المنزلة السيئة فكانوا من أهل النار وهم عن الجنة مبعدون .

ولكن لو نظرنا إلى سباق الآية وسياقها ووصلنا معناها بما تقدم من قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون. ولو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم لا يسمعون. إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ (٣) لظهر لنا المعنى واضحاً ، وهو أن الإنسان ، إنما يعبد الإله لأنه قادر على كل شيء ولأنه يجلب له النفع ويدفع عنه الضرر ، ولو علمه أنه عاجز عن ذلك لم يعبده ، وهذه الأصنام التي تعبدونها أيها المشركون هي وقود جهنم ، لا تدفع عن نفسها الحريق في النار ، فكيف تعبدونها ؟ فالمشركون عندما يرون معبوداتهم تحترق فيتحسرون على

---

(١) التغابن ٢ .
(٢) الأنبياء ١٠١ .
(٣) الأنبياء ٩٨ .

عبادتها ، وضياع حياتهم في تعظيمها وتقديسها والدفاع عنها ، ولما تلى رسول الله ﷺ هذه الآية قال بعضهم : إن محمداً يقول : إن عيسى بن مريم في النار لأن النصارى تعبده ، والملائكة في النار ، لأن العرب تعبد الملائكة ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ أي إن عيسى والملائكة وغيرهم لا يتضررون من عبادتكم لهم ، لأنهم دعوكم لعبادة الله ولم يدعوكم لعبادتهم ، وقد تبرأوا من عبادتكم إياهم ﴿ وإذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم. . ﴾[1] .

وقال تعالى ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [2] .

٣ ـ ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ [3] قد يقول قائل : أين حرية الإنسان واختياره والله تعالى يقول : ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ ؟ أليس معنى هذا أن الإنسان مسلوب الحرية والاختيار ، وهو مجبور ومقهور على الأعمال التي يقوم بها ويمارسها ؟ نقول لهذا القائل المتسائل : رويدك يا أخي ولا تكن كمن يقول لمن يحض الناس على الصلاة : كيف تأمر الناس بالصلاة والله تعالى يقول : ﴿ ويل للمصلين ﴾ ويقول ﴿ ولا تقربوا الصلاة ﴾ فحذفت الجزء المطلوب من الآية وهي في الأول ﴿ ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ وفي الثانية ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ ولو نظرت إلى سباق الآية لوجدت قوله تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ وهذا صحيح وحق ، فلا اختيار للانسان في خلق نفسه ، ولا في خلق غيره ، فشكل الإنسان

(١) المائدة ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢) سبأ ٤٠ .
(٣) القصص ٦٨ .

وحجمه، وطوله وقصره، ولونه وجماله وغير ذلك هي أمور ليست من صنع الإنسان ولا يقع تحت اختياره ، فهو فيها مسير لا مخير ، لأن ذلك من عمل الله تعالى وحده ، لذا قال تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ .

٤ ـ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [١] .

الهداية قسمان : هداية حسية وهداية معنوية ، فالهداية الحسية ، هي الدلالة والارشاد ، كقول مؤمن آل فرعون لقومه ﴿ ويا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ [٢] أي أدلكم طريق الحق والصواب . وكقول أبي بكر يوم الهجرة لمن سأله وهم في طريقهم إلى المدينة ، وكانوا لا يعرفون رسول الله : من معك يا أبا بكر ؟ فقال لهم : هذا رجل يهديني السبيل . وهو من التورية ، فعنى أبو بكر يهديني سبيل الله الذي هو الإسلام،وفهموا أنه يدله على الطريق ، ومنها قوله تعالى ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾[٣]وهذه الهداية الحسية يملكها كل إنسان .

والثانية : الهداية القلبية ، وهي توجيه النفس والقلب والإرادة إلى الخير ، وهذه لا يملكها إلا الله تعالى ، وهي التي عنتها الآية الكريمة ، وهي أيضاً التي نطلبها من الله في كل صلاة بقولنا ﴿ أهدنا السراط المستقيم ﴾ .

وسبب نزول هذه الآية ، أن رسول الله ﷺ كان حريصاً كل الحرص على هداية عمه أبي طالب إلى الإسلام لمواقفه العظيمة من الدفاع عن الرسول ﷺ وحمايته من أذى قريش ، ولما حضرت الوفاة أبا طالب ، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبوجهل وعبدالله بن أمية ، فقال له : أي عم . قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل ، فقال أبوجهل وعبدالله بن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ قال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك ، فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن

---

(١) القصص ٥٦ .
(٢) غافر ٣٨ .
(٣) الرعد ٧ .

يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [1] قال : فنزلت فيه ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [2] والمعنى : إنك يا محمد لا تستطيع أن تهدي وتدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ، لأنه لا طلاع لك على قلوبهم ، ولا علم عندك سابق وشامل ، وقد سبق في علمه تعالى بأن أبا طالب يختار الكفر على الإيمان ، ولم يرغمه على الإيمان لأنه تعالى ترك أبا طالب يختار لنفسه الدين الذي يشاء ، وقد اختار الكفر فهو وما اختار ، والله تعالى يهدي من يشاء الهداية ويختار الإيمان على الكفر ، وأبو طالب ليس من هؤلاء ، وهو أعلم بالمهتدين القابلين للهداية فوفقهم إليها ، من غير القابلين لها فتركهم وما اختاروا لأنفسهم وأنت لا تعلم ذلك لأنك بشر .

فعلم الله السابق لا يقتضي الجبر أو الإكراه ، بل يقتضي الكشف والاطلاع الأزلي ونحن لا نعلم الآن ما الذي سنختاره من الأفعال في المستقبل ، ولكن الله تعالى يعلم ذلك ، لأن علمه سابق وأزلي ومحيط بكل شيء .

ولكن شيئاً واحداً نحن نعلمه ، وهو : ما أمرنا الله به وما نهانا عنه وهذا نحن مخيرون في فعله أو في تركه كما سبق ، وعلى هذا فنحن نعلم الأقدار التي تجري بعد وقوعها ، وأما قبل الوقوع فنحن الذين نصنع الأقدار التي في قدرتنا واختيارنا ، . يقول الله تعالى ﴿ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ فمن هذا الأمر نعلم وجوب إقامة الصلاة ووجوب الزكاة ، وهذا فعله ووقوعه باختيارنا ، فإن ترك الإنسان الصلاة ، وأهمل أمر إقامتها ، علم ما قدر عليه في الأزل من اختياره ترك الصلاة بعد وقوعها ذلك منه .

ويقول الله تعالى ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ [3] ويقول ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ وهذا الفعل لسنا بمرغمين عليه ، فإذا

---

(١) التوبة ١١٣ .
(٢) القصص ٥٦ .
(٣) الأنعام ١٥١ .

قتل الإنسان النفس المحرمة ، أو فعل الزنا علم الإنسان بعد الفعل أن القتل والزنا مكتوب عليه في الأزل فعله باختباره ، وهو عين ما يعلمه الله في الأزل وقوعه منه .

إذن فالإنسان هو المخطط لسعادته أو شقائه بفعل الأوامر الإلهية ، أو تركها وإهمالها ، فالمكتوب على الإنسان في الأزل ، هو ما يفعله باختياره الآن من خير يثاب عليه ، أو شر يعاقب عليه .

وما جاء في القرآن الكريم من الآيات التي توهم خلاف ذلك ننظر إلى ضمير الفعل أو إلى أي اسم يعود على سابق، يظهر لنا المعنى جلياً كما ذكرنا .

أمثلة :

آ ـ قال تعالى ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ فالضمير من يشاء يصلح أن يعود على من ، وعلى الله تعالى ، ولكن الروح هو الوحي والوحي هو من امر الله لا من مشيئة الأنسان ، إذن فالضمير في قوله من يشاء يعود على الله .

وفي قوله تعالى ﴿ يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾[٢] فالضمير هنا يعود على الأنسان السابق من مؤمن وكافر في قوله تعالى ﴿ ليستيقن الذي أوتوا الكتاب ويزداد الذي آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذي في قلوبهم مرض والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ أي مثل هذا الضلال الذي ضله المنافقون الذين في قلوبهم مرض ، وضله الكافرون ، يضل الله من يشاء من الناس الضلالة ، ومثل تلك الهداية للمؤمنين ولأهل الكتاب المستيقنين كعبدالله بن سلام وغيره ممن آمن وهو يعلم ما جاء في الكتب السابقة من ان عدة خزنة جهنم كما جاء في القرآن تسعة عشر يهدي الله من الناس من يشاء الهداية .

---

(١) غافر ١٥ .

(٢) المدثر ٣٠ .

ج ـ وهناك آيات كثيرة تصرح بالسبب الذي اهتدى به الناس ، وبالسبب الذي ضلوا به أيضاً ، قال تعالى : ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقصون عهد الله . ﴾[1] أي أن سبب ضلال من ضل فسقهم ونقضهم لعهد الله تعالى ، وهذا الفسق والنقض حاصل بأختيارهم وإرادتهم .

د ـ ﴿فريقا هدى وفريقا حقت عليه الضلالة﴾[2] ثم بينهم بقوله (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون المؤمنين) أي إن سبب ضلالهم اختيارهم الشياطين أنصاراً وأعواناً من دون المؤمنين .

هـ ـ ﴿ كذلك يضل من هو مسرف مرتاب﴾[3] أي أن سبب ضلاله شكه وخروجه عن طاعة الله .

و ـ ﴿ن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾[4] أي أن سبب هدايتهم هو إيمانهم .

ز ـ ﴿ ويضل الله الظالمين﴾[5] سبب إضلالهم كفرهم وظلمهم .

ومثلها قوله تعالى ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾[6] أي سبب ضلالهم ع عدم إيمانهم بالآخرة .

وقوله ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾[7] أي سبب ضلاله شركه .

وقوله تعالى ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾[8] أي أن سبب طبع الله على قلوبهم انهم ارتدوا بعد إيمانهم .

وهذه أمور كلها يفعلها الانسان بأختياره ، لا أن الله يضله إضلالا اعتباطياً أو عشوائياً .

---

(١) البقرة ٢٦
(٢) الأعراف ٣٠
(٣) غافر ٣٤
(٤) يونس ٩
(٥) إبراهيم ٢٧
(٦) سبأ ٨
(٧) النساء ١١٦
(٨) المنافقون ٣

وعلى هذا النمط من التفسير ، تتضح لك العقيدة الحقة في عقيدةالقضاء والقدر ، والجبر والأختيار،﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[9] وقال تعالى:﴿ وإما يأتينكم مني هدىفمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾وقال : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾[10].

(٩) النحل ١١٨

(١٠) صه ١٢٣

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ تفسير الفخر الرازي	
٣ ـ تفسير في ظلال القرآن	للأستاذ المرحوم سيد قطب
٤ ـ مع الله في السماء	الدكتور أحمد زكي
٥ ـ القرآن والعلم	الدكتور جمال الدين الفندي
٦ ـ بين البقاء والفناء	الأستاذ قدري حافظ طوقان
٧ ـ الكون	الأستاذ أحمد حسين
٨ ـ بصائر جغرافية	الأستاذ رشيد رشدي المعابري
٩ ـ النجوم في مسالكها	تعريب الدكتور الكرواني
١٠ ـ العالم غير المنظور	للدكتور علي عبد الجليل راضي
١١ ـ عالم الجن	الأستاذ عبد الرزاق نوفل
١٢ ـ الطب في محراب الإيمان	للدكتور خالص كنجو
١٣ ـ الله يتجلى في عصر العلم	لفئة من علماء المغرب
١٤ ـ القضاء والقدر	لأبي الوفا محمود درويش
١٥ ـ هل نحن مسيرون	للدكتور محمد علي الزعبي
١٦ ـ العقيدة الإسلامية وأسسها	للأستاذ عبدالرحمن حبنكة
١٧ ـ أطفال للبيع	للدكتور صبري القباني
١٨ ـ خلق الإنسان	للأستاذ لبيب بيضون
١٩ ـ الإسلام يتحدى	للأستاذ وحيد خان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إن مطبوعات المكتب الإسلامي تطلب مباشرة على عنوانيه

بيروت: ص.ب ٣٧٧١ - ١١ هاتف ٤٥٠٦٣٨ برقياً (اسلاميا)

دمشق: ص. ب ٨٠٠ هاتف ١١١٦٣٧ برقياً (اسلامي)

وليس للمكتب أي وكلاء أو متعهدين في بيروت أو أي بلد آخر